



مجلة

مجمع اللغة العربية بمشوق

«مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً»

مجلة محكمة فصلية

رمضان ١٤٣٦ هـ

تموز ٢٠١٥ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

«مجلة المجمع العلمي العربي سابقًا»

أُنشئت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

بجنته المجلة

الدكتور محمود السيد «رئيس التحرير»

الدكتور عبد الله واثق شهيد

الدكتور مازن المبارك

الدكتور أنور الخطيب

الدكتور محمد محفل

الدكتورة لبانة مشوح

أمينه المجلة: ريم الملاح

أغراض المجلة:

- إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- أن يُرفق الكاتب بحثه بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستل من أطروحة جامعية، وغير منشور من قبل، ولم يُرسل إلى جهة أخرى.
- ألا يقلّ البحث عن عشر صفحات وألا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٠٠) كلمة. أما المقالات فيُقبَل منها ما يقلّ عن عشر صفحات.
- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكتاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، وأن تشفع بقرص مدمج مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- أن يلتزم الباحث المنهج العلمي في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي:
((اسم المؤلف أو الكاتب - اسم الكتاب أو المجلة - رقم الصفحة))
- أما المصادر والمراجع فتكتب في آخر البحث وفق الترتيب الهجائي كما يلي:
((اسم الكتاب أو المجلة - اسم المؤلف أو الكاتب - دار النشر ومكانها - رقم الطبعة - سنة الطبع))
- تُوضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو:
تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسيّة (Psychologic).
- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- تُنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم السري.
- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تُردّ إلى أصحابها.
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشبكة (الإنترنت): www.arabacademy.gov.sy

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثامن والثمانين

٦١١

- نعي مجمعيّ

البحوث والدراسات

- عدم جواز حذف نون الرفع في
الأفعال الخمسة بلا عامل
٦١٥ د. ممدوح خسارة
- العربية في جنوب الجزيرة العربية حتى ظهور
الإسلام - الحلقة الثانية: كتابات الزبور
٦٣٩ د. رفعت هزيم
- فوات الدواوين (تتمّة)
٦٦٣ د. عباس الجراخ
- المنظور الثقافي في نقد (العقاد)
٦٨٧ د. وفيق سليطين
- ماءات القرآن لجامع العلوم النحوي
أبي الحسن علي بن الحسين
تحقيق د. عبد القادر السعدي
- ملحوظات ومآخذ
٧٠٥ د. فوزي الشايب
- اللغة العربية والمسلمون
٧٣١ د. حسين البطاينة

المقالات والآراء

- القيد - قيد كذا
٧٥٣ د. مكّي الحسني
- اليهود وغزوة أحد
٧٥٩ أ. إبراهيم الزبيق
- شكري فيصل
٧٧١ أ. عيسى فتوح

التعريف والنقد

- من أمالي محمود محمد شاكر على كتابي
الأصمعيات والكامل للمبرد
٧٨٣ د. عبد الإله نبهان
- عرض كتاب (أضواء على المشكلة اللغوية
العربية) للدكتور محمد عبده فلفل
٧٩١ د. فاتن كوكه

المحاضرات

- العقل ظاهرة انبثاقية
٨٠٥ د. هاني خليل رزق
- التصحيح اللغوي (كلام في المنهج)
٨١٣ د. مازن المبارك
- الاستثمار في اللغة العربية ثروة قومية
في عالم المعرفة
٨٥١ د. محمود السيد

أنباء جمعية وثقافية

- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب للعام (٢٠١١)
من (٣٤-٣٦)
٨٨١
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع
في الربع الثاني من العام ٢٠١٥
٨٨٧



نعيٌ ومجمعيٌّ

ينعى مجمع اللغة العربية بدمشق العضو المجمعى:

الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيّد

الأمين العام السابق للمجمع

أول وزيرٍ للتعليم العالى، ومؤسسُ مركز الدراسات والبحوث العلميّة،
خسر المجمع برحيله شخصية علمية وإدارية مرموقة، كان لها الإسهام الفعّال
في خدمة العلم واللغة العربية.

وافته المنية يوم السبت في ١ من ذي القعدة ١٤٣٦هـ

الموافق ١٥ من آب ٢٠١٥م

رحم الله الفقيد رحمةً واسعةً، سعة ما قدم لأُمَّته من عطاء،
وألهم ذويهِ ومحبيه الصبر والسلوان.

((إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ))

البحوثُ والدراسات

عدم جواز حذف نون الرفع في الأفعال الخمسة بلا عامل

أ.د. ممدوح محمد خسارة(*)

تمهيد:

تكاثرت الدَّعَوَات في العصر الحديث لتسهيل النحو وتيسيره، أو لتسهيل تعليم النحو وتيسيره وَفُقَ عبارة بعضهم. وقد أُلِّفَتْ كُتُبٌ لهذا الغرض، وشُكِّلَتْ لجان وعُقدت ندوات ومؤتمرات^(١)، ولم تحقّق تلك الكتب ولا الندوات والمؤتمرات للخبراء والمختصّين ما هو ذو بال كبير في هذا المسعى. اللهمّ إلا الفصل والتفريق بين النحو التعليمي الذي ينبغي له أن يدرّس القواعد النحويّة الأكثر شيوعاً وتوارداً في كل باب من أبواب النحو، وبما يلائم عامّة المتكلِّمين وغير المختصّين، وبين النحو العِلْمِيّ الذي ينبغي عليه أن يتعمّق في بحث القواعد والأحكام بتفصيلاتها وتعليقاتها، على ما تتطلبه حاجات

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) ينظر مثلاً: كتاب إحياء النحو لإبراهيم مصطفى سنة (١٩٣٧) - تقرير لجنة تيسير قواعد النحو في وزارة المعارف المصرية (١٩٣٨) - تجديد النحو للدكتور شوقي ضيف سنة (١٩٨١)، وتيسير النحو سنة (١٩٨٦) - مؤتمر تيسير تعليم النحو في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (٢٠٠٢)...

المختصين والباحثين المحققين، لیتمکنوا من الاعتماد علیها فی دَرَس ما یجِدُّ من تراکیب وأسالیب فی آیامهم، للنظر فی إمكان تصحیح تلك العبارات والتراکیب أو تخطئتها، بما یتوافق ومنظومة اللغة العربیة، لتسلم هذه المنظومة عامّة، والنظام النحوی فیها خاصّة، من التخلخل أو التصدّع ممّا لا یجعله مُحْتَكَمًا فی ضبط لغتنا وحمايتها والمحافظة علیها.

وفی إطار مساعي التسهیل والتیسیر ظهرت اجتهاداتٌ وتقیرراتٌ تحتاج إلى نظر وإعادة نظر ومزید من التفحص والتدقیق قبل إطلاقها والترخّص فیها. سوف یناقش بحثنا واحدةً من تلك الاجتهادات التي لهَجَ بها بعض اللغویین المعاصرین، وهي جواز حذف نون الرفع فی الأفعال الخمسة دون عامل نصبٍ أو جَزْم.

١ - المسألة بین المظهر والجذور:

ذهب بعض دُعاة التیسیر والتسهیل إلى جواز حذف نون الرفع فی الأفعال الخمسة دون عامل نصبٍ أو جَزْم، كأنْ یقال مثلاً: (قد لا تسافروا هذا الیوم...، وربما تغادری غداً)، بدلاً من أنْ یقال: (قد لا تسافرون الیوم...، وربما تُغادِرین غداً) كما یقتضی القیاس.

وقد جاء نصّ قول بعض هؤلاء اللغویین المعاصرین كما یلی: «حَدَفُ هذه النون تُوسِعُهُ وتیسیر علی المتكلمین، مع الاعتداد بأن الأفصح ثبوتها عند تجرُّد الفعل من الناصب والجازم ونون التوكید»^(٢).

(٢) هذا نص قرار لجنة الأصول فی مجمع اللغة العربیة بالقاهرة، المبني علی بحث للعضو الدكتور أمین السید. وقد رُفِع هذا القرار إلى مؤتمر مجمع القاهرة فی الدورة (٦٠) لسنة (١٩٩٤)، ولكن المؤتمر أَرَجَأ النظر فیهِ إلى دورات لاحقة، إلا أنني لم أقف علی أن مؤتمر القاهرة قد أقرّه حتى الدورة (٦٨) لسنة (٢٠٠٢). ینظر: مجمع اللغة العربیة بالقاهرة - کتاب «فی أصول اللغة» ٤: ٢٥٥، ٦٠٦.

ومن المعروف أن القاعدة والحكم في ذلك هو ما أورده سيبويه وأجمع عليه النحاة من بعده حول إعراب الفعل المضارع المسند إلى واو الجماعة أو ألف الاثنين أو ياء المؤنثة المخاطبة التي يعبر عنها سيبويه (بتثنية الأفعال المضارعة وجمعها)، ويعبر عنها آخرون (بالأمثلة الخمسة)، حيث قال: «فَجَعَلُوا إِعْرَابَهُ فِي الرَّفْعِ ثَبَاتِ النَّونِ... فَأَثَبْتُهَا فِي الرَّفْعِ، وَحَذَفُوهَا فِي الْجَزْمِ، وَوَأَفَقَ النَّصْبُ الْجَزْمَ فِي الْحَذْفِ... وَذَلِكَ قَوْلِكَ: هُمَا يَفْعَلَانِ، وَلَمْ يَفْعَلَا وَلَنْ يَفْعَلَا... وَهُمْ يَفْعَلُونَ وَلَمْ يَفْعَلُوا، وَلَنْ يَفْعَلُوا»^(٣).

لم يصل إلينا أن ثمة من النحاة المتقدمين من زاد على هذا الحكم أو استدرك.

ولعل جذور هذه الظاهرة تعود إلى ما عرّض له ابن جني من المتقدمين (٣٩٢) هـ. حيث قال: «سألت أبا علي رحمه الله عن قوله:

أَيْتُ أَسْرِي وَتَيْتِي تَدْلُكِي وَجَهْكَ بِالْعَنْبَرِ وَالْمِسْكَ الدُّكِي
فخُضْنَا فِيهِ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ حَذَفَ النَّونَ مِنْ (تَيْتِي)، كَمَا حَذَفَ
الحركة للضرورة في قوله:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
كَذَا وَجَهْتُهُ مَعَهُ، فَقَالَ: فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ (تَدْلُكِي)؟ قُلْتُ: نَجْعَلُهُ بَدَلًا
مِنْ (تَيْتِي) أَوْ حَالًا، فَاطْمَأَنَّ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا»^(٤)، أي كما سَكَّنَ المضارع
(أَشْرَبَ) فِي الْبَيْتِ، وَلَا مَسْوُوعٌ لِذَلِكَ إِلَّا الْضَّرُورَةُ، حَذَفَ النَّونَ مِنَ الْمَضَارِعِينَ
(تَيْتِي وَتَدْلُكِي) لِلضَّرُورَةِ^(٥).

(٣) سيبويه - الكتاب ١: ١٩ - ٢٠.

(٤) ابن جني - الخصائص ١/ ٣٨٨.

(٥) نص عبارة سيبويه في هذا البيت: «وَقَدْ يُسَكَّنُ بَعْضُهُمْ وَيُشَمُّ، وَذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (فَالْيَوْمَ =

توقّف ابن جنّي عند هذا الحدّ في الظاهرة وهذا البيت فحسب.
ثم جاء ابن مالك فقال في شرح الكافية الشافية له، باب الأفعال الخمسة،
إعراب ما اتصل به من الفعل ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة: «وإذا
اتصل بالفعل المضارع ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة، فعلامة رُفَعه
نونٌ مكسورة بعد الألف نحو: تذهبان، ومفتوحة بعد الواو والياء نحو:
تذهبون وتذهبن. وحذفت هذه النون علامة لجزمه نحو لم يذهباً، وعلامته
للنصب نحو لن تذهباً، فإذا اتصل بهذه النون نون الوقاية، جاز حذفها تخفيفاً
وإدغامها في نون الوقاية والفكّ. ودون (ني) [أي دون اتصال نون الوقاية بنون
الرفع] قد حُكِيَ حذْفُها في النثر ما رُوِيَ من قول النبي ﷺ: (والذي نفس محمد
بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا) والأصل: لا تدخلون
ولا تؤمنون، لأن (لا) نافية، و(لا) النافية لا تعمل في الفعل شيئاً، ومثال ذلك
قول الراجز:

أبیت أسري وتيتي تدلّكي وجَهْكَ بالعنبر والمِسْكَ الذّكي
والأصل (تيتين تدلّكين)، فحذف النون منها دون ناصبٍ ولا جازم،
ومنه قول أبي طالب:

فإن يكُ قومٌ سرّهم ما صنَعْتُم ستَحْتَلبونها لا قِحاَ غير باهل
فحذف الفاء والنون للضرورة^(٦).

= أشرب غير مُسْتَحَقَب... وجعلت النقطة علامة إشمام». ويلحظ أن سيبويه لم يقل (إن ذلك ضرورة)، بل قال: (قد يُسَكَّن ويُشَم). كما أنه لم يقل هذا في باب إعراب المضارع، بل في باب (الإشباع وغير الإشباع والحركة كما هي).

ينظر: سيبويه - الكتاب ٤: ٢٠٤

(٦) ابن مالك - شرح الكافية الشافية ١: ٢١-٢٢.

وبعد ابن مالك جاء تلامذته وشارحو كتبه وأتباع مذهبه النحويّ فتناقلوا أقواله وشواهدة، حتى شاعت في التراث النحويّ المتأخر. ويلحظ أن ابن مالك لم يُجَوِّز حذف نون الرفع في الأفعال الخمسة بلا عامل، وإنما حكى ما تنهى إلى سمعه من رواياتٍ لعباراتٍ دون أن يُصدر حكماً في ذلك.

٢ - تحليل الشواهد ومناقشتها:

قلنا آنفاً إن ابن مالك حكى ما تنهى إلى سمعه من رواياتٍ لعباراتٍ حُذفت فيها نون رفع الأفعال الخمسة بلا عامل، ولكنه لم يجوّز ذلك صراحةً، كما فعل بعضُ المحدثين من المجوّزين تصریحاً. ومع ذلك فسوف نستعرض تلك الروايات لشواهدة ونناقشها لنرى إلى مدى صحّة قبولها أو ردّها بالحجة والدليل، معتمدين قواعد علم أصول النحو.

والشواهد التي أوردها ابن مالك ومن بعده من النحاة هي:

• بيت الرّجَز:

أَيُّتُ أُسْرِي وَتَيْتِي تَدُلُّكِي وَجَهَّكَ بِالْعَنْبَرِ وَالْمِسْكِ الدَّكِي

• بيت أبي طالب:

فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ سَرَّهْمَ مَا صَنَعْتُمْ سَتَحْتَلِبُوهَا لِقِحاً غَيْرَ بَاهِلٍ

• ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله:

«لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا...، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا».

• ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: «كَمَا تَكُونُوا يُؤْتَى عَلَيْكُمْ»

• قراءة في الآية ٦٤ من سورة الزمر: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا

الْجَاهِلُونَ﴾ بتخفيف النون في (تأْمُرُونِي)

• قراءة أبي عمرو في الآية ٤٨ من سورة القصص: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نَجْمٌ﴾ بتشديد الظاء في (تَظَاهَرَا).

• رواية أثر عمر بن الخطاب حين سمع رسول الله ﷺ يُنادي قَتْلِي بدر: «يا رسول الله كيف يَسْمَعُوا وَأَنِّي يجيبوا».

فَلتَتَفَحَّصْ هذه الشواهد متوناً وأسانيد، في ضوء قواعد أصول النحو كما قدّمنا.

١ - بيت الرّجز:

أَبِيْتُ أُسْرِي وَتَيْتِي تَدْلُكِي وَجَهَكَ بِالْعَنْبَرِ وَالْمِسْكَ الدَّكِي^(٧)
في هذا البيت - أو البيتين - كما يذهب دارسو الرّجز - يقارن الرّاجز حاله بحال زوجته أو صاحبه، فهو يَضْرِبُ في الليل لكسبٍ أو حَرْبٍ، في حين هي تتحلّى وتتعطر وترفل في عيشة ناعمة.

وعلى هذا الرّجز مأخذ:

الأول: أن هذا الرّجز بيت مُفْرَدٌ، لم يُرَو له سابق ولا لاحق، وهذا وإن كان لا يقدح حتماً في صحّة الاحتجاج به، لكنّه يوجّه الشبهة إلى أنه قد يكون مَصْنُوعاً، لأن معظم الأبيات المفردة قد تكون كذلك.

الثاني: أنه مجهول القائل. ومن شروط الاحتجاج بقول أن يكون قائله معروفاً.

جاء في الاقتراح للسيوطي: «لا يجوز الاحتجاج بشعرٍ أو نثر لا يُعْرَف

(٧) ورد هذا الرّجز بحسب معجم الشواهد العربية لعبد السلام هارون ص ٥١٥ غير منسوب، وذلك في المحتسب ٢: ٢٢، خزنة الأدب ٣: ٥٢٥، التصريح بمضمون التوضيح للأزهري ١: ١١، همع الهوامع للسيوطي ١: ٥١، الدرر اللوامع للشنقيطي ١: ٢٧، حاشية ياسين على التصريح: ٧٦، ٣٣٢. كما ورد في الخصائص ١: ٣٨٨، شرح الكافية الشافية لابن مالك ١: ٢٢ والفاخر في شرح جمل عبد القاهر للبعلي الحنبلي ١: ١٠٢، وغيرها كثير...

قائله، صرَّح بذلك ابن الأنباري في الإنصاف»^(٨).

ولولا أن من رواه ابن جني، وهو ثقة في اللغة، لما كان البحث فيه يستحق العناء.

الثالث: أن ما علل به حذف نون الرفع في هذا الرجز هو الضرورة. وذلك قول ابن جني: «واستقرَّ الأمر فيه على أن حذف النون من (تبتين) للضرورة»^(٩). وإليها أيضاً ذهب ابن مالك في شرح الكافية الشافية له^(١٠).

ولا يصح الاحتجاج بضرورة تخالف ما هو أساسيٌّ مُحكَّم من القواعد. الرابع: أن مما وُصِف به حذفها التُّدرة، كما ورد في شرح الرضي الأسترابادي: «ونَدَّر حذفها إلا للأشياء المذكورة [أي لوجود العامل أو التقائها بنون الوقاية] نظماً ونثراً، قال: أبيت أسري وتبتي تدلكي...»^(١١).

وبالنسبة وصفه ابن عقيل حيث قال: «ونَدَّرَ حَذْفُهَا مفردةً مع عدم الملاقاة [بنون الوقاية] مثل: في الرفع نظماً نحو: وتبتي تدلكي؛ أي: تبتين تدلكين»^(١٢)، أما الصَّبَّان فقد وصفه «بالقلَّة»^(١٣).

الخامس: يمكن عدُّ هذا الحذف من الشاذ بحسب تعريف السيوطي للشاذ حيث قال: «فَجَعَلَ أهل العربية ما فارق ما عليه بأبه، وما انفرد عن ذلك الباب شاذاً»^(١٤).

(٨) السيوطي - الاقتراح في أصول النحو: ٢٧.

(٩) ابن جني - الخصائص ١: ٣٨٨.

(١٠) ابن مالك - شرح الكافية الشافية له ١: ٢٢.

(١١) الرضي الأسترابادي - شرح الرضي على الكافية ٤: ٢٤.

(١٢) ابن عقيل - المساعد على تسهيل الفوائد لابن مالك ١: ٣٢.

(١٣) الصَّبَّان - حاشية الصَّبَّان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١: ٢١٥.

(١٤) السيوطي - الاقتراح في علم أصول النحو: ٢٠.

إننا نرى أن شاهداً اجتمع فيه جهالة القائل والانفراد والضرورة والندرة والشذوذ، لا يصلح أن يُقعدَّ عليه حُكْمٌ ما، يَحْرُقُ حُكْمًا هو من أقيس أحكام الإعراب في النحو.

٢- البيت المنسوب لأبي طالب:

فإن يك قومٌ سرَّهم ما صنَعْتُمْ ستحتلبوها لا قِحاَ غير باهَلٍ^(١٥)
ويتوجَّه على هذا البيت أمور:

الأول: لم يذكر أحد من النحاة المتقدمين حتى القرن الهجري السابع هذا البيت ولا احتجَّ به. فهو لم يُذكر إلا في مؤلفات ابن مالك وشروحا لتلامذته أو المتأخرين من النحاة.

الثاني: أن معجم شواهد العربية لعبد السلام هارون الذي اعتمد ثلاثين مصدراً أساسياً ومئات المراجع الثانوية، لم يذكر هذا البيت. على أنه ذكَّر لأبي طالب خمسة أبيات من لاميته المشهورة التي استقرها من السيرة النبوية لابن هشام وتاريخ ابن الأثير ودلائل الإعجاز للجرجاني وأمالي ابن الشجري^(١٦).

الثالث: هل من المعقول أن يرتكب أبو طالب - شيخ عبد مناف المعروف ببلاغته التي ورَّثها الإمام علياً بن أبي طالب - ضرورتين شعريتين في بيت واحد، بل في كلمة واحدة، وهما إسقاط فاء جواب الشرط وحذف نون الرفع

(١٥) ينظر شرح الكافية الشافية لابن مالك ١: ٢٢ وفي الفاخر في شرح جمل عبد القاهر للبعلي الحنبلي ١: ١٠٢... واللاقح هي الناقة التي قبلت اللقاح، والباهل: الناقة المتروكة بلا صرار يجلب منها من يشاء. والمعنى أن الشاعر يحذر قومه إن هم رَضُوا بما يقع لبني هاشم. والشاهد فيه عندهم حذف فاء جواب الشرط ونون الرفع في الفعل (ستحتلبوها)، أو (ستحتلبوها) كما في رواية أخرى.

(١٦) عبد السلام هارون - معجم شواهد العربية: ٣٠٨.

في كلمة (ستحتلبوها) دون عامل نصب أو جزم؟

والرابع: وهو الأهم أن البيت الذي ورد في قصيدة أبي طالب في عتاب قوم من قريش ولومهم وتبصيرهم بما يترتب على تأليب قبائل العرب على أبناء عمهم بني هاشم هو:

فإن نكُ قوماً نثَّرتُ ما صنَعْتُم وتحتلبوها لَفَحَةً غير باهل^(١٧)

وهذه الرواية للبيت تتوافق تماماً وقاعدة إعراب الأفعال الخمسة، فيكون الفعل (وتحتلبوها) معطوفاً على جواب الشرط المجزوم وهو فعل (نثَّرتُ)، وعلامة جزمه حذف النون. وعليها يَبتل قولهم عن حذف فاء جواب الشرط، إذ صار جواب الشرط هو فعل (نثَّرتُ) الذي جُزِم، فسقطت الحاجة إلى الفاء الرابطة للجواب.

ولا شكَّ في أن سند هذا البيت في سيرة ابن هشام وابن كثير أقوى من سنده في كتب النحو، لأن سيرة ابن هشام أدقُّ ضبطاً، إذ هي مصدر أساسي من مصادر الحديث النبوي الشريف. وبهذا الضبط ورد في الديوان المحقق^(١٨).

وأما في متن الرواية فلا خلاف في أنه إذا تعارضت روايتان لقولٍ: إحداهما تتفق والقياس، والأخرى تنقضه، فالأولى الأخذ بها يوافق القياس، يقول السيوطي: «إذا تعارض [حكمان] مجتمعاً عليه ومختلفاً فيه، فالأول أولى»^(١٩).

٣- ما روي عن رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا...»

(١٧) ينظر سيرة ابن هشام ١: ٢٩٧، والقصيدة ثمَّ كاملة في ١: ٢٩١، والسيرة النبوية لابن كثير ٤٩٠: ١.

(١٨) ديوان أبي طالب، تح عبد الحق العاني: ١٣٦. ونثرت: نُدرِك ثأرنا.

(١٩) السيوطي - الاقتراح: ٨١.

ورَد هذا الحديث بثلاث روايات هي:

الأولى: «عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا...»

وهي رواية سنن أبي داوود، الحديث (٤٣٢٥) وسنن ابن ماجه، الحديث (٦٨).

الثانية: عن أبي هريرة: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا...».

وهي رواية شرح البخاري لابن بطال^(٢٠)، وشرح صحيح مسلم للنووي^(٢١). وصحيح الجامع الصغير وزياداته^(٢٢).

ويلحظ في هذه الرواية أن الفعل الأول (تدخلون)، جاء مرفوعاً بثبوت النون على القياس، وأن الفعل الثاني (تؤمنوا) جاء بحذف النون على غير القياس.

الثالثة: ولها ثلاثة مصادر:

أ- في شرح السنة للبغوي: «...عن يعيش بن الوليد عن مولى الزبير عن النبي ﷺ قال: والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابُّوا...»^(٢٣).

ب- في كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي: «عن الأعمش بن أبي صالح عن أبي هريرة قال: والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابُّوا...»^(٢٤).

(٢٠) ابن بطال - شرح البخاري ١٨: ١٥١، ١٩٧.

(٢١) النووي - شرح مسلم ١١: ٤٥ - ٤٦.

(٢٢) ناصر الدين الألباني - صحيح الجامع الصغير وزياداته ٣: ٤٩٦.

(٢٣) البغوي - شرح السنة ١٢: ٢٥٩.

(٢٤) محمد بن فتوح الحميدي - الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ٣: ٢١١.

ج- في كتاب المُسند المُستخرج على صحيح الإمام مُسلم للهَرَّانِي: «عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا...»^(٢٥). أي إن المتن جاء وفق القياس النحوي.

نخلص مما سبق إلى أن هذا الحديث هو من الصَّحاح، ولكنه وَرَدَ بثلاث روايات:
- بثبوت النون في (لا تدخلون) و (لا تؤمنون) وهي على القياس النحوي.
- وبثبوت النون في الفعل الأول (لا تدخلون)، وحذفها في الفعل الثاني (ولا تؤمنوا)، على القياس في الأول ومخالفته في الثاني.

- وبحذف النون من الفعلين (لا تدخلوا ولا تؤمنوا) في الرفع بخلاف القياس. فعلى أي من متون هذه الروايات نقعد لغويًا ونحويًا.

لا شك في أن اللغوي يعتمد الرواية الأقيس في اللغة، لأنه إذا وردت روايتان: الأولى تتفق والقياس اللغوي النحوي، والثانية تخالفه، فالأولى الأخذ بالرواية التي تتفق والقياس. يقول السيوطي: «إذا تعارض نقلان أخذ بأرجحهما، والترجيح في شيئين: أحدهما الإسناد والآخر المتن، فأما الترجيح بالإسناد فبأن يكون رواة أحدهما أكثر من الآخر أو أعلم أو أحفظ.. وأما الترجيح بالمتن، فبأن يكون أحد النقلين على وفق القياس، والآخر على خلافه»^(٢٦).

كما أننا هنا أمام روايتين ينتج عنهما حُكْمَانِ نحويان: أحدهما مُجْتَمِعٌ عليه، وهو ثبوت نون الأفعال الخمسة في الرفع، وثانيهما مُخْتَلَفٌ فيه، وهو حذف هذه النون من دون عامل نصبٍ أو جزم، والحكم في هذا ما سبق ذكره من قول السيوطي:

(٢٥) الهَرَّانِي الأصبهاني - المسند المُستخرج على صحيح الإمام مسلم ١: ١٤١.

(٢٦) السيوطي - الاقتراح في علم أصول النحو: ٧٧.

«إذا تعارض حُكْمَانِ مُجْتَمِعٌ عَلَيْهِ وَمُخْتَلَفٌ فِيهِ، فَالْأَوَّلُ أَوْلَى»^(٢٧). ولا سيما أن الحكم الثاني ليس مختلفاً فيه فحسب، بل هو من باب الضرورة الشعرية أو التُّدْرَة أو الشذوذ، وليس من الفصيح، ونحن «نعلم قطعاً غير شكٍّ أن رسول الله ﷺ كان أَفْصَحَ النَّاسِ، فلم يكن يتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزؤها»^(٢٨). ولا شكَّ في أن أشهر اللغات وأفصحها هو إثبات علامة الرفع في الفعل عند غياب عامل النصب أو الجزم.

٤ - ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله: (كما تكونوا يوتى عليكم).

وعلى هذه الرواية للحديث مأخذ:

الأولى: ليس لهذه الرواية ذكر في الصَّحِيحَيْنِ وكتب السُّنَنِ.

الثانية: الكتب التي أوردت هذا الحديث وصفته بالضعيف.

أ- ورد هذا الحديث في شُعْبِ الْإِيمَانِ للبيهقي مع سنده، وقال: «وهذا مُنْقَطِعٌ وراويهِ يَحْيَى بْنُ هِشَامٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ»^(٢٩).

ب- وردت هذه الرواية في الجامع الصغير للسيوطي، وقال عنه: «ضعيف»^(٣٠).

ج- أوردَهَا صاحب (كشف الخفاء)، وذكر أنه جاء في رواية الحاكم مرفوعاً،

وأخرجه البيهقي منقطعاً، وأخرجه ابن جميع في معجمه، وقال: «وفي

سَنَدِهِ مَجَاهِيلٌ»^(٣١). وجاء في موضع آخر من الكتاب نفسه أن السيوطي

عَلَّلَ حَذْفَ النُّونِ بِأَنَّهُ «عَلَى لُغَةٍ مَنْ حَذَفَهَا بِلَا نَاصِبٍ أَوْ جَازِمٍ أَوْ عَلَى أَنَّهُ

(٢٧) السيوطي - الاقتراح في أصول النحو: ٨١.

(٢٨) المصدر السابق: ١٨.

(٢٩) البيهقي - شعب الإيمان: ٦: ٢٢.

(٣٠) السيوطي - الجامع الصغير: ٢: ١٦٧.

(٣١) إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني - كشف الخفاء ومزيل الإلباس ١٢٦/٢.

من تغيير الرواة»^(٣٢).

د- جاء في فتاوى الأزهر على موقع وزارة الأوقاف المصرية: «حديث كما تكونوا يؤلّ عليكم»... هذا الحديث رواه الديلمي. ورواه البيهقي عن أبي إسحاق السبيعي مُرسلاً، أي سقط منه الصحابي، وهو حديث ضعيف»^(٣٣). وهكذا تختلف الأقوال في سنده ما بين مُرسَل ومُنقَطع ومرفوع، ولكنها تتفق جميعاً على أنه ضعيف.

ه- ولكن ثمة روايةٌ جاءت في كتاب التيسير بشرح الجامع الصغير، وهي: «كما تكونوا يؤلّ عليكم. لَفْظُ روايةِ الديلمي: كما تكونون يؤلّ عليكم أو يؤمّر عليكم»^(٣٤).

إذن نحن أمام روايتين لحديث ضعيف: إحداهما مخالفة للقياس شاذة عنه، والثانية موافقة له. ولا شك في أن اللغوي في مثل هذه الحالة يعتمد الرواية الموافقة للقياس النحوي دون المخالفة له، لأن من «شرط المقيس عليه ألا يكون شاذاً أو خارجاً عن سنن القياس، فما كان كذلك لا يجوز القياس عليه»^(٣٥). ولا يحقّ لمجوزي الحذف الاحتجاج بروايتهم؛ ذلك أنه «إذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال»^(٣٦).

٥- الأثر المروي عن عمر بن الخطاب: (كيف يسمعون وأنى يجيبوا):

فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه حين سمع رسول الله ﷺ ينادي قتل بدر

(٣٢) المصدر السابق ٢: ١٢٧.

(٣٣) فتاوى الأزهر على موقع وزارة الأوقاف المصرية - المكتبة الشاملة.

(٣٤) الحافظ زين الدين المناوي - التيسير بشرح الجامع الصغير ٢: ٤٣٤.

(٣٥) السيوطي - الاقتراح في علم أصول النحو: ٤١.

(٣٦) السيوطي - الاقتراح: ٢٩، والقول لأبي حيان الأندلسي.

من المشركين قال: «يا رسول الله كيف يَسْمَعُوا وَأَنْتَى يُجِيبُوا وَقَدْ جَيِّقُوا؟ قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا»^(٣٧).

ورد هذا الحديث في صحيح مسلم عن أنس بن مالك، ولم يرد في صحيح البخاري، وإنما ذكره العيني شارح صحيح البخاري في معرض شَرَحِه لحديث آخر نقلًا عن مسلم^(٣٨).

ولكنَّ لهذا الحديث رواياتٍ أخرى عديدة تجري وَفْق القياس النحوي بإثبات نون الرفع في الأفعال الخمسة إذا تجردت من عوامل النصب أو الجزم. وهذه الروايات هي:

أ- جاء في مُسْنَد أنس بن مالك وهو الصحابي الذي رُوي عنه الحديث: «فَسَمِعَ عمر بن الخطاب قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: كيف يسمعون وَأَنْتَى يجيبون وقد جَيِّقُوا؟ قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا»^(٣٩).

وهذه الرواية هامة لأنها مسندة لأنس بن مالك الذي ذكر مسلم أن الحديث رُوي عنه كما سمعه من النبي ﷺ.

ب- جاء في صحيح ابن حبان وبسند مسلم نفسه: «... قال يا رسول الله كيف يسمعون قولك أو يجيبون وقد جَيِّقُوا؟ فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا»^(٤٠). وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣٧) مسلم بن الحجاج النيسابوري - الجامع الصحيح ٨: ١٦٣. وجَيِّقُوا: أُنْتُوا بعد أن ماتوا.

(٣٨) بدر الدين العيني - عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٣: ١٠٤.

(٣٩) ابن الأثير - جامع الأصول من أحاديث الرسول ١: ١٦٠٦.

(٤٠) ابن حبان - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٤: ٤٢٣.

ج- جاء في الجامع لأحكام القرآن: «... فسمع عمر قول الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جئوا...»^(٤١).

د- جاء في كتاب الفتاوى الكبرى لابن تيمية: «كما ثبت في الصحيحين عن النبي... فسمع عمر، فقال يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جئوا...»^(٤٢).

ه- وجاء في الجمع بين الصحيحين «... فسمع عمر قول الرسول ﷺ، فقال: كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جئوا...»^(٤٣).

و- وكذا جاء في جامع الأصول من أحاديث الرسول^(٤٤) وفي البدر المنير^(٤٥) وفي إحياء علوم الدين^(٤٦) والأحكام الشرعية الكبرى^(٤٧).

والعجب لا ينقضي من أن يصح بناء حكم نحوي اعتماداً على رواية لحديث نبوي جاءت معظم الروايات مخالفة لها في متنه ومُتَّفَقَةٌ معها في سنده. والذي نراه أن الدليل اللغوي في تلك الرواية التي وردت بحذف نون الرفع في الأفعال الخمسة دون عامل نصب أو جزم مخالفة للقياس، هو دليل غير صحيح، ما دامت قد تواردت الروايات على خلافها، متوافقةً والقياس النحوي.

٦ - قراءة الآية (٤٨) من سورة القصص: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ بتشديد

الظاء أي (تظَاهرا) من قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى

(٤١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٤٢٣.

(٤٢) ابن تيمية - الفتاوى الكبرى ٣: ٦٠ وكذا في مختلف كتب ابن تيمية.

(٤٣) محمد بن فتوح الحميدي - الجمع بين الصحيحين ٢: ٤٩٢.

(٤٤) ابن الأثير - جامع الأصول من أحاديث الرسول ٨: ٢٠٤.

(٤٥) ابن الملقن الشافعي - البدر المنير في تخريج الأحاديث الواقعة في الشرح الكبير ٥: ٢٤٠.

(٤٦) الغزالي - إحياء علوم الدين ١: ٣٠٢.

(٤٧) ابن الخراط الأندلسي - الأحكام الشرعية الكبرى ٢: ٥٤١.

مَثَل مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
 وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ وفي تلك القراءة نظر. ذلك أنني لم أجد قراءة (تظاهرا)
 بتشديد الظاء، التي احتج بها بعضهم^(٤٨) إلا في موضعين:

الأول: وصفها بالشذوذ؛ قال أبو حيان الأندلسي: «وفي قراءة شاذة (قالوا
 ساحران تظاهرا)، أي: ساحران تظاهران، فأدغم التاء في الظاء»^(٤٩).

الثاني: وصفها بالسّهو والغلط: جاء في مقدمة كتاب النشر في القراءات
 العشر: «ومثال ما نقله ثقة لا حجة له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه
 السّهو والغلط وعدم الضبط ومعرفة الأئمة والحفاظ الضابطين، وهو قليل جداً،
 بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه... ما رواه أبو علي العطار عن العباس
 عن أبي عمرو: (ساحران تظاهرا)، بتشديد الظاء، والنظر في ذلك لا يخفى»^(٥٠).

ونرى أن الاحتجاج بهذه القراءة لا يصح، لا اعتبارين:

الأول: أن القراءة المحتج بها هي قراءة شاذة على حدّ تعبير أبي حيان
 الأندلسي، أو هي سهوٌ وغلط، على حدّ تعبير مراجع كتاب النشر في القراءات
 العشر. وما كانت كذلك لا يُعتمد عليها في تقرير اجتهاد يتعارض والقياس،
 ليخرق قاعدتين ثابتتين في النحو العربي، وهما قاعدة علامات الإعراب الفرعية
 في الأفعال الخمسة، وقاعدة عمل النواصب والجوازم.

الثاني: لا يبعد أن يكون قد وقع تداخلٌ في قراءة الآيتين اللتين وردت فيهما

(٤٨) مجمع اللغة العربية بالقاهرة - في أصول اللغة ٤: ٥٥٢.

(٤٩) أبو حيان الأندلسي - أو كشف الضرب من كلام العرب: ٨٤٥.

(٥٠) ابن الجزري - النشر في القراءات العشر - تح محمد الضباع - المقدمة ١: ٢٧.

كلمة (تظاهرا)، وهما قوله تعالى في سورة (القصص ٤٨)^(٥١): ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾، والفعل هنا ماضٍ لا وجه لتشديد ظائه، وقوله تعالى في سورة (التحریم ٤): ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾، والفعل هنا مضارع أصله (إِنْ تَتَّظَاهَرَا)، «أرادوا (تَظَاهَرَا)، فأذغَموا التاء في الظاء»^(٥٢)

٧- قراءة الآية (٦٤) من سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾

جاء في كتاب السبعة في القراءات: «واختَلَفُوا في قوله (تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ):

- فقرأ نافع وابن عامر (تَأْمُرُونِي) بتخفيف النون. قال عبد الله بن أحمد بن ذكوان: كذلك وجدتها في كتابي عن أيوب، وفي حفطي (تَأْمُرُونِي) بنونين.
- وقرأ ابن هشام عن ابن عامر بنونين [أي تَأْمُرُونِي].
- وقرأ ابن كثير: (تَأْمُرُونِي) مشددة النون ومفتوحة الياء.
- وقرأ الباقون: (تَأْمُرُونِي) مشددة النون ساكنة الياء»^(٥٣).

إذن نحن أمام ثلاث قراءات:

- قراءة (تَأْمُرُونِي) بتشديد النون، أي بإثبات نون الرفع وإدغامها بنون الوقاية وهي قراءة الأكثرية. وبها كتبت في مصاحفنا وهي متفقة والقياس النحوي.
- قراءة (تَأْمُرُونِي) بإثبات نون رفع الأفعال الخمسة وبعدها نون وقاية وهي مُتَّفَقة والقياس النحوي أيضاً.

(٥١) ثمة قراءة أخرى لكلمة (سِحْرَانِ) وهي (ساحران). ينظر: ابن خالويه - الحجة في

القراءات السبع ١: ٢٠٢.

(٥٢) ابن خالويه - الحجة في القراءات السبع ٢: ٢٦٨.

(٥٣) ابن مجاهد - السبعة في القراءات ١: ٥٦٣.

• قراءة (تأمرني) بنون واحدة، أي إن ثمة نوناً محذوفة.
وقد قدّر بعض النحاة أن النون المحذوفة هي نون الرفع، وقدّر آخرون أن
المحذوفة هي نون الوقاية. جاء في إتحاف فضلاء البشر: «والمختار أنها نون
الرفع، وقيل نون الوقاية»^(٥٤).

إذا كانت المحذوفة نون الوقاية على أحد القولين، فلا خرق لقاعدة إعراب
الأفعال الخمسة، إذ ثبتت نون الرفع لعدم الناصب والجازم.
أما إذا قدّر أنّ المحذوفة هي نون الرفع على القول الآخر، فعندئذٍ تُخرق
قاعدة إعراب الأفعال الخمسة.

ولكننا نذهب إلى أن المحذوف من هذا الفعل هو نون الوقاية وذلك لأمر:
الأول: أن نون الرفع علامة إعرابية، والإعراب خاصية أصيلة من
خصائص العربية، وحذف علاماته دون عامل يُجِلُّ بهذه الخاصية الثابتة، وفي
إثباتها صونٌ لهذه الخاصية.

الثاني: أن الغرض من نون الوقاية هو حماية الحرف الأخير من الفعل من
الكسر عند التقائه بياء المتكلم، لأن الفعل لا يقبل الكسر مثل: (أمرني
ويأمرني). ولكن، وفي حالة الفعل الذي نبحت فيه وهو فعل (تأمرني)، فإن
النون في آخر الفعل (تأمرون) ليست حرفاً من الفعل، بل هي علامة إعراب
فرعية تنوب عن علامة الرفع الأصلية وهي الضمة. والمعروف أن علامة
الإعراب في الأسماء لا تحذف عند التقائها بياء المتكلم، بل تُقدَّر وتبدل بها
حركة أو علامة تناسب الياء، ففي قولنا (هذا كتابي) غيّرت حركة أو علامة
الإعراب على الباء - وهي الضمة - إلى كسرة لتناسب ياء المتكلم. وبالنظر

(٥٤) الديمياطي - إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ١: ٦٧٤.

لحُرْمَة علامة الإعراب فإن بعض المعربين يقدرون نيابة الكسرة الأصلية عن الكسرة المجتلبة لمناسبة الياء، فيقولون في مثل (من كتابي) : كتاب: اسم مجرور بمن وعلامة جره الكسرة المقدّرة على ما قبل آخره لاشتغال المحل بالحركة المناسبة للياء، أي إنهم قدّروا كسرة بدل كسرة، لكي لا يخرقوا قاعدة نحوية تقول: إن الإعراب أثرٌ يجلبه العاملُ على آخر الكلمة.

الثالث: أن نون الوقاية قد حُذفت جوازاً في بعض أسماء الأفعال أو الحروف، كما في (ليتي) من ليتني، و(لعي) من لعلني، و(قدي) من قدني. كما سُمِع حذفها ممّا اتصلت به من حرفي الجرّ (مِنْ وَعَنْ) في قول الراجز: - إن صحّت الرواية -

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْهُمْ وَعَنِّي لست من قيسٍ ولا قيسٌ مِنِّي
وعلى هذا فالاحتجاج بهذه القراءة غير المشهورة وغير المتعلّمة لا يصح الاعتماد عليها في الخروج على قاعدة قياسية ما دامت القراءات الأخرى - وهي الغالبة - تتوافق والقياس، وما دام يمكن تخريج هذه القراءة على وجه موافق للقياس، بأن ما حُذِف من (تأمروني) هو نون الوقاية لا نون الرفع.

نخلص من كُلِّ ما تقدّم إلى أن كلَّ الأدلّة التي احتجّ بها مجوّزو حذف نون رفع الأفعال الخمسة بلا عامل نصب أو جزم هي أدلّة لم تثبت أمام المناقشة والمحكمة، لأنه لا يجوز أن يؤدي قياس جديد إلى خلاف ما عليه القياس الثابت؛ يقول ابن جني: «إذا أدّك القياس إلى شيء ما، ثمّ سمعت العرب قد نطقت بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه»^(٥٥) وهذا يُشبه ما في علم أصول الفقه، من نقض الاجتهاد إذا بان النصُّ بخلافه.

وإلى مثل هذا ذهب ابن السراج (٣١٦هـ) الذي وصف بأنه «عقل النحو» في قوله: «واعلم أنه ربما شذَّ الشيء عن بابه، فينبغي أن تعلم أن القياس إذا اطَّرد في جميع الباب لم يُعَنَّ بالحرف الذي يشذُّ منه فلا يطرِّد في نظائره، وهذا يستعمل في كثير من العلوم، ولو اعترض بالشاذ على القياس المطرد لبطل أكثر الصناعات والعلوم. فمتى وجدت حرفاً مخالفاً لا شك في خلافه لهذه الأصول فاعلم أنه شاذ، فإذا سمع ممن تُرضى عربيته فلا بُدَّ من أن يكون قد حاول به مذهباً ونحاً وجهاً من الوجوه أو استهواه أمرٌ غلَّطه»^(٥٦).

وإذا ما عدَّ بعض ما مرَّ من الأدلة والشواهد ضرورةً، فقد ذهب معظم العلماء إلى عدم جواز القياس على الضرورة، نذكر منهم السيوطي الذي قال معلقاً على البيت: «... وتبتي تدلكي»:

«ولا يُقاس على شيءٍ من ذلك في الاختيار»^(٥٧) ولعله يريد أنه إذا ألجأت

الضرورة إلى مثل ذلك فلا يصح القياس عليها في السعة وعدم الضرورة.

أما من المحدثين، فهذا ما ذهب إليه النحوي الكبير عباس حسن، فبعد أن ذكر هذه اللغة التي روي بها الحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا...» قال: «وليس من السائق أتباع هذه اللغة في عصرنا ولا محاكاتها، وإنما ذكرناها لنفهم ما ورد في بعض النصوص القديمة»^(٥٨).

وفي الختام، فإن ما أدَّى إليه البحث، وقادت إليه المناقشة هو أنه لا يجوز حذف نون الرفع في الأفعال الخمسة من دون عامل نصب أو جزم، وبه نقول.

اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفع بما علِّمتنا ■

(٥٦) ابن السراج - الأصول في النحو ١: ٥٦ - ٥٧.

(٥٧) السيوطي - همع الهوامع ١: ١٢٩.

(٥٨) عباس حسن - النحو الوافي ١: ١٨٠.

المصادر والمراجع

- أبحاث مؤتمر تيسير النحو - مجمع اللغة بدمشق - دمشق (٢٠٠٢).
- إتخاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر - الدمياطي - تح أنس مهرة دار الكتب العلمية - لبنان (١٩٩٨).
- الأحكام الشرعية الكبرى - ابن الخراط الأندلسي - تح أبو عبد الله حسين ابن عكاشة - مكتبة الرشد - الرياض - ط ١ (٢٠٠١).
- إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة - بيروت [د.ت.].
- ارتشاف الضرب من لسان العرب - أبو حيان الأندلسي - تح د. رجب عثمان محمد - مراجعة د. رمضان عبد التواب - الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ١ (١٩٩٨).
- الأصول في النحو - ابن السراج - تح د. عبد الحسين الفتلي - مؤسسة الرسالة بيروت ط ٣ (١٩٨٨).
- الاقتراح في علم أصول النحو - السيوطي - دار المعارف - سورية - حلب (د.ت.).
- البدر المنير - ابن الملقن الشافعي - تح مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال - دار الهجرة للنشر والتوزيع - ط ١ (٢٠٠٤).
- التيسير بشرح الجامع الصغير - المناوي زين الدين - دار النشر مكتبة الإمام الشافعي - الرياض ط ٣ (١٩٨٨).
- جامع الأصول من أحاديث الرسول - ابن الأثير - تح عبد القادر

- الأرناؤوط. الناشر: مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان - ط ١
(١٩٦٩ - ١٩٧٢).
- الجامع الصحيح المُسمّى صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - دار الجيل
الجديد ودار الآفاق الجديدة - بيروت (د.ت).
- الجامع الصغير - السيوطي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -
بيروت (د.ت).
- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - تح هشام سمير البخاري - عالم
الكتب - الرياض ط ٢ (٢٠٠٢).
- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم - الحميدي محمد بن فتوح -
تح. د. علي حسين البواب - دار ابن حزم - بيروت - ط ٢ (٢٠٠٢).
- حاشية الصَّبَّان على شرح الأشموني - الصَّبَّان - دار إحياء الكتب العربية
- مصر (عن المكتبة الشاملة).
- الحجّة في القراءات السَّبْع ابن خالويه - (عن موقع مكتبة مشكاة).
- الخصائص - ابن جنّي - تح محمد علي النجار - عالم الكتب - بيروت (د.ت).
- ديوان أبي طالب - أبو طالب - تح عبد الحق العاني - كوفان للنشر -
المملكة المتحدة - لندن [١٩٩١].
- السبعة في القراءات - ابن مجاهد - تح د. شوقي ضيف - دار المعارف -
القاهرة (١٤٠٠هـ).
- السيرة النبوية - ابن كثير - (عن موقع يعسوب).
- السيرة النبوية - ابن هشام - تح السَّقَا والأبياري والشبلي - مطبعة
مصطفى الباوي الحلبي وأولاده بمصر (١٩٣٦).

- شرح الرضي على الكافية - الرّضي الأستراباذي - (عن موقع يعسوب).
- شرح السنّة - البغوي - تح شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت - ط ٢ (١٩٨٣).
- شرح الكافية الشافية - ابن مالك - تح أحمد يوسف القادري - دار صادر بيروت ط ١ (٢٠٠٦).
- شرح صحيح البخاري - ابن بَطَّال - تح تميم ياسر بن إبراهيم - مكتبة الرشد - السعودية - الرياض ط ٢ (٢٠٠٣).
- شرح مسلم - النّووي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان (١٩٨٧).
- شُعب الإيمان - البيهقي - تح محمد السيد البسيوني - دار الكتب العلمية بيروت - ط ١ (١٤١٠هـ).
- صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بلبان - ابن حِبَّان - تح شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ (١٩٩٣).
- صحيح الجامع الصغير وزياداته - الألباني ناصر الدين - الناشر: المكتب الإسلامي، إعداد موقع روح الإسلام.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري - العيني بدر الدين - موقع مُلتقى أهل الحديث.
- الفاخر في شرح جمل الناصر - البعلي محمد بن أبي الفتح - تح د. ممدوح محمد خسارة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ط ١ (٢٠٠٢).
- الفتاوى الكبرى - ابن تيميّة - دار المعرفة - بيروت ط ١ (١٩٨٦).
- في أصول اللغة - مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- الكتاب - سيبويه - تح عبد السلام هارون - عالم الكتب - بيروت (د.ت).

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس - الجراحي العجلوني - دار إحياء التراث العربي (د.ت).
- المساعد على تسهيل الفوائد - ابن عقيل - تح د. محمد كامل بركات - مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة - ط ٢ (٢٠٠١).
- المسند المستخرج على صحيح مسلم - الهرازي الأصبهاني - تح محمد حسن الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت (١٩٩٦).
- النحو الوافي - عباس حسن - دار المعارف بمصر (د.ت).
- النشر في القراءات العشر ابن الجزري - تصحيح ومراجعة محمد علي الضبّاع (عن موقع مشكاة الإسلامية).
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع (عن موقع مكتبة مشكاة الإسلامية) - السيوطي.

* * *

العربية في جنوب الجزيرة العربية

حتى ظهور الإسلام

الحلقة الثانية

٣- كتابات الزبور

أ.د. رفعت هزيم*

يُعدُّ وادي الجوف الذي يبعد زهاء مئة كم إلى الشمال الشرقي من صنعاء واحداً من الأودية الكبرى التي ازدهرت فيها حضارة اليمن القديم زمناً طويلاً، إذ يحتضن مجموعةً من المدن الأثرية الهامة، ومنها: «نشق» (خربة البيضاء حالياً) و«نشن» (خربة السوداء) و«كمنهو» (كمننا) و«هرم» (خربة همدان) و«قرنو» عاصمة الدولة المعينية (خربة معين) و«يثل» (خربة براقش)^(١). وتقع «خربة السوداء» - وهي مصدر معظم كتابات الزبور - على بعد (١٥) كم إلى الغرب من «الحزم» مركز محافظة الجوف، وقد ورد ذكرها أول مرة في نقش النصر (RES 3945) - الذي يرجع إلى القرن السابع ق.م - ضمن المدن التي دمرها «كرب إل وتر» حاكم سبأ في إحدى حملاته، ثم ورد ذكرها غير مرة فيما بعد في عدد من نقوش المسند^(٢).

(*) رئيس قسم اللغات الشرقية بجامعة اليرموك (الأردن) سابقاً، ورئيس قسم اللغة العربية بجامعة تعز (اليمن) سابقاً.

(١) انظر هذه المواقع في الخريطة الموضحة في نهاية البحث.

(٢) انظر مثلاً النقوش: Ja 555, Ja 642, Ja 665.

- الاكتشاف:

ويبدو أنّ كثرة المواقع الأثرية في ذلك الوادي وعدم سيطرة الدولة على المنطقة في المدة التي تلت قيام الثورة اليمينية جعلاً المغامرين ينشطون في البحث هناك عن تحفٍ أثرية مدفونة ليبيعوها للراغبين في اقتنائها، فعثروا عام ١٩٧٠ م في أطلال معبد قديم في «السوداء» على حجرٍ مدفونٍ في التراب نُحِتَ على سطحه شكل ثعبانين ملتويين، فلمّا حفروا ليصلوا إلى القاع وجدوا بعض القطع الخشبية التي تحوّلت فور التقاطها إلى هشيم. ثم عثر الحفّارون على عودين خشبيين سليمان يشبهان سيجار التدخين؛ طول أحدهما (١٦) سم، وطول الآخر (١٢) سم، وقطر كلٍ منهما زهاء (٣) سم، وقد غُطّي كلاهما بكتابة بخطٍ أبجدي غير معروف حُفرت حروفه على الخشب بأداة خاصة. ويظهر أنّ أولى الأمر توقعوا - عندما رأوا ما رأوا - أنّ يكون ذلك علامةً على وجود كنزٍ دفينٍ في الموقع، مستندين في ذلك إلى اعتقادٍ شائعٍ يربط تلك الرموز والكتابات بالكنوز الدفينة المزعومة. ولا يرجع هذا الاعتقاد إلى عهد الجهل التي سبقت عصر النهضة الحديثة، بل هو قديم يتناقله الناس جيلاً بعد جيل، والدليل على ذلك أنّ الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري يروي في كتابه «الإكليل» أنّ أناساً دخلوا بيتاً قديماً مهجوراً «فإذا سرير عليه رجلٌ ميت، وإذا عليه ثياب مذهبة، وإذا هو على طنفسة ديباج مزينة بالذهب، وفي يده محجن من ذهب، وفي رأسه ياقوتة حمراء تساوي خراج الدنيا، وإذا لوح من ذهبٍ مكتوب فيه: بسم الله ربّ حمير، أنا حسّان بن عمرو القَيْل...»^(٣).

(٣) الهمداني، الإكليل ج ٨ بتحقيق نبيه أمين فارس، ص ١٢٦، وفيه روايات كثيرة مشابهة في «باب القبوريات».

ولم يجد مكتشفو العودين مَنْ يثقون به ليدهم على الكنز المسحور سوى أستاذ نقوش اليمن القديم محمود الغول، فدفعوا بهما إليه. وسرعان ما أدرك الرجل أنّ الكنز الحقيقي هو تلك الكتابة الغربية التي لم ير لها مثيلاً من قبل، ولم يلبث أن فاجأ المشاركين في ملتقى دراسات الجزيرة العربية السادس Seminar for Arabian Studies الذي عُقد في لندن في أيلول/ سبتمبر عام (١٩٧٢) بإطلاعهم على تفاصيل الاكتشاف الذي لم يخطر على بال أحدٍ منهم، وأبلغهم أنه يبذل قصارى جهده لفك رموز الخط والوصول إلى قراءة النصوص قراءةً صحيحة.

- قراءة الكتابات ودراساتها:

ثم روى (بيستون A.F.Beeston) للمشاركين في ندوةٍ عقدتها جامعة اليرموك الأردنية في كانون الأول/ ديسمبر عام (١٩٨٤) بمناسبة مرور عام على وفاة الغول خلاصة ما وجدته في ملفات الأستاذ الراحل، فقال إنّ الغول ظنّ أول الأمر أنّ تلك الكتابة هندية لأنها شبيهة بكتابة هندية منقوشة على سعف النخل، ولكنه سرعان ما أدرك أنها عربية جنوبية كتبت بما سمّاه «الخط المعيني اليدوي cursive Minaean»، ثم انتهى - قبيل وفاته - إلى أنها كتابة سبئية مدونة بخطّ جديد غير معروف. وأطلع (بيستون) المشاركين على المشكلات المختلفة التي يواجهها المتخصصون في هذا الشأن، ثم بيّن لهم أنّ النصين المكتوبين على العودين هما رسالتان تتألف كل منهما من (١٤) سطراً، وقدّم نقحرةً (transliteration) لهما وترجمةً لبعض الألفاظ والعبارات فيهما، واصفاً النقحرة والترجمة بأنهما غير مؤكّدين لأنّ تأكيدهما مرهون بتوفر مزيد من النصوص المماثلة^(٤).

(٤) انظر: (Beeston, A.F., Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul,)

وقد أُضيف في ذلك العام (١٩٨٤) إلى العودين المذكورين (٢٥) قطعة خشبية منقوشة عُثر عليها في الموقع نفسه؛ أي في خربة السوداء، وصل ١٨ قطعة منها إلى متحف قسم الآثار بجامعة صنعاء. ووصف يوسف عبد الله - في مقالةٍ نشرها عام (١٩٨٦) - هذه القطع التي يغلب عليها الشكل الأسطواني بأنها متفاوتة في أحجامها وأشكالها ونوع خشبها، وذكر أن بعضها أصابه تلفٌ سبب ضياع أجزاء من الكتابة، وضمّن مقالته قراءة وتحليلاً لنصّ منقوشٍ على عودٍ من جريد النخل طوله (١٦) سم وقطره (٢,٥) سم^(٥)، كما نشر (ريكمانز J. Ryckmans) في العام نفسه أول دراسة باليوغرافية لبعض تلك النقوش^(٦). أما أول بحثٍ شاملٍ لما توفر من نصوص هذا الضرب الجديد من الكتابات على عشب النخل - وعددها آنذاك أربعون يتفاوت طولها بين (٥) سم و(٢٣) سم؛ وعرضها بين (٢,٥) سم و(٢,٧) سم - فقد تعاون الباحثان المذكوران مع (والتر مولر Walter Müller) على إنجازها، فصدر في كتابٍ يتضمّن دراسة (١٦) نقشاً بالفرنسية والعربية عام (١٩٩٤)^(٧). ثم تتالى اكتشاف المزيد من القطع الخشبية المكتوبة حتى زاد عددها اليوم على سبعة آلاف، منها (٦٠٠٠) في المتحفين الوطني والحربي بصنعاء، و(٨٠٠) في مكتبة ولاية (بافاريا) في (ميونيخ)، و(٣٠٠) في معهد المشرق في (لايدن) الذي عهدَ بدراسة مجموعته ونشرها إلى (ريكمانز ودروز A.J. Drewes). وظلّ ذوو الاختصاص - عرباً

(٥) عبد الله، يوسف: خط المسند والنقوش اليمنية القديمة، في: النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي. تونس ١٩٨٨، ص ٩٣-١٠٥.

(٦) انظر: Ryckmans, pp.185-199.

(٧) عنوان القسم العربي من الكتاب هو: نقوش خشبية قديمة من اليمن، ومختصر عنوانه بالفرنسية: TYA.

ومستشرقين - ينشرون ما يصل إلى أيديهم من تلك الكتابات في أبحاث متفرقة حتى طلع علينا (P. Stein) عام (٢٠١٠) ببحثٍ فاق - في حجمه ومحتواه - كل ما سبقه، إذ تضمّن دراسةً مفصّلةً شاملةً لـ (٢٠٥) من كتابات المجموعة المحفوظة في المكتبة البافارية. وهكذا غدونا الآن قادرين على تقديم إجابات مقبولة عن شتى الأسئلة المتصلة بهذه الكتابات: فما صلّتها بنقوش المُسند؟ وما نوع الخط المستعمل لكتابتها؟ وبأيّ قلمٍ كُتبت؟ ومن كان يكتبها؟ وما مضمونها وموضوعاتها؟ وكيف يبدو معجمها؟ وما زمنها؟ وبأيّ لغةٍ أو لهجةٍ صيغت؟

- الزبور في كتب التراث^(٨):

لقد أسهم ورود الفعل zbr «زَبَرَ» بمعنى «كتب، وقّع» في نهاية عددٍ من هذه النقوش في إرشاد الباحثين إلى الرابط بينها وبين نقوش المسند المعروفة، ذلك أن «زَبَرَ» ومشتقاته يقترن ذكره غالباً باليمن أو بحمير في المصادر اللغوية والأدبية، فمن شواهد هذا البيت الذي رواه الهمداني منسوباً إلى عمرو بن تَبَع:

زَبَرْنَا فِي ظَفَارِ زُبُورٍ مَجْدٍ فَيَقْرُوهُ قُرُومُ الْقَرِيَّتَيْنِ^(٩)
وقول أبي ذؤيب الهذلي:

عرفتُ الديار كرقم الدواة يذبرها الكاتبُ الحميري^(١٠)
وقال الهمداني وهو يذكر نَسَابَ الشام والعراق: «وامتنعتُ عليهم أنسابُ

(٨) واضح أن المقصود هنا خط الكتابة عند اليمنيين وليس كتاب (الزبور) الذي هو أحد الكتب الساموية. [المجلة] (*).

(٩) الإكليل ٢٩ / ٨.

(١٠) البيت في: ابن دريد، جهرة اللغة: ٢٥٠ / ١، والرواية فيه بالذال وبالزاي. وانظر: AI-Selwi, p.91، ويلاحظ أن هذا الفعل ورد في كتابات الزبور. بالوجهين أيضاً، انظر:

ولد الهميسع إذ كانت مزبرةً في خزائن حمير»^(١١)، كما أشار في موضع آخر إلى «بعض زُبر همدان القديمة»^(١٢). وقد استنتج الباحثون من هذه الشواهد وغيرها أنه كان للخط العربي الجنوبي الذي عرفه اليمينيون قبل الميلاد ضربان: «أحدهما: المُسند؛ وهو خط تذكاري (Monumental) يُكتب به على الحجارة جلائل الأشياء ونذور المعابد؛ والآخر: الزبور؛ وهو خط سريع (cursive)، تحريره فيه خفة وتُكتب به المراسلات والمعاملات على عيدان الخشب وما شابه ذلك»^(١٣). ولا شك أن قول امرئ القيس:

لَمِنْ طَلَّلْ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِ الزَّبُورِ فِي الْعَسِيبِ الْيَمَانِي
وَقَوْلِ لَبِيدٍ فِي مَعْلَقَتِهِ:

وَجَلَا السَّيُولُ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مَتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا
وقول الشاعر الجاهلي عبد الله بن العجلان:

عَاوَدَ عَيْنِي نَصْبُهَا وَغُرُورُهَا أَهْمٌ عِنَاهَا أَمْ قَذَاهَا يَعْوَرُهَا؟
أَمْ الدَّارُ أَمَسَتْ قَدْ تَعَفَّتْ كَأَنَّهَا زُبُورٌ يَمَانٍ رَقِشْتَهُ سَطُورُهَا؟^(١٤)

ورواية الهمداني عن أحدهم قوله: «أصبتُ قبراً باليمن فيه حجرٌ منقوش؛

(١١) الإكليل للهمداني، ج ١٠ ص ٣٠ بتحقيق محب الدين الخطيب.

(١٢) الإكليل ج ٢ بتحقيق محمد بن علي الأكوح الحوالي، ص ٢٠، وانظر شواهد أخرى في: Al-

Selwi, p.103، و: W.W.Müller, in: TYA, pp.35-39، و: خط الزبور اليماني

والنقوش الخشبية ليوسف عبد الله، في: نقوش خشبية قديمة من اليمن، تأليف: جاك

ريكمنز ووالتر مولر ويوسف عبد الله، لوفان الجديدة ١٩٩٤، ص ٦-١٠.

(١٣) عبد الله: خط الزبور ١٩٩٤، ص ٧.

(١٤) بيت لبيد في: الزوزني، شرح المعلقات، ص ٢٠٧، وبيتا ابن عجلان في: الأصفهاني، الأغاني،

طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢٢، ص ٢٤٠.

فزبرت كتابه في جريدة من النخل»^(١٥) يُراد بها هذا الضرب الثاني، لأن معظم النقوش المكتشفة منه مكتوبة - كما ذكرنا - على عشب النخل. ولذا فإن المصطلحين العربيين الدقيقين في هذا الشأن هما: «نقوش المسند» لما كُتِب بالضرب الأول من الخط؛ و«كتابات الزبور» لما كُتِب بالضرب الثاني، فيكونان بذلك موافقين التقسيم الثنائي الذي ذكره المتقدمون، كقول أحدهم:

وأغنيتمو عن مُسند الحميِّ حميرٍ وما زبرت في الصحف أقيال حمير^(١٦)
وقول الآخر:

قد كتبنا مسانداً في ظفارٍ وكتبنا أيامنا في الزبور^(١٧)
وكذلك حديث الهمداني عن هذين الضربين بقوله: «زُبر حمير القديمة، ومساندها الدهرية»^(١٨).

- أدوات الكتابة:

وتختلف أدوات الكتابة المستعملة في كلٍّ منهما، فأما نقوش المسند فإنها تُحفر على الحجر أو المعدن بأداة معدنية حادة الطرف كالإزميل مثلاً؛ وأما كتابات الزبور فإنها تُنقش على عشب النخل - غالباً - أو على أعواد من خشب العرعر بقلم معدني مُذَبب الطرف أو بقلم خشبي يُثبَّت على طرفه قطعة معدنية

(١٥) الإكليل ١٤٧/٨.

(١٦) رواه السيوطي في: المزهري: ٢/٣٤٦-٣٤٧، وهو من أبيات لرجلٍ من «دومة الجندل».

(١٧) نسبه نشوان الحميري إلى «أسعد الكامل»، انظر: ملوك حمير وأقيال اليمن (القصيصة الحميرية وشرحها) لنشوان بن سعيد الحميري، بتحقيق علي المؤيد وإسماعيل الجرافي، ص ١٢٨.

(١٨) الإكليل للهمداني، ج ١ بتحقيق محمد بن علي الأكوخ، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٣. وينبغي هنا التنبيه إلى أوجه الاختلاف البيئية من حيث اللغة والمضمون والأسلوب بين نقوش الزبور والنصوص المكتوبة بـ«لسان حمير» أو «الحميرية» كما سنرى.

مُذَبَّبة فيشبه بذلك القلم الذي يُوصف في كتب التراث بأنه أنبوبٌ من القصب يُبرى أحد طرفيه ويُشَقُّ شقاً خفيفاً ليكون له سِنَانٌ يدخل الحبرَ بينهما، ويُكتبُ به - بعد أن يُغمس في الحبر - على الرِّق أو على عسيب النخل بعد أن يُدهنَ بالزيت أو بالشمع. غير أن قلم كتابات الزُّبور يُغمسُ طرفه المُذَبَّب بمادة لزجة أو شحمية ملوَّنة لتثبيت الحروف الغائرة في العسيب أو في الخشب. وقد عُثر على خمسةٍ من تلك الأقلام في منطقة الجوف؛ اثنان منها من العاج طولُ أحدهما (١٤,٥) سم؛ وطول الآخر (٧,٧) سم؛ وثالثٌ من البرونز طولُه (٨,٥) سم؛ ورابع من الحديد طولُه (١١,٢) سم؛ والخامس من الخشب طولُه (٧,٧) سم وفي طرفه قطعة معدنية مُذَبَّبة^(١٩). ومع أنه لم يرد اسمٌ لهذا القلم في نقوش المسند أو الزُّبور فإنَّ المرجح أنه كان يُسمَّى «المزْبَر» على وزن اسم الآلة «مِفْعَل»، ويشهد لذلك روايةٌ فحواها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه «دعا في مرضه بدواةٍ ومزْبَر؛ فكتبَ اسمَ الخليفة بعده، والمزْبَر: القلم»^(٢٠).

ويظهر أن كُتَّبة متخصصين هم الذين كانوا يزبرون النقوش بذلك المزْبَر، والأدلة على ذلك متعدّدة، منها أن وجود مجموعة من «التدريبات الكتابية» ضمن هذه النقوش يُشير إلى أسلوبٍ لتعليم الكتابة^(٢١)، ومنها أن النقوش المصوغة على شكل رسائل يُخاطَبُ فيها الآخرون تستعمل - في الأعم الأغلب - ضمير الغائب ولا تستعمل ضمير المتكلم إلا نادراً؛ فيقال مثلاً: «فلانٌ يُحييك»، مما يُشير إلى أن الكاتب يصوغ ما يُمليه عليه صاحب الرسالة، على أن وجود أخطاء كتابية

(١٩) انظر صورة للأقلام الخمسة وأخرى لأحد النقوش في نهاية البحث.

(٢٠) لسان العرب: زبر.

(٢١) انظر: Ryckmans 1994 a, in: TYA, p.14.

أحياناً يدلّ على أنّ بعض النقوش كتبها أناسٌ من غير المتخصصين^(٢٢).

- مضمون الكتابات:

وأما موضوعات ما نُشر من كتابات الزبور فإنها تختلف عن تلك المؤلفوة في نقوش المسند؛ ومردُّ ذلك إلى اختلاف هوية أصحاب هذه الكتابات، إذ يندر أن يجد المرء بينهم ملكاً أو مكرّباً أو قبيلاً أو ذا لقبٍ أو رتبة^(٢٣)، ولذا فإن هؤلاء الأشخاص - وهم من عامة الناس - يتحدثون في هذه النقوش عن شؤونهم التي تهمهم وعن معاملاتهم القانونيّة والتجاريّة أو الماليّة مع الآخرين؛ ويصوغون ذلك - غالباً - في رسائل شخصيّة أو في نصوصٍ بشكل صكوكٍ والتزامات وحسابات وسندات - مذيّلة غالباً بتوقيعهم - تبين ما لهم وما عليهم، وإليك عرضاً موجزاً لمضمون كلا النوعين^(٢٤):

أ- الرسائل: وهي من أخٍ إلى أخيه يطلب منه ضمان إطلاق ناقةٍ مرهونة لدى أحدهم (النقش ٥)، ومن شخصٍ يُرسل مولى له إلى آخر طالباً ضمان حمايته (النقش ٦)، ومن آخر يطلب من المرسل إليه أن يعود ببعض السلع كالسمسم والطحين والملح والعدس (النقش ٧)، ومن رجلٍ يطلب ممن يخاطبه مراجعة كشف حساب (النقش ٩)، ومن مالكٍ أرضٍ يُثبّت لمن اشترى قسماً منها حقوقه (النقش ١٤)، ومن جماعةٍ يطلبون ممن يرسلونه أن يقدم ذبائح

(٢٢) Stein 2010, Band 10, p.38.

(٢٣) ورد في نقوشٍ مصوغة بشكل رسائل ذكر «ملك سبأ» و«ملك هرم» و«ملك نشان»، انظر: Stein pp.486, 380, 2010، و: محمد المرقطن، النقوش الخشبية القديمة، في: حوليات يمنيّة، المعهد الفرنسي للآثار، صنعاء ٢٠٠٣، ص ٣٧.

(٢٤) النقوش المشار إليها هنا وفي الفقرات التالية هي من كتاب: نقوش خشبيّة قديمة من اليمن (TYA)، إلا إذا ورد خلاف ذلك.

للإله وأن يتبادل معهم سلعاً بالمقايضة (النقش ١٥).

ب - النصوص القانونية والاقتصادية: وتشمل واحداً بإيداع كمية من القمح لدى أحدهم لدرسها ثم إعادتها (النقش ١٠)، وآخر بتبادل حصّة مياه السقاية بين فريقين في أوقات مختلفة من السنة (النقش ١١)، وثالثاً بضمان نقديّ للمعبد في دينٍ مستحق (النقش ١٢)، ورابعاً بتحويل مبلغ من المال ثمناً لسلعة (النقش ١٣)، وخامساً بتسليم كراءٍ أجره جمل (عبد الله ١٩٨٨)، وسادساً بشروط مشاركة بين رجلٍ وامرأة لرعاية ثلاث شياهٍ مرضعات وما يناله كلّ منهما من صوفها وصغارها (عبد الله ١٩٩٤).

غير أن بعض النقوش لا يندرج ضمن النوعين المذكورين اللذين يهيمنان على معظم الكتابات المنشورة^(٢٥)، فقد أشرنا - فيما سبق - إلى نوعٍ ثالث هو «التدريبات الكتابية»، وثمة مجموعة من النقوش لا تحوي سوى قوائم بأسماء أشخاص أو قبائل وبطون^(٢٦)، وقد يكون المراد بها تحديد عدد الأشخاص الذين يُكَلَّفون بأعمال السخرة من فئات اجتماعية مختلفة^(٢٧)، أما النوع الخامس - وهو الكتابات الدينيّة - فما يزال عدده قليلاً^(٢٨).

(٢٥) عدد نقوش هذين النوعين في المجموعة المنشورة من مكتبة بافاريا هو ١٦٠؛ أي نحو ٨٠٪.
 (٢٦) ثلاثة منها (٢+٣+٤) في TYA، وأحدها (النقش ٤) يتضمن أعداد الأشخاص من كل قبيلة وبطن، أما عددها في المجموعة البافاريّة فهو ٩ نقوش، انظر: Stein, p.36.
 (٢٧) Ryckmans 1994 a, p.11، ويرى بعضهم أنّ هؤلاء الأشخاص «كانوا يقومون بمهمة معيّنة في الدولة أو المعبد أو الجيش أو أعمال السخرة»، النقوش الخشبية للمرقطن ص ٣٥.
 (٢٨) نقش واحد وفيه استعطافٌ للإله «المقه» (النقش ١٦) في مجموعة TYA، و ٧ نقوش في المجموعة البافارية Stein 2010, p.40.

- لغتها وأسلوبها:

وقد أثر مضمون النقوش في معجمها اللغوي، فيجد المرء هنا ألفاظاً لا تعرفها نقوش المسند، نحو: 'mfr (١ / ١١) و qdmt (٥ / ١١) وهما مقياسان لتوزيع المياه، و tby (١ / ٩) «إخبارٌ، إعلامٌ»، و lk (٤ / ١٤) «لكٌ، صمغٌ»، و 'lṭm (٥ / ٩) جمع «لطيمة» وهي العير تحمل الطيب وبز التجارة، و mb (٧ / ١٥) «سيدٌ، محترمٌ»، و dḥb «مكيال» و qrf «حقل زراعي» و rwd «زودٌ، وردٌ سلعة» (Stein, pp. 722, 729, 730). وقد تكون الألفاظ معروفة ولكن دلالاتها هنا مختلفة، كاستعمال qnt (١٠ / ١٠) و sl (٦ / ١٥) اسمين لمكيالين في حين أن الأول مقياس وزن والثاني وحدة نقد في السبئية؛ و škr «غرامة» و flg «حرث» (Stein, pp. 731, 723)، أو يجد ألفاظاً جديدة مشتقة من ألفاظ معروفة؛ كاشتقاق sb't (٧ / ٧) و m'sr (٥ / ٧) - وهما اسمان لمكيالين - من: sb't «العدد سبعة» و šrt «العدد عشرة»، واشتقاق المضارع ytsyn مع مصدره syt (١٢ / ١، ٦) «يضمن ضماناً» من wsy، و mḥmr (Stein, p. 725) «إذنٌ، تفويض» من ḥmr، و twtq (Stein, p. 734) «توثيق».

كما أثر المضمون في أسلوبها، فإذا كانت نقوش المسند تكاد تخلو من صيغ الخطاب لأنها مصوغة بضمير الغائب فإن بعض كتابات الزبور جاءت - كما رأينا - على شكل رسائل، ولذا فهي غنية بهذه الصيغ، ففيها ضمائر الخطاب المنفصلة: 't (٣ / ٥) و nt (٢ / ٦ و ٣ / ١٤) «أنت» و ntmw (٣ / ٨) «أنتم»؛ وفيها ضمائر الخطاب المتصلة، فمن شواهد اتصالها بالأسماء: ḥk (٢ / ٥) «أخوك» و bnk (٤ / ٩) «ابنك» و gyrk (٤ / ١٤) «غيرك» و grmk (٤ / ٨) «شخصك» و mb'lk (٧ / ١٥) «حضرتك» و bytkm (٣ / ٩) «بيتكم»؛ وبالحروف والظروف:

lk (١٤/٣، ١٥/٤) «لَكَ» وlyk (٢/١٣) «عَلَيْكَ» وlkmw (٣/٧ و ٢/٨) «لَكُمْ» وbrnkmw (٣/٧) «نَحُوكُمْ»؛ وبالأفعال: ykrbnk (٢/١٥) «يَبَارِكُكَ» وkrbnkmw (٢/٩) «بَارِكُكُمْ» وyhmdnkmw (٣/٩) «يُرْعَاكُمْ». أضف إلى ذلك أسلوب الخطاب بفعل الأمر نفسه؛ نحو: shln (٣/٥) «اضمن» وwdn (٦/٧) «عوّد؛ عُد»، في حين أنّ استعمال فعل الأمر في نقوش المسند ما يزال يحتاج إلى شواهد مؤكدة.

فإذا استثنينا هذه السّمات المميّزة لكتابات الزّبور فإنّ الظواهر الصرفية والنحوية لا تكاد تختلف عن تلك التي عرفناها في نقوش المسند، فلدينا هنا شواهد على أوزان الفعل (وتشمل: فَعَلَ وفَعَّلَ وفَاعَلَ وهفَعَلَ وتفَعَّلَ وافتَعَلَ واستفَعَلَ)، وعلى صيغة المصدر، وعلى المبني للمجهول، وعلى المضارع المنتهي بالنون؛ وعلى أسلوب الطلب بلام الأمر، وسواها.

- زمن كتابتها وخطها:

أما تحديد الحقبة الزمنية لهذه الكتابات فإنّه اعتمد في البداية على دراسة الخط المستعمل في كتابتها مع المقارنة بخط المسند، وهكذا تمكّن (ريكمانس J. Ryckmans) - بعد دراسة باليوغرافية لها استطاع الوصول إليه من مجموعة لايدن - من إرجاع أقدمها إلى القرن السابع ق.م^(٢٩). ثم استعان الباحثون بطريقة أخرى لهذا الغرض هي استعمال الكربون المشعّ (14 carbon) في تحليل بعض القطع الخشبية المكتوبة، حيث أجرى (M. Macdonald) وآخرون تحليلاً لست من قطع مجموعة لايدن ثم - بعد بضع سنوات - لثلاثين قطعة من المجموعة نفسها

فكانت النتيجة تأكيداً لما انتهى إليه ريكرمانز^(٣٠). ولكن التاريخ الدقيق وفقاً لتقويم زمني معروف لم يرد إلا في ستة نقوش من المجموعة البافارية ونقش واحد من مجموعة لايدن، وكلها مؤرخ بالتقويم الحميري^(٣١)، لأن الأسلوب الشائع في كتابات الزبور هو التاريخ وفقاً لتقويم الأشخاص (System of Eponyms) - المؤلف في نقوش المسند أيضاً - فيقال مثلاً: «في شهر كذا من سنة فلان من آل فلان/ أو من القبيلة الفلانية». وإذا كان هذا الضرب من التاريخ يُفيد في استكمال السلالات الحاكمة الواردة في نقوش المسند، فإنه لا يجعل تحديد زمن النقوش ممكناً إلا إذا كان زمن الأشخاص المذكورين فيها معروفاً من المصادر الأخرى، ولذا يلجأ المرء إلى الاستعانة بوسائل مساعدة، وأهمها ثلاث:

أ- المقارنة بتقويم الأشخاص في نقوش المسند للاستفادة من أسماء الأشخاص فيها إذا كان زمنهم معروفاً: فقد أُرخ أحد النقوش بعام «تبع كرب ابن معدي كرب» (عبد الله ١٩٨٨) الذي يرد اسمه في أحد نقوش المسند، ويُقدّر تاريخه هناك بنحو عام ١٧٢م، فيكون تاريخ نقش الزبور استناداً إلى ذلك هو الثلث الأخير من القرن الثاني للميلاد، إذا افترضنا أن الشخص المذكور في كلا النقشين هو نفسه^(٣٢).

ب- الدراسة اللغوية والنحوية للنقوش: فثمة ظواهر تختص بها مرحلة زمنية دون سواها، فمن ذلك مثلاً كتابة العدد (٣) بالشين: š أو بالشاء: š،

(٣٠) انظر: Stein 2010, p.45-46.

(٣١) أقدم نقوش المكتبة البافارية مؤرخ بعام ٤٨٠ وأحدثها بعام ٦٣٢ من التقويم الحميري، أما نقش مكتبة لايدن فهو مؤرخ بعام ٤٩٥ من التقويم نفسه، انظر: Ryckmans 2001, p.224.

(٣٢) انظر: خط المسند ليوسف عبد الله، ص ١٠٠-١٠١، وورد التأريخ نفسه في النقش ٣٢ من مجموعة المكتبة البافارية فأرجعه الناشر إلى نهاية القرن الثاني للميلاد، انظر: Stein, p.146.

فالصيغة الأولى ترد في المرحلة المبكرة؛ والثانية في المراحل التالية.

ج- الدراسة (الباليوغرافية)^(٣٣)(*) : لأن نوع الخط يساعد - كما ذكرنا - في تصنيف النقش ضمن مرحلة زمنية محدّدة، وتزداد أهمية الخط كلما اكتشف المزيد من كتابات الزبور؛ لأن ذلك يجعل نتيجة البحث في هذا المجال أقرب إلى الصحة. وقد اختار ريكرمان صاحب الدراسة من مجموعة لايدن - وهي غير منشورة - ومن المجموعة المنشورة عام ١٩٩٤ (TYA) وسواهما سبعين نقشاً فقط لأن صورها ونسخها هي الأكثر وضوحاً ليعقد مقارنةً بين عشرين من الحروف التي تتغيّر أشكالها في نصوصها المختلفة تغيراً واضحاً، فانهى - استناداً إلى المعيار (الباليوغرافي) وحده - إلى توزيعها على أربعة أدوارٍ تمثل تطوّر خط الزبور كما يلي:

١ - الدّور الأوّل أو دور المُسند: لأنّ الخط فيه قريبٌ جدّاً من خط المسند في مرحلته المبكرة، ولذا فإنّ الحروف هنا تفتقر إلى الانتظام، والوضع العمودي، والتناسق الدقيق، وثبات الشكل، على النحو الذي نجده فيما بعد في خط المسند الكلاسيكي. وهذا يعني أنّ خط الزبور نشأ متأثراً بخط المسند، ثم سلك كلّ منهما سبيله الخاص به ليتطور مستقلاً عن الآخر طوال ألف عام.

٢ - الدّور الثاني أو الدّور الانتقالي من الخط القريب من المسند إلى خط الزبور: ومع أنّ أشكال الحروف ظلّت في هذا الدور قريبة من نظائرها في خط المسند فإنّها تحوّلت تدريجياً في مراحلٍ أربعٍ متتالية إلى أشكالٍ مستقلة ستُميّز خط الزبور في الدّورين التاليين.

٣ - الدّور الثالث: ويُمثل بداية الظهور الواضح لخط الزبور، والصفة الغالبة على الحروف في هذا الدور هي أنها أصغر حجماً من نظائرها في الدورين

(٣٣) الباليوغرافية: دراسة الكتابات والنقوش القديمة [المجلة] (*).

السابقين، وذات زوايا تصل بين أجزائها.

٤ - الدّور الرابع: ويعود معظم النقوش السبعين موضع البحث إلى هذا الدّور، حيث تغدو فيه الحروف ثابتة واضحة المعالم^(٣٤).

وأهمّ ما يلاحظه المرء في هذا التقسيم الزمني القائم على المعيار (الباليوغرافي) هو أنّ الباحث لم يستطع تحديد الحقب الزمنية للأدوار والمراحل. ومردّد ذلك - عنده - إلى أمرين؛ أحدهما: عدم معرفتنا الممدد الزمنية لعهود الحكام الواردة أسماؤهم في النقوش أو لأولئك المذكورين في تقويم الأشخاص؛ والآخر: تطوّر خط الزبور تطوّرًا مستقلاً عن خط المسند^(٣٥).

- تصنيفها اللغوي:

فإذا انتقلنا إلى التصنيف اللغوي فإننا نجد أنّ معظم كتابات الزبور هي عند الباحثين سبئية، ويشمل ذلك النقوش الستة عشر المنشورة عام ١٩٩٤ (TYA)؛ ونقشّي محمود الغول؛ ونقشّي يوسف عبد الله (عبد الله ١٩٨٨ و Abdallah 1994)، ومعظم النقوش في المجموعة البافارية^(٣٦)، ونقوشاً أخرى متفرقة^(٣٧)، في حين جعلت البعثة السوفيتية ما اكتشف في ريون حضرمياً^(٣٨). أما النقوش غير المنشورة فقد اكتفى (ريكانز) بالقول إنّ ستة من نقوش مجموعة لايدن معينية؛

(٣٤) انظر التفصيل في: Ryckmans 2001.

(٣٥) Ibid, p. 226.

(٣٦) ذكر Stein أنّ جميع النقوش المنشورة منها - وعددها ٢٠٥ - سبئية اللغة.

(٣٧) انظر: PSAS 2002, p.217-223, Weninger, و: Stein, p.9.

(٣٨) بلغ عدد النقوش الحضرمية التي اكتشفتها البعثة الأثرية السوفيتية في «ريون» حتى عام ١٩٩١ زهاء ٢٢ نقشاً تعود إلى الفترة بين القرنين ٥ - ٣ ق.م، انظر: Frantsouzoff, in

Stein, p.24, و: Ryckmans 2001, p.231, PSAS, 1999, p.55-65.

ورجّح أن يضاف إليها نقشان آخران^(٣٩)، على حين وعد Stein ناشر مجموعة بافاريا بنشر الكثير من النقوش المعينية - دون أن يُحدّد عددها - في الجزء الثاني من دراسته، ولم يُشر إلى وجود نقوش قتبانية في هذه المجموعة أو في سواها البتة^(٤٠). ومن المسلمّ به أن المعيار اللغوي هو الأصل في التصنيف بشرط أن تكون السّمات اللغوية والنحوية في النقش واضحةً إلى الدرجة التي تسمح بتحديد لغته: أهى سبئية أم غير ذلك؟ وإلا لجأنا إلى معايير أخرى؛ منها:

أ- أسماء الآلهة: فورود اسم الإله «المقه» مثلاً في النقش يدلُّ على أنّه سبئيٌّ، لأنّه لا يرد إلا في النقوش السبئية.

ب- أسماء الحكام أو الأشخاص أو القبائل: إذا حدّدت مصادرُ أو نقوشُ أخرى هويّتهم وانتماءهم إلى سبأ أو إلى سواها.

ج- موقع اكتشاف النقش: فالغالب أن تكون لغة النقش هي لغة الدولة التي ينتمي إليها ذلك الموقع إلا إذا كان في النقش نفسه ما يشير إلى سواها، ولذا كانت النقوش المكتشفة في موقع ريبون الحضرمي - مثلاً - حضرمية.

- نصوصها:

ويُستحسن - قبل اختتام البحث - أن نقدّم نموذجين يمثلان النوعين الغالبين لهذه الكتابات في أسلوبها ومضمونها، أي: الرسائل والنصوص القانونيّة الاقتصادية، وأحدهما: هذه الرسالة الإخوانيّة (النقش ٥ من مجموعة TYA)، وهي في سبعة أسطر قصار، وهذا نصّها بطريقة النقحرة^(٤١) transliteration:

1) 'br drhm dš- 2) ḥbm 'mn 'hk 3) 'hl w't shln 4) l fr'n nq- 5) thw

(٣٩) انظر: Ryckmans.1994 b, in: Arabia Felix, p.252. و: Ryckmans, 2001, p.231.

(٤٠) Stein 2010, p.54.

(٤١) النقحرة هي نقل حروف لغة إلى لغة أخرى بأصواتها [المجلة] (*).

[dbrhn ḏh- 6) rn b'lhwh wzb- 7) r].

[إلى «ذرح» من عشيرة ذي صاحب من أخيك «عهل»، وأنت تكفل بالمال الواجب على «فرعن» في ناقته المرهونة لدى سيده «ضهرن». زَبَرَ (هذه الرسالة) فلان].

والآخر: هذا النص ذو المحتوى القانوني الاقتصادي (النقش ٥٧ من المجموعة البافارية):

1) 'Šr blṭm rḏym ḏyts- 2) yn hḥy'tt ḏḥḏrn lrtḏ- 3) 'l ḏqšbn bn mdly
b'ly- 4) hw lmr'hw mlkn bhṛf 5) 'bkrb bn ḥywm bn ḥzfr- 6) m ṭnyn wmyr
bdn wrqm 7) 'krm lḏḥḏrn hḥy'tt.

[عشر قطع من النقود الصحيحة يقدمها ضمناً «هحي عث» من عشيرة «حضرن» لـ «رثد إل» من عشيرة «قشبن» من المبلغ المدين به لسيده الملك، في السنة الثانية من تقويم «أب كرب» بن «حيوم» من «حزفرن»، فلبى بهذا المال رغبة رجل من عشيرة «حضرن». التوقيع «هحي عث»].

- الخاتمة:

ونستطيع أن نستنبط من هذا العرض الموجز لكتابات الزبور نتائج هامة: أولاًها: أن الخط المستعمل في كتابتها يشترك مع خط نقوش المسند في الأصل والمنشأ، ولكن أشكال الحروف فيها تباعدت قليلاً أو كثيراً لسبيين؛ أحدهما: اختلاف مواد الكتابة وأدواتها؛ والآخر: تطور كل منهما مستقلاً عن صاحبه طوال ألف عام.

والثانية: أن لغتها هي لغة نقوش المسند نفسها، فهي مكتوبة بالسبئية غالباً أو بإحدى اللهجات الأخرى المعروفة، والمعجم اللغوي هنا وهناك واحد، أما السمات اللغوية والنحوية المميزة لها فمردّها إلى مضمون النقوش وموضوعاتها.

والثالثة: أن مضمونها ليس جديداً كل الجدة، فقد وردت بعض الموضوعات بإيجاز في بعض نقوش المسند، غير أنها هنا أعم وأغنى وأكثر تفصيلاً. والرابعة: أن الأسلوب في كتابات الزبور جديد تماماً؛ فأسلوب الرسائل^(٤٢) وأسلوب الصكوك والمستندات القانونية والتجارية هما شكلان جديدان لم يكونا معروفين في نقوش اليمن القديم من قبل.

والخامسة: أن النصوص المكتوبة بـ«الحميرية» تختلف - كما سنرى - من حيث اللغة والأسلوب والمضمون عن كتابات الزبور، ولذا يُفَضَّل عدم استعمال مصطلح «زُبُر حمير» الذي وضعه القدامى لثلاث يقع الخلط بين هذين الضريين. وبالجملة فإن كتابات الزبور ونقوش المسند هما - من حيث الخط واللغة والمحتوى - فرعان لأصل واحد هو «العربية الجنوبية القديمة Old south Arabic»، ولا يمكن أن نعدّهما أصليين متباعدين أو لغتين مختلفتين إلا إذا قام الدليل على ذلك بعد نشر الآلاف السبعة من كتابات الزبور^(٤٣)، لأن بحثنا هذا يستند إلى المنشور منها وهو لا يتجاوز ٢٥٠ فحسب!

ولا بدّ في الختام من الإشارة إلى نقش المسند RES 3566 الذي ينصّ على أنّ ملك قتيان أمر بكتابه على الحجر وعلى الخشب أيضاً ومهّره بتوقيعه؛ مما جعل بعضهم يفترض أنّ كتابات الزبور كانت تحفظ في أرشيف رسمي^(٤٤)، ولعلّ كثرة هذه النقوش وتوزّعها على حقبة زمنيّة تتجاوز ألف عام يعزّزان هذا الافتراض.

(للبحث صلة)

(٤٢) انظر عرضاً لأسلوب الرسائل ومضمونها في: النقوش الخشبية للمرقطن، ص ٣٦-٣٩.

(٤٣) قيل: إنّ الكثير منها مزيف؛ انظر: النقوش الخشبية للمرقطن، ص ٣١-٣٢، و: Stein,

p.52.

(٤٤) انظر: Ryckmans 1994 a, p.7.



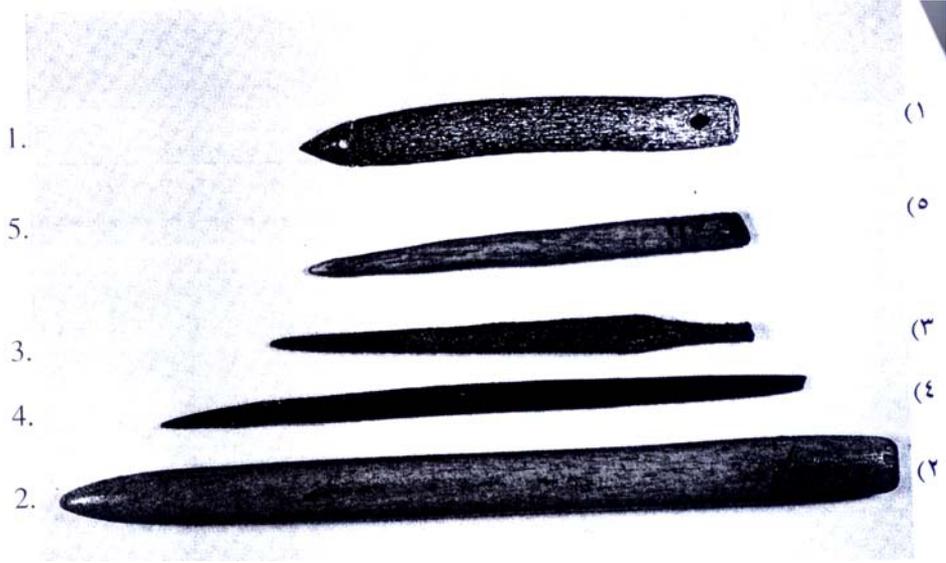
- | | |
|-----------------------|----------------------|
| (١) قرنو (خربة معين)، | (٢) هرم (همدان)، |
| (٣) كمنهو (كمننا)، | (٤) نشن (السوداء)، |
| (٥) نشق (البيضاء)، | (٦) يثل (براقش)، |
| (٧) كتل (سعود)، | (٨) عررتم (الأساحل)، |
| (٩) مأرب | |

وادي الجوف

(Ch.Robin: Inventaire des Inscriptions sudarabiques, Tome 1, 1992)

جدول الرموز المستعملة في النقحرة transliteration

ص	ṣ	أ	ʾ
ض	ḍ	ث	ṯ
ط	ṭ	ح	ḥ
ظ	ẓ	خ	ḫ
ع	ʿ	ذ	ḏ
غ	ġ	ش	š



أدوات الكتابة:

- ١ - مقبض خشبي برأس رصاصي مخروطي الشكل، في طرفه الثاني ثقب نافذ، طوله: (٧,٧) سم، قطره: (٠,٨) سم.
- ٢ - قلم من العاج مُذَبَّب أحد طرفيه، طوله (١٤,٥) سم.
- ٣ - قلم من البرونز مُذَبَّب أحد طرفيه، طوله (٨,٥) سم.
- ٤ - قلم من الحديد مُذَبَّب أحد طرفيه، طوله (١١,٢) سم.
- ٢ - قلم من العاج مُذَبَّب أحد طرفيه، طوله (٧,٧) سم.

المصدر: نقوش خشبية ص ٨٢

المصادر والمراجع

أولاً - بالعربية:

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: الجوهرة في اللغة، القاهرة ١٩٧٠.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت ١٩٦٦
- الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٤.
- الزّوزني، أبو عبد الله الحسين: شرح المعلقات السّبع، بتحقيق محمد علي حمد الله، دمشق ١٩٦٣
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: المزهرة في علوم اللغة، بتحقيق محمد جاد المولى ورفيقه، القاهرة ١٩٥٨
- عبد الله ١٩٨٨: يوسف عبد الله: خط المسند والنقوش اليمنية القديمة؛ دراسة لكتابة يمنية قديمة منقوشة على الخشب (في: النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٨).
- عبد الله ١٩٩٤: يوسف عبد الله: خط الزّبور اليمني والنقوش الخشبية (في: نقوش خشبية قديمة من اليمن، تأليف: جاك ريكمنز ووالتر مولر ويوسف عبد الله، لوفان الجديدة ١٩٩٤).
- المرقتن، محمد: النقوش الخشبية القديمة (في: حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار، صنعاء ٢٠٠٣).

- نشوان بن سعيد الحميري: ملوك حمير وأقيال اليمن (القصيدة الحميرية وشرحها)، بتحقيق علي المؤيد وإساعيل الجرافي، صنعاء ١٣٧٨ هـ.
- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب: الإكليل: ج ٢ بتحقيق محمد بن علي الأكوغ الحوالي، القاهرة ١٩٦٧، ج ٨ بتحقيق نبيه أمين فارس، بيروت، د.ت (مصحّرة عن طبعة ١٩٤٠)، ج ١٠ بتحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة ١٩٤٨

ثانياً- باللغات الأجنبية:

- Abdallah, Y: Ein altsüdarabischer Vertragstext von den neuentdeckten 1994 Inschriften auf Holz; in: *Arabia Felix*, pp. 1-12.
- Arabia Felix: Nebes, N. (Hrsg): Festschrift Walter Müller zum 60 Geburtstag, Wiesbaden 1994.
- Beeston, A.F: Mahmoud 'Ali Ghul and the Sabaean Cursive Script, in: *Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul*. Wiesbaden 1989. pp.15-19.
- Frantsouzoff, S: Hadramitic documents written on palm-leaf stalks, in: *PSAS* 1999, p.55-65.
- Müller, W.W: L'écriture zabur du Yémen pré-islamique dans la tradition arabe, in: *TYA*, p.35-39.
- PSAS: Proceedings of the Seminar for Arabian Studies
- Ryckmans, J.: Une écriture minuscule sud-arabe antique récemment, 1986 découverte in: Vanstiphout HLJ et al: *Scripta Signa Vocis: Studies Presented to J.H. Hospers*. Groningen 1986, p.185-199.
- Ryckmans, J.: A general report on the documents written on wood 1994a and on the contents of the present collection, in: *TYA*, p.7-15.
- Ryckmans, J.: Pétiotes de palmes et batonnets sud-arabes inscrits:

- 1994b notes de paléographie , in: *Arabia Felix* , p.250–259.
- Ryckmans, J.: Origin and evolution of South Arabian minuscule 2001 writing on wood, in: *Arabian archaeology and epigraphy* 12, 2001, p.223–235.
 - Al-Selwi, I.: Jemenitische Wörter in den Werken von al-Hamdani und Našwan und ihre Parallelen in den semitischen Sprachen. Berlin 1987.
 - TYA: Ryckmans J., Müller W.W. and Abdallah Y. Textes du Yémen antique inscrits sur bois. Louvain-la-Neuve 1994.
 - Stein, P.: Die altsüdarabischen Minuskelinschriften auf Holzstäbchen aus der Bayerischen Staatsbibliothek in München. Berlin 2010.
 - Weninger, S.: More Sabaic minuscule texts from Munich, in: *PSAS* 2002, p.217–223.

* * *

فوات الدواوين (تمة)

أ.د. عباس هاني الجراخ (*)

٦- ديوان إسحاق الموصلِيّ

أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميميّ الموصلِيّ، كان عالماً باللغة والموسيقا وندياً للخلفاء وشاعراً ومصنفاً، تُوِّفِي سنة ٢٣٥هـ.

صنع ديوانه ماجد أحمد العزّي، وصدر ببغداد ١٩٧٠م، بمساعدة المجمع العلمي العراقيّ، وضمّ ٤٤١ قطعة له و ١٣ قطعة من المنسوب له ولغيره.

وعثرتُ على قطع قليلة لم ترد في هذا الديوان:

[١]

كتب إسحاق الموصلِيّ إلى عريب المأمونيّة:

تَقِي اللهُ فِيمَنْ قَدْ تَبَلَّتْ فُؤَادَهُ وَغَيَّبَتْهُ حَتَّى كَأَنَّ بِهِ سِحْرًا
رَعَى النَّجْدَ لَا أَسْمَعُ بِيَوْمِكَ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ شَيْئًا لَيْسَ يُعْرِي لَكُمْ ظَهْرًا

التخريج: أخبار أبي القاسم الزجاجي: ١١٢ - ١١٣.

(*) باحث من العراق. وقد نُشر القسم الأول من هذا البحث في الجزء السابق من المجلة.

[٢]

يُضَافُ إِلَى الْقِطْعَةِ الْوَارِدَةِ فِي الصَّحِيفَةِ ١٤١ :
 (الوافر)
 فَجِئْتَ بِمُدِيَةٍ فَحَزَزْتُ حَبْلِي بِهَا، وَمَوَدَّتِي بِيَدَيْكَ حَزًّا
 وَلَمْ تَتْرُكْ إِلَى صُلْحٍ مَجَازًا وَلَا فِيهِ لِمَطْلَبٍ مَهَزًّا
 التخریج: المتخل: ٥٦٤ / ٢، الدر الفريد: ٣ / ٣٤٨، وفيها ورد البيتان
 من غير عزو، وهما ضمن قصيدة في ديوان الشاعر.

[٣]

قال من كلمة طويلة يمدح المتوكل على الله:
 (الكامل)
 يَا خَيْرَ مَنْ وَرَثَ الرَّسُولَ، وَمَنْ بِهِ بَسَقَتْ فُرُوعٌ خِلَافَةً وَمَغَارِسُ
 أَنْتَ ابْنُ آبَاءٍ سَمَتْ بِكَ مِنْهُمْ خُلَفَاءُ أَرْبَعَةً وَأَنْتَ الْخَامِسُ
 وَإِذَا دُعِيتَ إِلَى الْجِنَانِ مُحَلِّدًا مَعَ رُقَقَةِ الْفِرْدَوْسِ فإبْنُكَ سَادِسُ
 التخریج: قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي من كتاب الأوراق: ٥٠.

٧- ديوان البحري

أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، شاعر كبير، يقال لشعره
 «سلاسل الذهب»، تُؤفِّي سنة ٢٨٤هـ.
 نُشِرَ دِيَوَانُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَأَهْمُّهَا بِتَحْقِيقِ حَسَنِ كَامِلِ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ دَارِ
 الْمَعَارِفِ بِالْقَاهِرَةِ، ١٩٦٢م، بِأَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ، وَطُبِعَ ثَانِيَةً مَصَوِّرًا عَنْهَا سَنَةَ
 ١٩٧٢م. وَصَدَرَتْ بَعْدَهُ نَشْرَاتٌ غَيْرُ عِلْمِيَّةٍ.
 وَفِيهَا يَلِي نُثْبَتُ مُسْتَدْرَكًا مُهْمًّا عَلَى الدِّيَوَانِ:

[١]

قال البحرني: (الوافر)
 يلامُ العاشقونَ إذا أحبُّوا ويلحى كلُّ ذي كَلْفٍ سِوائي
 وذاكَ لأنني أحببتُ بدرأ يراهُ الناسُ كلَّهم برائي
 التخريج: المذاكرة في ألقاب الشعراء: ١٩٠.

[٢]

قال البحرني: (الكامل)
 راحتُ مُشَرِّقَةً، ورحتُ مُعَرِّباً وَمَتَى التَّقَاءَ مُشَرِّقٍ وَمُعَرِّبٍ
 التخريج: الدر الفريد ٣/٢٩٦.
 - من غير عزو في: المنتخل: ٢/٧٧٩، وفيه: «فمتى التقى».

[٣]

قال البحرني: (البيسط)
 رِيحَانَةٌ طَبَقَتْ فِي حُسْنِهَا، فَحَكَتْ مِنْ حُسْنِهَا مُقَلَّةً تَرْتُو إِلَى الرَّتَبِ
 بِالسَّاقِ مِنْهَا قَضِيبٌ مِنْ زُمُرْدَةٍ وَالْجَفْنُ مِنْ فِضَّةٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ ذَهَبٍ
 كَأَنَّ رَشْحَ النَّدى مِنْ فَوْقِ نَاطِرِهَا دَمْعٌ تَحَيَّرَ مِنْ أَجْفَانٍ مُتَّحِبٍ
 التخريج: حدائق الأنوار وبدائع الأشعار: ١٨٣.

[٤]

قال يستهدي مسكاً: (البيسط)
 الطَّيْبُ يَهْدِي وَيَسْتَهْدِي طَرَاتِقُهُ وَأَشْرَفُ النَّاسِ يَهْدِي أَشْرَفُ الطَّيْبِ
 وَالْمِسْكُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالشَّبَابِ، فَهَبْ شَبَهُ الشَّبَابِ لِبَعْضِ الْعُصْبَةِ الشَّيْبِ
 التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٢١٦.

[٥]

قال البحرى: (المنسرح)
يُغْنِي غِنَاءَ الْجِيُوشِ فِي طَلَبِ الْـ فَيءِ إِذَا مَا تَنَاصَرَتْ كُتُبُهُ
التخريج: مقدمة كتاب الدر الفريد: ٤٦٢.

[٦]

قال البحرى: (الكامل)
وَدَلِيلٌ عَامِ الْخِصْبِ عِنْدَ مُجْرَبٍ تَبْكِيْرُ أَوَّلِ زَهْرِهِ وَثَوَابِهِ
التخريج: المتخل: ٢٩٦/١.

[٧]

قال: (البيسط)
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ يَحْكِي خَجَلَةً ظَهَرَتْ فِي صَحْنٍ خَدٌّ مِنْ الْمَعشُوقِ مَنْعُوتِ
كَأَنَّهُ فَوْقَ سَاقٍ مِنْ زَبْرَجْدَةٍ نَشْرٌ مِنَ التَّبْرِ فِي مُحَمَّرٍ يَأْفُوتِ
التخريج: التذكرة الفخرية: ٢٤٧، التبيان: ٤١٩.

[٨]

قال: (البيسط)
مُبَاشِرٌ لِصِفَاتِ الْأَمْرِ لَا سَلِسٌ سَهْلٌ، وَلَا عَسِرٌ التَّنْفِيذِ مَعْقُودٌ
التخريج: المتخل: ٢٨٤/١.

[٩]

قال: (البيسط)
إِذَا اعْتَلَّتْ وَصَمْنَا الْعَيْشَ وَهُوَ نِدٍ طَلَّقَ الْجَوَانِبِ ضَافٍ ظِلُّهُ رَغْدٌ

لَوْ أَنَّ أَنْفَسَنَا اسْطَاعَتْ وَقَتَكَ بِهَا حَتَّى يَكُونَ بِهَا الشَّكْوَى الَّتِي تَجِدُ
التخريج: أحاسن المحاسن: ٣٨٢.

[١٠]

قال البحرى: (الخفيف)
لِيَفِرَّ وَفَرَّكَ الْمُوقَى، وَإِنْ أَعَى — وَزَ أَنْ يُجَمَعَ النَّدى وَوُفُودِهِ
التخريج: مقدمة كتاب الدر الفريد: ٤٦٥.

[١١]

قال البحرى: (الوافر)
وَمَا إِنْ زَالَ مُعْتَدِيًا عَلَيْهَا يُطَلَّقُهَا وَيَمْسِكُهَا ضِرَارًا
التخريج: ما يُكْتَبُ بِالضَّادِ وَالظَّاءِ وَالْمَعْنَى مُخْتَلَفٌ، مَجْلَةٌ مَعَهِدِ الْمَخْطُوطَاتِ
العربية، ج ١، ٢، ٤، ٢٠٠٤م: ٨٦.

[١٢]

قال البحرى: (البيسط)
بَادِرٌ بِعُرْفٍ^(١) إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرٌ
التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٩٦.

[١٣]

قال البحرى: (الطويل)
سَعِيدًا سَعِيدٍ قُرْتَا عَيْنٍ قُرَّةً هَلَالًا هَلَالٍ عَامِرًا بَيْتِ عَامِرٍ
التخريج: مقدمة كتاب الدر الفريد: ١١٨.

(١) في الأصل: «بمعروف»، والوزن لا يستقيم، والصواب ما أثبتناه.

[١٤]

قال البحرى:

(الطويل)

مَحَاسِنُ أَيَّامٍ تُحَوَّلُ وَتَرْجَعُ وَقَدْ هَبَّتِ الْأَنْوَاءُ نَوْرًا كَأَنَّهُ
وَلِلْمُزْنِ تَارَاتٌ تَعِيثُ وَيُقْلَعُ رِيَاضٌ إِذَا حَلَّ الرَّبِيعُ مَتُونَهَا
إِذَا فَتَقَتْهُ الشَّمْسُ بُرْدٌ مُضْلَعُ وَمَكُونَةٌ أَفْنَتْ قُرُونًا وَأَعْصُرًا
رَأَيْتَ فُرُوعَ النَّجْمِ بِالذَّرِّ تَدْمَعُ ظَفَرْنَا بِهَا فِي الدَّنِّ بِكَرًا، وَبَيْنَهَا
لَهَا بَرْنُسٌ عَارٍ وَرَأْسٌ مُقَنَّعُ فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ فِي الزُّجَاجِ حَسِبْتَهَا
وَبَيْنَ قِطَافِ الْكَرْمِ عَادٌ وَتُبَّعُ وَسَاقٍ لَهُ سَبْعٌ وَسَبْعٌ كَأَنَّهُ
سَنَا الْبَرْقِ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ يَلْمَعُ إِذَا صَبَّهَا فِي الْكَأْسِ، وَاللَّيْلِ دَامَسُ
هَلَالٌ لَهُ خَمْسٌ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُ يُنَاقِلُنَا مِنْهَا كُؤُوسًا، كَأَنَّهَا
تَبَيَّنَتْ أَنَّ الْكَأْسَ لِلشَّمْسِ مَطْلَعُ إِذَا كَرَّرُوهَا بِالْأَكْفِ رَأَيْتَهَا
نُجُومٌ عَلَى أَيْدِي الْمُدِيرِينَ وَقَعُ فَبَيْتِنَا وَبَايْتِنَا الْهَوَى فِي ثِيَابِهِ
عَلَيْهِنَّ أحيانًا تَعِيبُ وَتَطْلَعُ

التخريج: التذكرة السعدية: ٢٤٠ - ٢٤١.

[١٥]

قال البحرى:

(الطويل)

كَبَبْتُ وَمَالِي فِي نَهَارِي مُؤَنَسُ وَلَا سَكَنٌ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ هَجَعُ
أَبَيْتُ رَقِيبَ الصُّبْحِ حَتَّى كَأَنَّما أَرْجِي مَكَانَ الصُّبْحِ وَجَهَكَ يَطْلَعُ
أَصَاعِدُ أَنْفَاسِي وَأُحْدِرُ عَبْرَتِي بِحَيْثُ يَرَى ذَاكَ الْإِلَهَ وَيَسْمَعُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ أَنْتَ وَدِيعَتِي لَدَيْهِ وَمَا يَسْتَوِدِعُ اللَّهُ أَوْدَعُ

إِلَيْكَ شَكَاتِي لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّهَا مَكَانُ الشُّكَايَا مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ
التخريج: التذكرة السعدية: ٤٣٣ - ٤٣٤.

[١٦]

قال: (البيسط)
مفروضة في رقاب الناس طاعته عاصيه من ربقة الإسلام منخلع
التخريج: محاضرات الأدباء: ١ / ٣٢٧.

[١٧]

قال البحرى: (مجزوء الرمل)
مَنْ عَذِيرِي مِنْ وَزِيرٍ كُنْتُ مَوْصُولًا بِعَظْفِهِ
بَلَغَ الشَّمْسُ فَنَحَى ضَوْءَهَا عَنِّي بِكَفِّهِ
التخريج: المتخل: ٢ / ٨٨٤.

[١٨]

قال البحرى: (البيسط)
لِلنَّاسِ بَدْرَانِ لَا يَخْفَى طُلُوعُهَا بَدْرُ السَّمَاءِ، وَبَدْرُ الْأَرْضِ إِسْحَاقُ
أَغْرُ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِهِ وَلِلْمَنَايَا بِهِ فَتْحٌ وَإِغْلَاقُ
كَلْتَا يَدَيْكَ يَمِينٌ، لَا شِمَالَ لَهَا وَفِي يَمِينَيْكَ آجَالٌ وَأَرْزَاقُ
التخريج: التذكرة السعدية: ٣٤٢.

[١٩]

قال البحرى: (الوافر)
سَلَامٌ لِلَّهِ مِنْكَ عَلَى جَوَادٍ إِذَا جَارَى حَوَى قَصَبِ السَّبَاقِ
سَمَا لِلْمَجْدِ مَبِيضُ الْأَيْدِي فَسِيحِ الظِّلِّ مَمْدُودِ الرَّوَّاقِ

التخريج: التذكرة الفخرية: ٢٧٨.

[٢٠]

قال البحرى: (الخفيف)
بأبي أنت ما ألدَّ وأحلى ذكرك العذب في لسانى ورِيقى
التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ١٥٠.

[٢١]

قال البحرى: (الكامل)
هيهات فاز مُبرِّزاً وتخلَّفت عنه مقاريفُ الرجالِ فُلولا
التخريج: المتخل: ٢٢٩/١.

[٢٢]

قال البحرى: (الطويل)
فَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِنُعْمَاكَ مِنْهُمْ فَأَنْتَ لِمَا أَسَدَيْتَ مِنْ نِعَمِ أَهْلِ
التخريج: المتخل: ٢١٧/١.

[٢٣]

قال البحرى: (الخفيف)
لَمْ يَدْعُنِي وَفِي يَمِينِي فَضُلٌّ لِنَدَى غَيْرِهِ وَلَا فِي شَمَالِي
التخريج: المتخل: ٣٦٦/١.

[٢٤]

قال البحرى: (الطويل)
ظَعَنْتَ فَلَمْ أَصْبِحْ لِظَعْنِكَ نَادِمًا رَضَيْتُ بِأَنْ تَنَأَى وَتَرْجَعَ سَالِمًا
وما ذاك إلا لأعتناقك ظاعنًا وأخرى انتظاراً لأعتناقك قادمًا

رَضِيْتُ بِتَسْلِيمٍ وَغَيْبَةِ أَشْهُرٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لِي فِي مَقَامِكَ رَاحِمًا
التخريج: رحلة العبدري: ٢٦٦.

[٢٥]

قال البحرني: (الطويل)
خُلُوفُ زَمَانِ السُّوءِ لَمْ يَرِثُوا الْعُلَا وَ لَمْ يَنْزِلُوا لِلْمَكْرَمَاتِ عَلَى حُكْمِ
وَقَدْ رَفَعَتْ عَنْ بَحْرِهِمْ آيَةَ النَّدَى كَمَا رُفِعَتْ مَنْسِيَّةً آيَةُ الرَّجْمِ
تَابَّاهُمْ نَفْسِي وَتَقَبَّحُ فِيهِمْ ظُنُونِي، وَيَعْلُو عَنْ مَقَادِيرِهِمْ هَمِّي
التخريج: التذكرة السعدية: ٤٢٢.

[٢٦]

قال البحرني: (الوافر)
أَحْضُرُ بَابَ إِبْرَاهِيمَ جَهْلًا بِمَا فِيهِ وَأَرْشُو الْحَاجِبِينَ؟
فَأَخْرُجُ إِنْ خَرَجْتُ بِغَيْرِ شَيْءٍ وَأَدْخُلُ إِنْ دَخَلْتُ بِدِرْهَمَيْنِ
التخريج: الأنس والعرس: ٢٩٥.

[٢٧]

قال البحرني: (الطويل)
إِذَا نَلْتِ فِي أَرْضٍ مَعَاشًا، وَإِنْ نَأْتِ فَلَا تُكْثِرَنَّ فِيهَا نِزَاعًا إِلَى الْوَطَنِ
فَمَا هِيَ إِلَّا بَلَدَةٌ مِثْلَ بَلَدَةٍ وَخَيْرُهُمَا مَا كَانَ عَوْنًا عَلَى الزَّمَنِ
التخريج: المنازل والديار: ٢٣٧.

[٢٨]

قال البحرني: (الكامل)
أُمَّا الرِّيَاضُ فَقَدْ بَدَتْ أَلْوَانُهَا صَاغَتْ حُلِيَّ فَنَوْنَهَا أَفْنَانُهَا

دَقَّتْ معانيها ورقَّ نسيْمُها وَبَدَّتْ محاسنُها وطابَ زمانُها
التخريج: التذكرة الفخرية: ٢٤٠.

[٢٩]

قال البحرى: (الكامل)
وَلَرُبَّما صانَ البليغُ لسانَهُ حَذَرَ الجوابِ، وإنَّهُ^(٢) لَمُقَوِّهٌ
وَلَرُبَّما ابتَسَمَ اللبيبُ عَنِ الأذى وفُوادُهُ عَنِ حَرِّهِ يَتَأَوُّهُ
التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٢٩١.

[٣٠]

قال البحرى: (الخفيف)
لا تَزِرُ مَنْ تُحِبُّ في كُلِّ شَهْرٍ عَيرَ يَوْمٍ، ولا تُزِدُنْ عَلَيهِ
فاجْتِلاءُ الهلالِ في الشَّهْرِ يَوْمٌ ثُمَّ لا تَنْظُرُ العُيُونُ إِلَيهِ
التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٢٢١.

المنسوب

[١]

قال البحرى: (الخفيف)
كُلُّ يَوْمٍ بِأَقْحوانٍ جَدِيدٍ تَضْحَكُ الأَرْضُ مِنْ بُكاءِ السَّماهِ
وَسَطَها جُمَّةٌ مِنَ الشَّدْرِ حَفَّتْ بِثُعُورٍ مِنْ فِصَّةِ بَيضاءِ
طَلَّها القَطْرُ، فَهِيَ تَنْضاعُ نَشراً عَنبرياً تُثِيرُهُ في الفَضاءِ
التخريج: حقائق الأنوار وبدائع الأشعار: ٢٧١.

- الأول والثاني للحسين بن مطير الأسدي، شعره: ٣١.

(٢) في الأصل: «إنه»، من دون حرف الواو، والصَّواب ما أثبتناه.

[٢]

قال: (الوافر)
 أَعَاذِلْ إِنَّ شُرْبَ الرَّاحِ رَشْدٌ لِأَنَّ الرَّاحَ تَأْمُرُ بِالسَّاحِ
 تَقِينَا شُحَّ أَنْفُسِنَا وَذَاكُم إِذَا ذَكَرَ الْفَلَاحَ مِنْ الْفَلَاحِ
 التخريج: أحاسن المحاسن: ٥٩.

- والبيتان لابن الرومي في ديوانه: ٥١٢ / ٢.

[٣]

قال: (الطويل)
 لِيَهْنِكَ إِذْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ وَبَانِي الْعَالِي وَالْمَكَارِمِ وَالْمَجْدِ
 فَلَا تَحْسَبِ الْحُسَادُ عَزْلَكَ مَغْنَمًا فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ مَا غَايَةُ الْوَرْدِ
 وَمَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ جُرْدَ لِلْوَعَى فَأُحْمَدَ فِيهَا، ثُمَّ رُدَّ إِلَى الْعَمْدِ
 التخريج: تحسين القبيح وتقييح الحسن: ٦١.

لأبي تمام في: ديوان المعاني: ٢ / ٢٣١، وأخلَّ به ديوانه أيضاً.

[٤]

قال البحري: (الكامل)
 إِنَّ الْوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ مُحَمَّدٍ أَوْدَى، فَمَنْ يَشْنَاكَ كَانَ وَزِيرَا
 التخريج: الدر الفريد: ٢ / ٣٤٩.

- لسليمان بن مهاجر في التمثيل والمحاضرة: ١٤٤.

[٥]

قال البحري: (البيسط)
 وَلَيْسَ لِلْهَمِّ إِلَّا كُلُّ صَافِيَةٍ كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ فِي عَيْنِ مَهْجُورِ

التخريج: التذكرة الفخرية: ٢١٤.

- البيت لأبي نواس في من غاب عنه المطرب: ١٦٧، التشبيهات:
١٧٥، وليس في ديوانه.

[٦]

قال البحرى: (الطويل)
خَلَيْلِيَّ إِن كَانَ الزَّمَانُ مُسَاعِدِي وَأَذَيْتُمَانِي لَمْ يَضِقْ مِنْكُمَا صَدْرِي
وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الزَّمَانُ مُعَانِدِي فَإِيَّاكُمَا أَنْ تُؤْذِيَانِي مَعَ الدَّهْرِ
التخريج: تاريخ دمشق: ١٩٧/٦٣.

- لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر في بهجة المجالس: ١/٧٢٩.

[٧]

قال البحرى: (الطويل)
أرقتُ وأصحابي هجودٌ برَبْوَةٍ لِبَرْقِ تَلَالِافِي تِهَامَةٍ لَامِعِ
فَأَبْدَى هُمُومًا مِنْ هُمُومِ أَجْنُهَا وَأَكْبَرُ مِنْهَا^(٣) مَا تُجِنُّ أَضَالِعِي
التخريج: سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: ٢٥٣.

- للناطقة الذبياني، في الزهرة: ١/٣١٥، وأحلَّ بهما ديوانه،
والقافية فيه بالرفع.

[٨]

قال البحرى: (الوافر)
صُدُورٌ فَوقَهُنَّ حَقَاقٌ عَاجٍ وَدُرٌّ زَانَهُ حُسْنٌ أَتَّسَاقِ
يَقُولُ النَّاطِرُونَ إِذَا رَأَوْهُ أَهَذَا الحَلِيَّ مِنْ هَذَا الحَقَاقِ؟

(٣) الزهرة: «أجلها... وأكثر منها».

التخريج: فض الختام: ١٥٢.

- لابن الرومي، في ديوانه: ٤ / ١٦٥٢.

[٩]

قال البحرني: (المنسرح)

عَمَائِمٌ هُنَّ فَوْقَ أَرْؤُسِنَا غَمَائِمٌ لَمْ يَزَلْنَ بِالْخِرْقِ

التخريج: أجناس التجنيس: ٤٨.

- للصاحب بن عباد؛ ديوانه: ٢٥٥، ولم يُشر مُحقق (أجناس

التجنيس) إلى هذه النسبة الجديدة.

[١٠]

قال البحرني: (الطويل)

أَجَلَّكَ قَوْمٌ حِينَ صِرْتَ إِلَى الْغِنَى وَكُلُّ غَنِيٍّ فِي الْعُيُونِ جَلِيلٌ
إِذَا مَالَتِ الدُّنْيَا إِلَى الْمَرْءِ رَغْبَةً إِلَيْهِ، وَمَالَ النَّاسُ حَيْثُ يَمِيلُ

التخريج: المناقب والمثالب: ٣١٠ - ٣١١.

- لأبي العتاهية في أشعاره وأخباره: ٣١٨.

[١١]

قال البحرني: (الطويل)

بَدَأَتْ بِمَعْرُوفٍ وَثَنَيْتَ بِالرِّضَا وَتَلَّثَّتْ بِالْحُسْنَى وَرَبَّعَتْ بِالْكَرَمِ
وَبَاشَرْتَ أَمْرِي وَاعْتَنَيْتَ بِحَاجَتِي وَأَخْرَتَ (لَا) عَنِّي، وَقَدَّمْتَ لِي (نَعَمَ)
وَصَدَّقْتَ لِي ظَنِّي، وَأَنْجَزْتَ مَوْعِدِي وَطَبْتَ بِهِ نَفْسًا، وَلَمْ تُتْبِعِ النَّدَمَ
وَأَوْلَيْتَنِي خَيْرًا، وَأَنْلَتَنِي^(٤)(*) يَدًا

(٤) كذا وردت في الأصل. (*)

فَإِنْ نَحْنُ كَافَأْنَا فَاهْلٌ لِّشُكْرِنَا وَإِنْ نَحْنُ قَصَّرْنَا فَمَا الْوَدُّ مُتَّهَمٌ

التخريج: المتخل: ١ / ٣٧١، نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٩٧.

- لدعلب الخزاعي، شعره: ٢٤٧: (الآيات ١، ٢، ٥) في القسم

الثابت له!

٧- شعر الوزير المهلبى

الحسن بن محمد بن هارون، ولي الوزارة للمطيع العباسي، والسلطان معز الدولة بن بويه، ولقب بذي الوزارتين، توفي سنة ٣٥٢هـ.

جمع شعره جابر الخاقاني في مجلة (المورد)، العدد الثاني، (١٩٧٣م).

ونذكر - هنا - قطعاً للشاعر في ستة وعشرين بيتاً أخل بها شعره المجموع:

[١]

قال المهلبى الوزير: (الخفيف)

يا حَبِيبِي وَيَا طَبِيبِي وَيَا طَيْبِ
يا ضِيَاءَ الشَّرْقِيِّ، يَا نُورَ بَابِ الطِّ
بي، وَيَا مُنِيَّةَ الغَرِيبِ الكَيِّبِ
اق، والصَّفِّ، يَا هِلَالَ السَّيْبِ^(٥)
لَمْ تُعَدِنِي مِنْ عِلَّةٍ بِي وَتَعَتَّ
دُ سَقَامِي مِنْ الهَوَى فِي ذُنُوبِي
وَابَقَ وَاسْلَمَ حَتَّى تُوقَى بِجِسْمِي
مِنْ صُرُوفِ الرَّدَى، وَيَبْقَى الَّذِي بِي
التخريج: الأنس والعرس: ٤٤٦.

[٢]

قال المهلبى الوزير: (الطويل)

أَلَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا تَكُ آيِسًا
مِنْ الدَّهْرِ أَنْ يَصْفُو عَلَيْكَ مَشَارِبُهُ

(٥) في البيت ثلاثة مواضع في بغداد، وهي: الباب الشرقي والصَّفِّ وهلال السَّيْبِ.

فَإِنْ لَكَ حَتْمِيًّا^(٦) (*) مِنَ الشَّرِّ وَاجِبًا وَحَتْمًا مِنَ الْخَيْرِ الْهَنِيِّ عَوَاقِبُهُ
 فَإِنْ تَلَقَّ مِنْ حَتْمِيهِ مَا كُنْتَ تَتَّقِي فَأَوْلَى بِكَ الْحَتْمُ الَّذِي أَنْتَ طَالِبُهُ
 سَتَكْسِبُ مَا تَرْجُو، وَلَوْ كُنْتَ كَارِهًا كَكَسْبِكَ مَا تَخْشَى، وَأَنْتَ مُجَانِبُهُ
 التخریج: أحاسن المحاسن: ١٥٨.

[٣]

قال الوزير المهلبي: (المتقارب)
 أَقَاتِلْتِي بِانكِسَارِ الْجُفُونِ وَمُسْتَوْفِرِينَ عَلَى مَعْصِرِ
 كَحَقَّيْنِ فِي لَبِّ كَافُورَةٍ بِرَأْسَيْهِمَا نُقْطَتَا عَنَبِرِ
 التخریج: أحاسن المحاسن: ٢٤٥ - ٢٤٦.

[٤]

قال المهلبي الوزير، ويروى لغيره:
 أَيْقِظْ غَرِيمَكَ وَاصْطَبِرْ يَا قَلْبُ لِلْخَطْبِ الْمَلَمِّ
 خَاطِبُ أَلَمٍّ، فَمَا أَعَا نَ أَخٌ عَلَيْهِ وَابْنُ عَمِّ
 أَتْرَاكَ تَحْسَبُ أَنَّي يَا دَهْرُ مِنْ حَجَرٍ أَصَمِّ
 وَعَصَيْتِي تُفَاحَةٌ^(٧) (*) كَانَتْ لِتَقْيِيلٍ وَشَمِّ
 فَوْحَقٌّ مَنْ عَقَدَ النَّبِيَّ وَوَلَاءَهُ بِغَدِيرِ حُمِّ
 لَا زِلْتُ بَعْدَ فِرَاقِهَا مُسْتَحْسِنًا لَكَ كُلَّ ذَمِّ
 التخریج: أحاسن المحاسن: ٤٢٦، ووردت القوافي فيه ساكنة.

(٦) كذا وردت في الأصل. (*)

(٧) كذا وردت. (*)

[٥]

قال الوزير المهلبي: (الخفيف)
 نَفْسٌ صَبْرًا عَلَى الْأَذَى، إِنَّ هَذَا خُلِقَ مِنْ خَلَائِقِ الْأَيَّامِ
 التخریح: الدر الفريد: ١٨٠ / ٥.

[٦]

قال المهلبي الوزير: (الخفيف)
 أَيُّ شَيْءٍ جَنَيْتُهُ فَجَنَيْتَنِي لِي ثَمَرَ الشُّوكِ فِي رِيَاضِ الْجِنَانِ؟
 لَمْ تَنَاسَيْتَ وَاثِقَابِكَ خِلَافًا لَكَ عَبْدًا فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ
 بَعْدَ وُدِّ الزَّمَانِ مِنْ رَائِقِ الْحَمْرِ، وَشَدْوِ الْحِسَانِ بِالْإِحْسَانِ
 أَعْطَيْتَنِي ذَاكَ التَّفْضِيلَ^(٨)، أَوْ إِذْ نَكَتَ لِي فِي الشُّخُوصِ عَن بَعْدَانِ
 التخریح: الأنس والعرس: ١١٩.

[٧]

قال المهلبي الوزير: (مجزوء الكامل)
 الدَّهْرُ خَوَّانٌ وَلَكِنْ كَمْ سَاعِدٍ لَمْ يَخُنْهُ
 وَسَبِيٌّ حُرٌّ قَدْ تَحَرَّرَ زَبَالَتِ صَوْنٌ لَمْ يَصُنْهُ
 فَاحْذَرْ مِرَارًا أَنْ يُخْوَنَ، وَمَرَّةً لَكَ فَاتَمِنْهُ
 وَاسْتَبِرْ حَظَّكَ فِي الْمَطَا لِبِ... وَامْتَحِنْهُ
 وَابْسِطْ رَجَاءَكَ قَبْضَةً وَثِقِنْ بِرَبِّكَ وَاسْتَعِنْهُ

التخریح: أحاسن المحاسن: ١٥٨، ومكان النقاط في البيت الرابع ساقط

من الأصل. ■

(٨) في الأصل: «أعطاني ذاك التفضيل»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

المصادر والمراجع

- أبو العبر الهاشمي نقيب الحمقى في البلاط العباسي؛ حياته وشعره، عادل العامل، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.
- أبو العتاهية.. أشعاره وأخباره، عُنِيَّ بتحقيقها د. شكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م.
- أجناس التجنيس، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق د. محمود عبد الله الجادر، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- أحاسن المحاسن، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق ياسر أحمد الفهداوي، أطروحة دكتوراه، جامعة الأنبار، ٢٠٠١م.
- أخبار أبي القاسم الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق د. عبد الحسين المبارك، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي، دراسة وتحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- أنس المسجون وراحة المحزون، عيسى بن البحري الحلبي (ت بعد ٦٢٥هـ)، تحقيق محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- الأنس والعرس، أبو سعد منصور بن الحسين الأبى (ت ٤٢١هـ)، إعداد وتحقيق إيفلين فريد يارد، دار النمير، دمشق، ١٩٩٩م.
- أوهام المحققين، د. محمد حسين الأعرجي، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٤م.
- البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط ٤، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- بهجة المجالس وأنس المجالس، يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (ت

- ٤٦٣هـ)، تحقيق د. محمد مرسي الخولي، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، الكويت.
- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن ابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق وتعليق وتخرير أبو عبد الله علي بن عاشور الجنوبي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م.
- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصعب المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣ م.
- تحسين القبيح وتقبيح الحسن، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق شاكر العاشور، دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٦ م.
- التذكرة السعدية في الأشعار العربية، العبيدي (ت ق ٨هـ)، تحقيق د. عبد الله الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.
- التذكرة الفخرية، بهاء الدين المنشي الأربلي (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق د. نوري القيسي و د. حاتم الضامن، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧ م.
- التشبيهات، ابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ)، عني بتحقيقه محمد عبد المعين خان، جامعة كمبردج، ١٩٥٠ م.
- التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م.
- حدائق الأنوار وبدائع الأشعار، جُنيد بن محمود بن محمد (ت بعد ٧٩٠هـ)، تحقيق هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥ م.

- حماسة الخالدين، محمد بن هاشم (ت ٣٨٠هـ)، وسعيد بن هاشم الخالدي (ت ٣٧١هـ)، تحقيق د. محمد علي دقة، ١٩٩٥ م.
- الحماسة الشجرية، هبة الله بن عليّ ابن الشجريّ (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصيّ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠ م.
- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، أبو محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق د. محمد جبار المعبيد، بغداد، ١٩٧٨ م.
- الحماسة المغربية، أحمد بن عبد السلام الجراوي التادليّ (ت ٦٠٩هـ)، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩١ م.
- حلية المحاضرة، الحاتمي (ت ٣٨٨هـ)، تحقيق د. جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٧٩ م.
- الدرّ الفريد وبيتّ القصيد، محمد بن أيّدمر (ت ٧١٠هـ)، أشرف على تصويره فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، ١٩٨٨ م.
- ديوان بشار بن بُرد، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٦ م.
- ديوان ابن دُرَيْد، تحقيق محمد بدر الدين العلويّ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦ م.
- ديوان تميم بن أبي بن مُقبل، تحقيق د. عزة حسن، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٢ م.
- ديوان سويد بن أبي كاهل (ت نحو ٦٠هـ)، جمعه وحققه شاعر العاشور، دار تموز، دمشق، ٢٠١٢ م.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار القلم، بيروت، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م.
- ديوان عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، عُني بجمعه وتحقيقه ودراسته د. عباس هاني الجراخ، دار صادر، بيروت، ٢٠١٤ م.

- ديوان الكميّ بن زيد الأسدي، تحقيق د. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكريّ (ت نحو ٣٩٥هـ)، مكتبة القدسيّ، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ديوان أبي نواس، حَقَّقَهُ وَضَبَطَهُ وَشَرَحَهُ أَحْمَدُ عَبْدِ الْمَجِيدِ الْغَزَالِي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله محمود بن عمر الزرخشري (ت ٥٣٨هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٢هـ.
- رحلة العبدريّ، محمد بن محمد بن عليّ بن أحمد العبدري (ت بعد ٧٠٠هـ)، حققها وقدم لها د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- الزّهرة، أبو بكر محمد بن داود الأصفهانيّ (ت ٢٩٧هـ)، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ود. نوري حمودي القيسي، الزرقاء، الأردن، ١٩٨٥م.
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمنيّ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م.
- شعراً الأخطل، صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.
- شعراً الحسين بن مطير الأسديّ، جمعه وحققه د. محسن غياض، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.
- شعراً دعبل بن عليّ الخزاعي، صنعة د. عبد الكريم الأشر، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- شعراً مقلّون، صنعة د. حاتم صالح الضامن، مطبعة دار الحكمة، جامعة الموصل، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- صالح بن عبد القدّوس البصري، تأليف وجمع وتحقيق عبد الله الخطيب، دار

- البصري، بغداد، ١٩٦٧ م.
- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣ م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي (ت ٧٤٥هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت ١٩٧٢ م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠ م.
- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م.
- الفصوص، صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي (ت ٤٦٢هـ)، تحقيق د. عبد الوهاب التازي سعود، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- فصول التماثيل في تبشير السرور، عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق د. جورج قناز و د. فهد أبو خضرة، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م.
- في نقد التحقيق، عباس هاني الجراخ، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢ م، ط ٢، دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٦ م.
- قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي؛ أو تاريخ الدولة العباسية من كتاب الأوراق، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ)، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠ م.
- قُطب السُرور في أوصاف الأنبذة والخُمور، إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني (ت بعد ٤١٧هـ)، تحقيق وتقديم د. سارة البربوشي بن يحيى، منشورات الجمل، ألمانيا، ٢٠١٠ م.
- القوافي، الأخصس الأوسط، تحقيق أحمد راتب النَّفَّاح، دار القلم، بيروت،

- ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- الكامل في اللغة والأدب، مُحَمَّد بن يزيد المبرِّد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق د. مُحَمَّد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، خليل بن أيك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، حققه وعلق عليه د. هلال ناجي ووليد بن أحمد بن الحسين الزبيري، ليدز، بريطانيا، ١٩٩٩م.
- كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، أحمد بن محمد الجرجاني (ت ٤٨٢هـ)، تحقيق د. محمود شاكر القطان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ما يُكتب بالضاد والطاء والمعنى مختلف، يحيى بن عمر بن فهد المكي (ت ٨٨٥هـ)، تحقيق د. رباح اليميني مفتاح، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج ١ - ٢، ٢٠٠٤م.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق د. رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- المحبُّ والمحبوب والمشموم والمشروب، السري الرفاء (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق ماجد الذهبي ومصباح غلاونجي، دمشق ١٩٨٢ - ١٩٨٦م.
- المذاكرة في ألقاب الشعراء، أسعد بن إبراهيم النشائي (ت ٦٥٧هـ)، تحقيق شاكر العاشور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩م، دمشق، ٢٠٠٦م.
- المذكر والمؤنث، السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دمشق، ١٩٩٧م.
- المستدرك على صنَّاع الدَّواوين، د. نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨م.
- المستطرف في كُلِّ فنٍّ مُستظرف، محمد بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- مع الشعراء مختارات ومطالعات، حمد الجاسر، النادي الأدبي في بريدة، ١٩٨٠م.

- معجمُ الأُدباء، ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- مقدمة كتاب الدرّ الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيّدمر (ت ٧١٠هـ)، عُنيّ بتحقيقها والتعليق عليها د. مصطفى حسين عناية، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١٣م.
- المقصور والمدود، أبو عليّ القاليّ (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق ودراسة د. أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المنازل والديار، أسامة بن منقذ الكناني (ت ٥٨٤هـ)، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- المناقب والمثالب، ریحان بن عبد الواحد بن محمد الخوارزمي (ت نحو ٤٣٠هـ)، عُنيّ بتحقيقه إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٩م.
- المنتخب من غريب كلام العرب، عليّ بن الحسن الهنائيّ المعروف بكراع النمل (ت ٣١٠هـ)، تحقيق د. محمد بن أحمد العمريّ، جامعة أمّ القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م.
- المتخل، عبيد الله بن أحمد بن عليّ الميكالي (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٠م.
- المنشور البهائيّ، عليّ بن محمّد بن خلف النيرمانيّ (ت ٤١٤هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن عثمان بن عبد العزيز الهليلّ، مركز سعود البابطين الخيريّ للتراث والثقافة، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- مَنْ غابَ عنه المطرب، عبد الملك بن محمد الثعالبيّ (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- مواد البيان، عليّ بن خلف الكاتب (ت بعد ٤٣٧هـ)، تحقيق د. حاتم صالح الضامن،

- دار البشائر، دمشق، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- الموضح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي، يحيى بن عليّ التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.
- نزهة الأبصار في محاسن الأشعار، شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد العنابي (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق السيد مصطفى السنوسيّ وعبد اللطيف أحمد لطف الله، دار القلم، ط ١، الكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب المصرية والهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- الوافي بالوفيات، خليل بن أيك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، ج ٢٥، اعتناء محمد الحجيري، جمعية المستشرقين الألمانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- اليواقيت في بعض المواقيت في مدح الشيء وذمّه، عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م.

* * *

المنظور الثقافي في نقد «العقاد»

أ.د. وفيق سليطين^(*)

تستهدي هذه الورقة البحثية بمكتسبات النقد الثقافي، وتنطلق منها، لتعود بفعل راجع من أثرها إلى فحص بعض نظرات العقاد النقدية في ضوءها، ابتغاء الكشف عن الرؤى المضمرة، وعن المعايير الضمنية، وكذلك عن المحدّدات أو الموجهات التي يصدر عنها العقاد في مواقفه، بحيث يكون الخطاب محكوماً بها، وشفافاً عنها، وإن بدت أحياناً مكبوتة فيه، وأقل إفصاحاً عن طبيعتها، تحت ضغط الإطار المعرفي المقيّد لحدود الفعل والاستجابة في زمن العقاد.

لقد رأينا أن نجلو لبناتٍ صالحةً للبناء على وفق هذا المنظور، بالاستفادة من بعض ما وقفنا عليه في ثلاثة من كتب العقاد، هي:

- الديوان في الأدب والنقد (بمشاركة المازني).

- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب.

- آراء في الآداب والفنون.

هذا، ويتوصل البحث، باختبار مادته ومعالجتها، إلى تنظيم التناول على

(*) أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية.

نحو متسلسل، يبدأ بالتأسيس الثقافي لدى العقاد في نقد عدد من مذاهب المستشرقين ومن تابعهم، ويوافق ذلك الكلام على نقض التعليل الطبعي، والعمل على ردّ المطلقات إلى مجرى التاريخ الاجتماعي الذي تنفصل عنه لتجوهر. يلي ذلك نقد العقاد (لاديولوجيا) التحيز وطرائق الاستدعاء، ومن ثمّ التحوّل بالمواجهة من تأنيث الآخر إلى التأسيس المعرفي.

وأخيراً، يكون الختام بالكشف عن صدور العقاد الضمني، في كثير من تبصّراته، عن مقولة النسق.

المنظور الثقافي في نقد العقاد

يُعدُّ مجال الدراسات الثقافي والنقد الثقافي ميداناً جديداً لنشاط العلوم الإنسانية بدءاً من تسعينيات القرن العشرين، وهو مشروعٌ يُعنى بتفهّم وظيفة الثقافة في العالم الحديث، وبالفحص عن كيفية اشتغال المنتجات الثقافية، وذلك بالوقوف على المعاني المضمّنة للصور الثقافية وتحليل الوظيفة الاجتماعية لها. وتتساءل الدراسات الثقافية إلى أي مدى نكون متأثرين بالأشكال الثقافية؟ وبأيّ الطرق نكون قادرين على استعمالها لأغراض أخرى؟ وإلى أيّ مدى يمكن أن نكون ذواتاً مسؤولة عن أفعالها؟ وإلى أيّ مدى تكون اختياراتنا مقيّدة أو محكومة من القوى التي لا نتحكّم فيها؟^(١).

وإذا كان الاهتمام بالدراسات الثقافية، ومن بعدها النقد الثقافي، قد اقترن بمعطيات ما بعد البنيوية، فإن مهمة الناقد الثقافي تتجاوز عمل الناقد الأدبي المتمهّر في قراءة النصوص وتأويل الأعمال الأدبية وبيان قيمتها الخاصة؛ ذلك

(١) جوناثان كولر: مدخل إلى النظرية الأدبية، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس

أن الدراسات الثقافية استثمرت تقنيات التحليل الأدبي في عملها على فحص المنتجات الثقافية بوصفها نصوصاً. ومن هنا كان على الناقد الثقافي أن يتوفّر على بحث مستويات الإقصاء، والاحتواء، والمقاومة، والغلبة، والتسامح، والقهر، والتحرير، والمركزية، والتفكيك. إن مهمة الناقد الثقافي - كما يبيّن (فنست ليتش *Vincent Leitch*) - هي تحليل الجذور الاجتماعية للأحداث المجتمعية والمؤسسات، والنصوص، ومهادها ومهاويها وتفريعاتها الايديولوجية^(٢).

بناءً على ما سبق ذهب المنظرون إلى عدّ النقد الثقافي نشاطاً منفتحاً، وليس فرعاً معرفياً أو مستقلاً؛ إذ إن نقاده قد استعملوا المفاهيم التي قدّمها المدارس الفلسفية، والاجتماعية، والنفسية، والسياسية، وقاموا بتطبيقها على الفنون الراقية والثقافة الشعبية، دون تمييز بينهما من حيث الكيف، كما استفادوا من تطبيقها في مجال كشف الطاقات، والأنظمة الثقافية، والإشكالات الايديولوجية، وأساليب الهيمنة المخترنة في النصوص، حتى تنكشف للوعي الكيفية التي تتشكّل بها هذه الأبعاد والجوانب والمستويات المختلفة^(٣). وبهذا يتعيّن النقد الثقافي حقلاً واسعاً للوعي والممارسة يتخطّى الحدود الخاصة التي تعارفها نقاد الأدب من قبل.

إلماع العقاد: نويّات التوجّه وشذرات الممارسة.

لم يكن العقاد يصدر في نقده عن وعي واضح بمنطلقات النقد الثقافي

(٢) محسن جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٢٠.

(٣) أرثر أيزابجر، النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويبي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٣.

ومحدداته، ولم تكن كشوف المعرفة في زمنه تؤهل لبناء هذا المنظور، على نحو ما سبقت الإشارة إليه، لكن ذلك لا يعطل القول بوجود ملامح أو مرتكزات تفتح على هذا التوجّه، أو تشكل سابقة له في كتاباته البحثية والنقدية والسجالية، وإن كانت تفتقر - وهذا طبيعي قياساً على (البراديجم) أو النموذج الإرشادي للمعرفة آنذاك - إلى رسوخ في التأسيس العلمي، وإلى التماسك النسقي في النحو المنطومي؛ ولذلك كنا نجد لديه من العلامات والمؤشرات والتكوينات الأولية ما يصل بأفق هذا المسعى، ويحوم على جوهره الفكري، ويقارب شيئاً من أدواته الإجرائية وجهازه المفهومي.

لعلّ قدراً من ذلك يتضح، من الوصل بين كلام العقاد على «النكتة المصرية» وكلامه على «مناكفة المرأة» وما سجّله من نقده لـ «شوقي» في «الديوان»، إلى غير ذلك من معاركه الفكرية وبحوثه العلمية في اللغة والأدب، وهو ما يشي باختراق أول للثوابت المتعارفة، على وفق المنظور المشار إليه في العنوان. وآية ذلك هنا تجاوز القسم التي تقرّها ثنائية التضاد المرسومة بين أدب رفيع وأدب شعبي، أو بين الراقي المركزي والمبتذل الهامشي. ومن هذا الباب أيضاً يأتي كلامه على نقد الفكر الموصل بنظرية الطبائع والتخصيص السلالي العرقي. يقول، على سبيل المثال، تحت عنوان «النكتة المصرية»: «النكتة سلاح. نعم سلاح تحارب به الأمم المغلوبة من يغلبونها، سواء أكانوا من أبنائها أو من أبناء الأمم الأخرى (...). فيصل الغالب بالسيف والنار، وينتقم منه المغلوب بالنكتة الحاضرة، ولسان حاله يقول: أنت تُخضعني، وأنا أجعلك أضحوكة بين العالمين»^(٤).

(٤) عباس محمود العقاد، آراء في الآداب والفنون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة - بيروت،

أضيف إلى ما ذكر، مستفيداً من المدونة المعتمدة في هذا البحث، كلامه على علاقة الشعر بالمجتمع في مثال قصيدة المدح أو الهجاء أو الرثاء، وإشاراته التوكيدية والاستباقية إلى قوة التأسيس النسقي التي يضطلع بها الشعر. وأقدر أن شيئاً غير قليل، مما جاء في هذه المواطن من نقد العقاد ومحامته، ينطوي على مكونات أساسية تلتقي مع غيرها على أرضية النقد الثقافي، وقد تُعدّ نُوِيَّات مضمرة لهذا التوجّه في إلماع العقاد وتبصّراته المتقدمة. وهو ما سنحاول جلاءه في المحاور الآتية:

أولاً: من نظرية الطبائع إلى نقد الثقافة.

يتوفر العقاد على نقض المركزية الغربية في مثال «المقارنة بين اللغات»، وينبّه على وجوب دحض بنية التراتب، ولوازمها الفكرية، ونتائجها العنصرية، ومستجراتها في دعم مساعي الهيمنة والإقصاء، كما يتقرّر على لسان دعائها، فيكشف بذلك عن مضمّرات الخطاب الاستشراقي في نحو إقرار الانفصال المطلق بين «شرق» و«غرب»، أو بين طبيعتين متقابلتين: شرقية وغربية. وهو خطاب مبني على القول بنظرية الطبائع الأرسطية ومستمد منها، في سبيل تحقيق غايات تتصل بالإخضاع وبتسوية ضروب الغزو والاستعمار عن طريق سلب الآخر وإدارته على محور التقابل الضدي مع غربية الغرب الملازمة لمعاني الإيجاب والقدرة والتفوّق. وذلك ما سيتولّى «إدوارد سعيد» نقده من بعد، وعلى نحو مؤسّس، في كتابه «الاستشراق» (١٩٧٨) الذي يفكّك فيه هذا الخطاب ويعرّيه بوصفه شكلاً من أشكال الهيمنة.

يسوق العقاد شاهداً على ذلك، يُبرز فيه خلاصة ما يذهب إليه دعاة المركزية الغربية في التحليل المقارن لوضع الجملة الاسمية بين لسانين مختلفين وهويتين

متمايزتين، يقول: «وبعض الغربيين من أصحاب نزعة التصوّف والتحليل النفساني الحديث يردّون تأخير الفاعل في لغتنا إلى نوع من (القدريّة) الشرقية التي تحيل كل شيء إلى الغيب. ومنهم من يقول إن الاختلاف بين الأوربيّين وأبناء اللغة العربية في مسألة الجملة الاسمية إنما هو اختلاف في درجة الشعور (بالثبوت) للشخصية الإنسانية، فإن (ثبوت) هذه الشخصية ملازم للتفكير الأوربي، ولكنه ضعيف عند الشرقيين، يسري ضعفه من الفكر إلى اللسان»^(٥).

إذا كان العقد في مواجهته، يردّ ذلك إلى دلالة الاختلاف بين اللغات من جهة، وإلى مراحل التكوين اللغوي الخاصّ بهذه اللغة أو تلك من جهة أخرى، فإنه من وراء ذلك، يتفطن إلى ضرورة تجريد خطاب القوة من مرتكزاته ذات الصلابة المزعومة، وإلى مواجهة التعليل الطّبعي القائم على الفصم الماهوي للهوية الإنسانية، بالاختلاف الثقافي الذي ينقض به جوهر القسمة السلالية في تراتب الأعراق، يقول: «ولا يخفى أن هذا الاختلاف بين لغة الضاد واللغات الأوربية له دلالاته التي لا ريب فيها، ولا يمكن أن يحدث لغير سبب يقبل التعليل كما تقبله جميع الظواهر اللغوية، على حسب نصيبها من الجلاء أو الغموض في مراحلها التاريخية»^(٦). وهو قول قاطع الدلالة في إحالته على الثقافة الخاصة بمراحل التكوين اللغوي، وفوق ذلك بإحالته، مستثمراً درجات «الغموض» و«الوضوح» في حركة التمرحل اللغوي، على المنظور الذي تستبطنه هذه اللغة أو تلك في رؤية العالم.

(٥) عباس محمود العقاد: أشات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة، ط ٤،

١٩٧٦، ص ٥٦ - ٥٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٥٧.

ومن باب إثبات ما تتضمنه نظرة العقاد، في هذا المحلّ، أُورد شاهداً آخر من مقالة له بعنوان «مناكفة المرأة»، يقول: «(النك) عند العامة هو معاودة المرأة الكلام الذي تقصد به الإساءة وتغمغم به غالباً، كأنها تزعم أنها تخاطب نفسها، وهي تخاطب من تعنيه ويستمع إليها في تلك اللحظة. وأكثر ما يكون (النك) من قبيل الغمز أو التصريح الذي تجرح به غرور الرجل... إلخ»^(٧). ومن الواضح في السياق نسبة (النك) هذا إلى طبيعة المرأة التي يتجافى عنها الرجل، ويعرّف بخلافها. لكن، مع ذلك، نلاحظ أن العقاد يذهب إلى تشخيص أسباب موجبة لهذا (النك)، تتمثل - كما يدرجها - بما يلي:

أ- الجوع الجنسي، وعدم تلاؤم الزوجين في خصائص المزاج.
ب- زواج الحب المقتصر على نفسه، دون الاشتراك في حُبّ كثير من الموضوعات الأخرى.

ج- سوء الحالة المالية، والشعور بالنقص والحرمان.
د- هوس المرأة أحياناً في الترتيب والنظافة وأثاث المسكن إلى حدّ المبالغة المفرطة.

هـ- التوجّس، وتصديق الخرافات، وخوف العقاب على ما يتوهم أنه من المحرّمات.

و- الفراغ الذي يعوضه (النك)، وسوء الصحة، أو بواعث الشكوى من المرض والاعتلال.

والملاحظ أن ما يذهب إليه العقاد من تعليل الظاهرة ينطوي ضمناً على نفي القول بالطبيعة الثابتة للمرأة، أو بجبلتها التكوينية التي تجعل (النك)

(٧) عباس محمود العقاد: آراء في الآداب والفنون، ص ١٥٢.

ملازماً لها، وموقوفاً عليها دون غيرها. ومع ذلك فإن ما يبسطه العقاد في مناقشة الموضوع لا يرقى إلى إنشاء الاعتراض على القول بطبيعة أنثوية جوهرانية، تعرّف المرأة تعريفاً نهائياً محكماً تغدو مختزلة فيه. لكن سياق المعالجة يسرّب قدرًا من ترجيح العقاد للمكوّن الثقافي التاريخي، وللأسباب التي نزلت المرأة هذه المنزلة، وإن كان لا يعرض لنقد السلطة البطيركية الموروثة، أو لنقد القسمة الماهوية للهوية بين التذكير والتأنيث، ولكنه، في الأحوال جميعاً، يشفّ عن بصيرة متقدمة في نقد التطبيع الذي من شأنه أن يجعل من الثقافي طبعاً راسخاً يتصل بالفطرة والجبلة وأصل التكوين. وباختصار، فإن ما يتبدى لنا من نقد العقاد هنا يشير إلى هذا التحوّل في توسيع المنظور النقدي، ويجعل كثيراً من الشذرات المتفرقة في معالجته وأحكامه تدرج في هذا المجال المتسع الذي بات يُعرف بالنقد الثقافي.

ثانياً: نقد (ادبيولوجيا) التحيز وطرائق الاستدعاء.

يلاحظ الباحث، في كثير من الأحيان، أن العقاد ينفذ في نقده إلى المضمّر في الخطاب، فيفضّ ما يستر (ادبيولوجية) القوة والتحيز فيه. وهذه الممارسة من صلب نشاط النقد الثقافي الذي يتجاوز المنطوق إلى المفهوم في عمله الكاشف عمّا تحتزنه النصوص، أو عمّا يجتأفه الخطاب ويسرّبه من آثار ومحمولات خاصة بقضايا الهوية والتنميط، أو بمجالات السيطرة وتهميش الآخر وتلخيصه، على نحو ما وقفنا عليه في الفقرة السابقة من إنشاء التقابل الضدي بين القدرية الشرقية وفاعلية الذات الأوروبية المتمركزة على نفسها.

والحقّ أن العقاد يبدي من المقدرة على كشف تمويهات الخطاب، وفضح ألعيبه، والنفاذ إلى الغائر في طبقاته، ما يجعله قميناً بإزالة هالته، أو بتجريده من

قوة الإضمار التي يعتمدها في البناء والتوصيل وإخفاء الأثر وطمس الغايات، وكأنه يهجس، على نحو ما، بفكرة «التذويت»، بناءً على طريقة مناداة الآخر واستدعائه، وهي الفكرة التي سيقوم «التوسير»^(٨) بضبطها وصياغتها وجلاء شكل توظيفها في مقالته الموسومة بـ «الادبولوجيا وأجهزة الدولة الادبولوجية» (١٩٦١)؛ إذ يقول: «إن الادبولوجيا تنادي الأفراد بوصفهم ذواتاً». وخطورة عملية «التذويت» أو التشكيل الادبولوجي تكمن في كونها وسيلة من وسائل السيطرة والإخضاع في علاقة الثقافات أو الهويات بعضها ببعض. وهكذا يقوم خطاب الاستشراق، في مثاله المقدم من قبل، بتذويت آخره واستدعائه على هذا النحو الذي يتولّى تعريفه، فيكون قدرياً، متوكِّلاً، منسحباً من دائرة الفعل والمبادرة، وتكون لغته مرآة لطبيعته الخاصة التي ينقشها خطاب المركز ليدمغه بها، بحيث إنها تردّ إليه ذاته المتعالية، التي يمرّ تعريفه بها، ويستوي على خلافها.

ومن هذه الدعوات التي يتصدّى لها العقاد تلك التي يذهب أصحابها إلى محاولة نسف عمق الشخصية العربية بالعمل على حذف تراثها وإغائه؛ لأن الأدب العربي القديم - كما يزعمون - أدب عتيق لا يصلح للبقاء، فهو أدب شخصي، وليس أدباً اجتماعياً يخدم الأمم. وهي دعوة لا تبرأ من شبهة الكيد والنفاق كما يقول العقاد؛ ذلك أن «انقطاع الصلة بيننا وبين ماضينا في اللغة والأدب أشبه شيء بتجريد الإنسان من الذاكرة وتركه بين أيدي المسخرين له أداة طيعة منقادة لكل ما تُقاد إليه»^(٩).

(٨) كذا وردت في الأصل !! [المجلة]. (*)

(٩) عباس محمود العقاد: أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص ١٢٨.

والملاحظ، في مثل هذه الأحوال، أن العقاد لا يستجيب لطبيعة النداء والرغبة في التثيت، ولا يلتزم المنازلة على أرض هذه المقولات، ولا يتقيد بحدود دوائرها المرسومة، بل يذهب إلى التنقيب عن الغايات التي يظللها الخطاب تحت سطحه الظاهر وملاحمه المتبديّة. وعلى هذا الوفاق يجري في مواجهة الزعم بأن الشعر العربي يخلو من الملحمة، بسبب من خصائصه الذاتية. وهو، في هذا الموضوع، يناقش كتاب الدكتور «زكي المحاسني» الذي يأخذ بهذا الرأي المصدّر، ويحاول تعليقه من داخل إطار الشعر العربي، فيعود العقاد إلى التدقيق في الملحمة (*Epic*)، ويشحذ الوعي بما ينطوي عليه تصدير المؤسسة في خطاب الاستشراق، وينقل مركز الحوار، ليقبله بطناً لظهر؛ أي من الكلام على وجود الملحمة، أو عدم وجودها، إلى الكلام على مكنن التسريب الايديولوجي الذي يتغيّر الحمل على الإقرار بنقص الملكة، وبمحدودية الشعر العربي، من حيث طبيعته وتكوينه، ومن ثم تثبت القول على الطبيعة العنصرية الإقصائية في خطاب المركز.

أما السؤال عن سبب غياب الملحمة عند العرب فيجيب عنه العقاد بقوله: «إن الموضوع نفسه لم يوجد عند العرب، فلم ينظموا فيه. ولو كانت القافية هي الحائل دون نظمه لوجدت القصة المطولة منشورة (...) ولكن الموضوع كلّ لم يوجد لأسباب شتى (...)، ولم تكن للأمر علاقة بنقص في طبيعة الفن، ولا بقصور في ملكات الشعر». ويضيف إلى ذلك أن الملحمة «وجدت ببعض خصائصها وأجزائها حين وجد الموضوع ببعض خصائصه وأجزائه: وجدت ملحمة (النبي أيوب)، ووجدت ملاحم الزير سالم وعنتر بن شداد وغزوات بني هلال والظاهر بيبرس (...) يتوفّر لبعضها شرط البطولة الخارقة أو شرط

الأساطير وما بعد الطبيعة، أو شرط المحاربة مع الأقوام الغربية، أو شرط الرواية الشفوية، ولكن هذه الشروط لم تجتمع في واحدة منها، ولو أنها جمعتها لوجدت معها (الملحمة)»^(١٠).

ومع أن العقاد توسع في إجراء المصطلح واستعماله على هذا النحو، فإن كلامه يبقى منظوياً على الوعي بإنشاء الفرق بين أشكال تمايز، هي: الأسطورة، والملحمة، والسيرة البطولية. وأهم من ذلك أنه يقوِّض مرتكزات الخطاب التخيلي، ويردّه إلى حدوده الطبيعية حين يردّ المسألة إلى التاريخ والمجتمع، ويلتمس تعليلها من داخل هذه الصيرورة، وليس من طبائع الأقوام والسلالات.

ثالثاً: من تأنيث الآخر إلى التأسيس المعرفي.

لا يخفى أن خطاب الهيمنة الذي يشير العقاد إلى طوابعه الذاتية، ومراميه الغائية، وتكويناته الايديولوجية، في بعض الأمثلة المتناولة، قد دأب على أن يجعل من نفسه مركزاً لأطرافه التي يحددها ويغزوها. وفي عمليات الإخضاع هذه يبنى علاقته بغيره، من حيث هي علاقة الأعلى بالأدنى، والمتبوع بالتابع، وهي علاقة يجوز فيها الأدنى التابع مقومات السلب والخنوع، كما رأينا في الإشارة إلى القدرية الشرقية، اعتماداً على استنطاق آلية البناء اللغوي في العربية، وكذلك في وصم الشخصية المتمية إليها بالضعف والتواكل وافتقاد صفة الثبوت والفاعلية وغير ذلك من مقومات الإيجاب التي تخصّ الشخصية الأوربية وحدها.

ولا شك في أن هذا التمثيل التخيلي يفضي إلى القول بخصوبة المركز وفحولته الذكرية المولدة، وإلى تنزيل الآخر في موقع التأنيث الذي يحتاج إلى الافتراع والتخصيب، باقتحام الأول له، وإلحاقه به، وضحّ بعض خصائصه

(١٠) المصدر السابق، ص ١٤٦.

فيه، كما تتجلى هنا من طريق الفكر واللسان.

ومن اللافت أن العقاد، في هذه المواجهة، يتجافى كثيراً عن أفعال التدافع الخطابي، وعن طبيعة الاستجابة التي يحفزها الخطاب المضاد؛ فبدلاً من نزوع التخويض الايديولوجي المفترض، يذهب العقاد إلى منازل الخصم على أرضه هو؛ أي يذهب إلى مقابلة التخيلي بالمعرفي، وإلى تطويق الزيف بحقائق العلم. وهو إذ يفعل ذلك، يعصم نفسه من أن يكون مقلوب خطاب المركز الذي يُصدي صوته، ويردّ إليه صورته، في تأسسه عليه، وفي قيامه على وفق التحديد الذي ينطق به ويشير إليه. ولعلّ ذلك ما يتضح في نصّ العقاد؛ إذ يقول: «واللغات في تصنيف بعض علمائها تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التي تتكلمها (...) وخيرٌ منه أن نقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين قواعدها وعوامل التصريف في مفرداتها وتراكيبها، وهو تقسيم يضبط الفوارق ضبطاً كافياً للموازنة بينها»^(١١).

هكذا يمضي العقاد في نقض التراتب على هدي التأسيس العلمي في تناول التركيب اللغوي بالنظر والتحليل، للوقوف على الوظائف والخصوصيات اللسانية، بدلاً من جعلها تُكأة للايديولوجيا، واتخاذها منطلقاً لإقرار التراتب القمعي، وتذويبها في محلول ايديولوجيا الغلبة والتفوق، والتذكير والتأنيث، والتطويق والإخضاع، والاستدعاء والتذويت. ومن ذلك ما نراه في كلامه على الفاعل في اللغة العربية بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول. فعلى نقيض الرغبة في إرادة الاستخلاص الحجاجي الموجه في نسبة خصائص طبيعية إلى لسان أو آخر، بالمقارنة بين اللغات وأساليبها في البناء والتعبير، يسلك العقاد سبيل

(١١) المصدر السابق، ص ١١٥.

الاستقراء والوصف العلمي لتفاوت أساليب الاستعمال بين اللغات، ويتوفّر على بحث خصائص البناء للمجهول في العربية، ويوازن بينه وبين نظيره في اللسان الغربي، ليخلص إلى بيان الاختلاف، وتقنين الفوارق والتصورات، دون أن يجعل من ذلك مطية للإنكار وصراع الغلبة والتفوق الحضاري والنبذ العرقي.

مثال ذلك، مما يعرض له هنا، أننا نقول: (فُتِحَ البابُ) بصيغة المبني للمجهول. أما العبارة الأوربية المقابلة لذلك فهي قولهم: «إن الباب يكون مفتوحاً»^(١٢)، «وهو تعبير يخلو من دقة الصيغة العربية، لأنه أقرب إلى وصف منه إلى الإخبار»^(١٣).

وخلاصة الأمر هنا أن العقاد لا يمثل لمنطق الخطاب الضمني المقابل، ولا يجري على ضروب التحفيز الكامنة فيه، بل إنه، بانتهاجه سبيلاً مغايراً في نحو الاشتباك بخطاب الآخر، يقلب قواعد التوجّه، ويفضح سبل الإضمار، أو المسكوت عنه في خطاب الهيمنة والإخضاع، بإنتاج الفارق الدال بين الزيف الاديولوجي والتأسيس العلمي.

وإذا ما حاولنا توسيع هذا المنظور نحو إعادة كتابة التاريخ الحضاري للأمم، من هذا الموقع الخاص بالمغلوب أو المهمّش، وخارج نطاق التحديد (الكولونيالي) المضروب، فسنرى في نقد العقاد نُويّات لهذا التوجّه الذي سيتأسس في الدراسات الثقافية، وخاصة في الحقل النظري لنقد ما بعد (الكولونيالية)، وهو ما سيعرف بـ«دراسات التابع»، التي تتعين بدلالة مقاومة المنظور الغربي الاستعماري، ونقد رؤية العالم المحايثة له.

(١٢) هذه ترجمة ركيكة. والوجه أن يقال: الباب مفتوح!

(١٣) المصدر السابق، ص ٦٣.

رابعاً: العقاد وسلطة النسق.

قد يبدو للمتأمل أن العقاد يصدر، في تفكيره، عن إحساس ذاتي بالقوة النسقية التي تنطوي عليها الممارسات الثقافية والخطابات الفكرية في سياقاتها المتعددة وصيغها المؤسسية، فكما وجدناه آنفاً يعرّي النسق الايديولوجي، ويفضّ الخطاب عن مطوياته في خطاب المؤسسة الغربية الاستعمارية على لسان دعائها، كذلك نجده، في المقابل، متنبّهاً لخطورة النسق الشعري الذي يسحب الفاعلية من الفكري إلى الفني والجمالي، فيمرّر، عبر هذه القناة، قوته النسقية، ويعزّز فعلها وتأثيرها في البناء والتشييد أو في الهدم والتقويض، ولا سيما ما كان منه في مثال قصيدة المدح وموازياتها. يقول في دفع تهمة الذاتية «الشخصية» عن الأدب العربي القديم: «قد يبدو للمتعجل أن قصيدة المدح كلام لا يعني أحداً غير السيد الممدوح والشاعر المادح... وليس أظهر من هذا الوهم عند أقرب نظرة. فإن قصيدة المدح، لو كانت كذلك لما استحكمت من الممدوح نفسه أن يبذل فيها درهماً واحداً...، فلولا أن المجتمع يستفيد شيئاً من القصيدة، ويحفظها لهذه الفائدة، لما احتفى بها الممدوح، ولا جاشت ملكة التعبير في الشاعر. إن المجتمع يستفيد من القصيدة أنها تُحيي فيه أخلاقاً لا قوام له غيرها في قيادته وسياسته ومعاملاته المتبادلة بين أفراده... ولم يخطئ أبو تمام حين قال: ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بناء العلامن أين تؤتى المكارم فهذا، على التحقيق، هو دور الشعر في بناء المجتمع والمحافظة على قوامه»^(١٤).

إذا كان هذا الكلام يؤكد أهمية الشعر، من حيث هو حامل للنسق القيمي في المجتمع، ومرسّخ له، وقائم عليه، فإن كلام العقاد في «الديوان» على نقد

(١٤) المصدر السابق، ص ١٢٩.

شعر أحمد شوقي يلفت إلى أثر قصيدة المدح في تعميم الفساد الاجتماعي، بما تحقّقه في ذلك المكان من الجنوح وهدم المنطق السليم بالمبالغات الشعرية المنافية لحقائق الأشياء، وهنا يتوقف عند قول شوقي في رثاء مصطفى كامل:

إن كان للأخلاق ركنٌ قائمٌ في هذه الدنيا فأنتَ الباني
يقول: «فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثي به مصطفى كامل؟ أي فهم أنه وحده هو الباني لكل ركن للأخلاق في هذه الدنيا؟ إذن فماذا يقال عن النبي إن قيل هذا عن الزعيم السياسي؟»^(١٥).

أليس في هذا تناول - إذا ما أهنا بكلام الغدامي - كشف عن خطورة النسق الشعري في صناعة الفحولة وتأسيس الطغيان؟ أليس فيه توجيه للوعي إلى أن الحيلة البلاغية ما هي إلا وسيلة لإشاعة الامتثال، بعد طمس الفكري بالشعري، ومن ثمّ الانتهاء إلى تفريد الفرد وتقديسه، في مقابل إحلال المجتمع في ربة التعريف بصفة «الرعية»؟! إن لعبة المادح والممدوح، بما اخترعته شعرياً، قد جلبت معها - كما يؤكد صاحب كتاب النقد الثقافي - منظومة من القيم النسقية انغرست مع مرور الزمن لتصنع صورة للعلاقة الاجتماعية بين فئات المجتمع، ثمّ إن ثقافة المديح التي صنع معها الشاعر صورة الأمر المطلق بصفاته النسقية، صنعت، بهذه الصفات، «الإمبراطور» المجازي، من حيث هو منحوت بلاغي «مُشعَرَن»^(١٦).

من باب تأكيد ذلك ما يثبتته العقاد في مكان آخر، يقول: «فمنذ وجد المدح

(١٥) عباس محمود العقاد: الديوان في الأدب والنقد (بالاشتراك مع المازني)، مكتبة الأسرة - مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٥.

(١٦) عبد الله محمد الغدامي: النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م، ص ٩٤، وص ١٤٤.

في لغات الناس والشعراء يصفون الممدوحين بالصفات الممدوحة المستحبة لا بالصفات المذمومة المستكرهه.

وليس في وسع المتملق أو المنافق أو طالب المنفعة لنفسه أن يفعل غير ذلك في مدح إنسان أيًا كان هذا الإنسان. فهل إذا جاء شاعر فمدح الشرير بالخير، ومدح الجاهل بالعلم، ومدح المفسد بالإصلاح، قلنا لا عليه من ذلك؛ لأنه إنما يمدح الإصلاح والعلم والخير، ولا يمدح المفسدين والجهلاء والأشرار؟ ومتى يعاب المدح إن كان هذا لا يعاب؟^(١٧).

إن السياق يقطع، لا شك، بالتفات العقاد إلى الدلالة النسقية لشعر المديح، بآية ما انطوى عليه منذ نشأ واستوى وشاع بين الناس، فهو يرفعه الممدوح أيًا كان، يهدد باختلال المعيار، وهدم سلم القيم في المجتمع، باستجابته لعلاقات القوة والنفوذ، وللمؤسسات الاجتماعية التي تدعم ذلك وتتقوى به، ولأصناف الخطاب المتفرعة من هذه المؤسسات. ويعني الكلام هنا - فيما يعنيه - أن الشعر ليس مجرد حامل للقيم ومرسّخ لها في إطاره الخاص، بل إنه، فوق ذلك، يهيم لانتقالها من المكان الأدبي إلى المكان الاجتماعي، فيستتبُّ هناك على صورتها الراسخة في شعر المدح، وهو ما يفضي، سياسيًا، إلى تضخيم الفرد ورفع سلطته إلى مكان العلة الأولى التي من لوازمها ترسيخ التبعية، واقتضاء العبادة والتقديس. والمشار إليه، بحكم العلاقة، إنما هو تقديس الفرد، وعبادة الطغيان.

نخلص، بدلالة هذه الشواهد المحدودة التي عرضنا لها للتمثيل، إلى أن جملةً من ممارسات العقاد الكتابية تستبطن غايات النقد الثقافي، في الكشف عن عمل الأنساق، وفي جلاء المرامي المحجوبة تحت سطح الخطاب وبلاغته

(١٧) عباس محمود العقاد: آراء في الآداب والفنون، ص ٢٨.

الظاهرة، وفي بيان صلة ذلك كله بطرائق عمل المؤسسات القائمة وأساليبها في التصدير والترويج ودعم شروط الهيمنة وتوفير سبل استمراريتها، ومن آيات تمكين هذه الرؤية ما نجده من إسهام العقاد النقدي في مختلف الحقول والمجالات الفكرية والأدبية والسياسية، ومن استعانتة بمعطيات العلوم النفسية والاجتماعية والأنتروبولوجية، فضلاً عن الأدبية والجمالية وغيرها، ومن ثمّ العمل على تطويع هذه المعارف في نقد النصوص والخطابات، وإنتاج مسافة الاختلاف بين المعلن والمضمر فيها، وإعادة تأويل ذلك تأويلاً ثقافياً يقف على الأنظمة الدلالية ويجاورها، ويحدّد مواقعها المتفاوتة أو المتقابلة، انطلاقاً من حاجات الواقع الحضاري للأمة. ■

* * *

المصادر والمراجع

- آراء في الآداب والفنون، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة - بيروت، د.ت.
- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، عباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٦.
- الديوان في الأدب والنقد (بالاشتراك مع المازني)، عباس محمود العقاد، مكتبة الأسرة - مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٠ م.
- مدخل إلى النظرية الأدبية، جوناثان كولر، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م.

- النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، أرثر أيزابجر، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغدامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م.

* * *

ماءات القرآن

لجامع العلوم النحوي أبي الحسن علي بن الحسين

تحقيق الدكتور / عبد القادر السعدي

ملحوظات وماأخذ

أ.د فوزي حسن الشايب (*)

إنّ كتاب «ماءات القرآن»، لأبي الحسن عليّ بن الحسين الملقّب بـ: (جامع العلوم النحوي) واحداً من عدد لا يحصى كثرة من الكتب التي عُنيّت بدراسة القرآن الكريم من مختلف الجوانب، فهو وأمثاله شواهد حيّة على محوريّة القرآن الكريم ومركزيّته في الدراسات اللغويّة عند العرب، ولا غرو في ذلك فهو الكتاب الأول، بل الكتاب الأمّ للغة العربيّة.

وجامع العلوم النحوي، هو أحد علماء القرن السادس الهجري (٥٤٣هـ). وقد تولّى الدكتور الفاضل عبد القادر السعدي تحقيق كتابه هذا، الذي بلغ عدد صفحاته (٣٤٧) سبعاً وأربعين وثلاثمئة صفحة، من القطع المتوسّط، وهو صادر عن دار الأنبار للطباعة والنشر في بغداد عام (١٤٢٤هـ) الموافق عام (٢٠٠٣م). وقد بذل فيه المحقّق الفاضل جهداً طيباً في تحقيق النصّ، وتخرّيج الشواهد، والتعريف بالأعلام،

(*) أستاذ النحو والصرف - الأردن.

والتنبه على بعض ما وقع فيه المؤلف من أوهام^(١). غير أنه بقيت هناك بعض الملحوظات والمآخذ التي ألت بالكتاب تأليفاً وتحقيقاً، ارتأينا أن نفردها ببحث مستقل، خدمة للكتاب وللحقيقة العلميّة من جهة، وليفيد منها المحقق، فيخلص الكتاب مما علق به من هنات في الطبقات القادمة للكتاب من الجهة الأخرى.

وسنجمل ملحوظاتنا على هذا الكتاب في النقاط الآتية:

١- التأليف في ماءات القرآن معهود قبل المؤلف:

إنّ التأليف في ماءات القرآن، موضوع معروف ومطروق قبل المؤلف بقرنين من الزمان على أقلّ تقدير، وهذا ما أكّده المؤلف نفسه في مقدمة كتابه^(٢). ولكنّ المحقّق لم يشر إلى أيّ من الأعمال السابقة لعمل المؤلف، واكتفى بذكر عمليّن يميلان الاسم نفسه، لاثنين من العلماء المتأخرين زمنياً عن عصر المؤلف؛ أولهما لشيخ الإسلام، أبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني العطار (٥٦٩هـ)، والآخر لإبراهيم بن عمر الجعبري الذي كان قد فرغ من تأليفه عام (٧٠٧هـ)^(٣). وهذا يعطي الانطباع بأنّ جامع العلوم النحوي (٥٤٣هـ) كان رائداً في هذا المجال، والأمر ليس كذلك؛ فقد سبقه إلى التأليف في هذا الموضوع ابن خالويه (٣٧٠هـ)، الذي نصّ على أنّه قد أفرد لـ (ما) في القرآن الكريم كتاباً^(٤). وذكر صاحب كشف الظنون أسماء اثنين من العلماء وضع كلّ منهما كتاباً يحمل الاسم نفسه، وهو: (ماءات القرآن على ترتيب السور)؛ الأوّل هو الشيخ أبو الفرج أحمد بن علي

(١) انظر مثلاً: ص ٤١ هامش رقم (٤)، ص ٤٣ هامش رقم (١)، ص ١٢٤ هامش رقم

(٢)، ص ١٨٨ هامش رقم (١)، ص ٢٨١ هامش رقم (١) الملحق.

(٢) ماءات القرآن: ص ٣.

(٣) المرجع السابق (قسم الدراسة) ص ٢٢.

(٤) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ص ٤٠.

المغربي الهمداني (٣٩٨هـ)، والآخر هو الشيخ أبو البقاء المعمر (عمر) بن محمد بن عبد الكريم المغربي الفاروقي^(٥).

٣- تأثر المؤلف بالنحو الكوفي:

هناك تأثر واضح للمؤلف بالنحو الكوفي، ويتجلى ذلك من خلال الآتي:

أ- إثباته عطف البيان في النكرات (ص ١٦ سطر ٥)، وذلك بتجويزه إعراب «بعوضة» في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦]: عطف بيان. وهذا لا يجوز إلا على مذهب الكوفيين، وأبي علي الفارسي (٣٧٧هـ)، والزمخشري (٥٣٨هـ)^(٦). أما البصريون فلا يجوز عندهم مجيء عطف البيان في النكرات^(٧)، ولذا لا تكون عندهم إلا بدلاً.

ب- إثباته مجيء أسماء الإشارة أسماءً موصولة؛ فيما يخص اسم الإشارة (هذا) في قوله:

«نجوت وهذا تحملين طليق»

عده المؤلف (ص ١٨ السطر الأخير) اسماً موصولاً. وهذا لا يصح إلا على رأي الكوفيين. أما البصريون فلا يُستعمل شيء من أسماء الإشارة اسماً موصولاً إلا «ذا» وحدها، وبشروط، حددها سيبويه (١٨٠هـ) بقوله: «... وليس يكون كالذي إلا مع (ما) و(من) في الاستفهام، فيكون «ذا» بمنزلة الذي ويكون (ما) حرف الاستفهام»^(٨). وما ينطبق على اسم الإشارة: (هذا) في هذا الموطن، ينطبق

(٥) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ١٥٧٢/٢.

(٦) شرح التسهيل ٣/٣٢٦.

(٧) البحر المحيط، ١/٢٦٧.

(٨) الكتاب، ٢/٤١٦.

كذلك على اسم الإشارة: «تلك» في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧] (ص ١٧٨ سطر ٥). الذي عدّه المؤلف اسماً موصولاً أيضاً.

ج- إثباته مجيء (الذي) موصولاً حرفياً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّمُ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (ص ١٠٤ السطر الأخير). وهذا لا يصحّ أيضاً إلا على رأي الكوفيين؛ قال أبو حيان (٧٤٥هـ): «وأما (الذي) فزعم يونس والفراء وتبعهما ابن مالك أنه يُسبك منها ومن صلتها مصدر، وخرّج عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣] و﴿وَحُضِّمُ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]... والصحيح منع ذلك، وهو مذهب البصريين»^(٩).

د- تبنيه لرأي الكسائي (١٨٩هـ) بشأن عمل ما قبل (إلا) في ما بعدها من معمولات غير المستثنى وتابعه؛ فبصدد: «بصائر» في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَايِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أعربها المؤلف حالاً معمولة للفعل السابق: (أنزل) (ص ١٦١ سطر ٩-١٠). وهذا لا يجوز على رأي جمهور النحاة؛ لأنه من ناحية، لا يستثنى بأداة واحدة شيئان، ولأن ما قبل إلا لا يعمل في ما بعدها إلا أن يكون مستثنى أو تابعا له من ناحية أخرى. وقد أنكر المؤلف على النحاة رأيهم هذا وردّ قائلًا: «إن (إلا) إنّما تمنع عمل ما قبلها فيما بعدها إذا تم الكلام قبلها، فأما إذا لم يتم، فيعمل ما قبلها فيما بعدها..». والمؤلف أخذ في هذا الذي ذهب إليه برأي الكسائي في هذه المسألة^(١٠). وأمّا جمهور النحاة فلا يجوز عندهم ذلك، وقد علّوه بشيئين:

الأوّل: أنّ حرف الاستثناء بمنزلة حرف النفي، وحرف النفي له حقّ

(٩) البحر المحيط ٥/٤٠.

(١٠) شرح الرضي على الكافية ١/١٩٥.

الصدارة، فلا يعمل ما قبله فيما بعده، قال أبو عليّ الفارسي: «ألا ترى أنك إذا قلت: قام القوم إلا زيداً فالمعنى: قام القوم لا زيد؟ فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي فيما بعده، كذلك لم يعمل ما قبل الاستثناء إذا كان تاماً فيما بعده؛ إذ كان بمعنى النفي»^(١١).

والآخر: هو أن ما بعد (إلا) في التقدير من جملة أخرى؛ فجملة مثل: نجح الطلاب إلا زيداً، محوّل في المستوى العميق عن جملتين هما: نجح الطلاب، وما نجح زيد. وجملة مثل: ما نجح الطلاب إلا زيد (أو زيداً) محوّل هي الأخرى عن جملتين، هما: ما نجح الطلاب، ونجح زيد. وهذا يعني أن ما بعد إلا هو في التقدير أجنبيّ من العامل الذي قبلها، ومن ثم لا يجوز له أن يعمل فيه، وإنما جاز عمله في الاسم الذي يلي إلا مباشرة، لقربه من العامل، ولعدم توغّله في حيّز المعمول الأجنبيّ. فإن أخطر المستثنى منه إلى ما بعد المستثنى، أو أتبع المستثنى بتابع ما، عمل العامل الذي قبل إلا فيهما بسبب ارتباطهما بالمستثنى، وتعلّقهما به. فإن وقع بعد الاسم الذي بعد إلا معمول آخر، غير المستثنى منه أو غير تابع للمستثنى، كان هذا المعمول أجنبيّاً البتة، فلا يكون للعامل الذي قبل إلا أيّ عمل له فيه، فيقدّر له من ثم - منصوباً كان أو مرفوعاً - عامل آخر من جنس الأوّل. و«بصائر» ليست مستثنى منه مؤخراً، ولا هي تابعة للمستثنى، وعليه فهي أجنبيّة من العامل الذي قبلها، فلا عمل له فيها، ولهذا يقدر لها عامل آخر من جنس الأوّل تقديره: أنزلها بصائر^(١٢).

ومثل: «بصائر» في الآية السابقة، ﴿بِالْبَيْنَتِ وَالزُّبْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١١) الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٣٤.

(١٢) شرح الرضي على الكافية ١/ ١٩٥.

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
 بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ [النحل: ٤٣-٤٤] خُرج شبه الجملة بالطريقة ذاتها، قال ابن هشام
 (٧٦١هـ): «يجب أن يقدر للباء متعلق محذوف، أي: أرسلناهم بالبينات؛ لأنه لا
 يستثنى بأداة واحدة شيئا، ولأنه لا يعمل ما قبل (إلا) فيها بعدها إلا إذا كان
 مستثنى نحو: ما قام إلا زيدا أحد، أو تابعا له، نحو: ما قام أحد إلا زيدا فاضل» (١٣).

٣- ظاهرة الخلل والاضطراب:

تتجلى هذه الظاهرة في إخلال المؤلف بعدد كبير من المئات التي لم يعرض
 لها، وقد أحصيت مئتين واثنين وعشرين (٢٢٢) منها، وهذا عدد ليس بالقليل.
 وقد أثبتناها كلها في الملحق المرفق، آخر البحث.

أما الاضطراب فيتجلى في إغفال سورة كاملة هي سورة «الطارق»، مع
 مائتها كلها، وإغفاله كذلك سورة «الهَمْزة» أيضاً، وإيراد ما ورد فيها من مئات
 ضمن سورة القارة^(١٤)، وفي مقابل ذلك أورد سورة الفجر (ص ٢٨٨)، وذكر
 أمثها تخلو من المئات. وهذا غير صحيح؛ فقد ورد فيها ثنتان زائدتان، وذلك في
 قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ابْنَلَّهُ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

ومن مظاهر الاضطراب أيضاً الخلط بين الآيات في السورة الواحدة؛ كالخلط
 بين الآية رقم (٥) والآية رقم (٦) في سورة يونس، فحكم من ثم على (ما) في
 الأولى وهي قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] بحكم (ما) في
 الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي أُخْتِ الْفَيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦] (ص ١٠٩ س ١) إي: حكم على (ما) في الآية الخامسة بأنها

(١٣) مغني اللبيب ص ٣٨٠-٣٨١.

(١٤) مئات القرآن، ص ٢٩١.

موصولة معطوفة، والصحيح أنها نافية، والموصولة هي التي وردت في الآية السادسة، ولم يتنبه المحقق على هذا كله.

ومن مظاهر الخلط كذلك تقديمه لبعض آيات السورة الواحدة على بعض، ففي سورة الرعد - مثلاً - انتقل المؤلف من الآية (١٩) إلى الآية (٢٤) ثم عاد مرة أخرى إلى الآية (١٩) فالآية (٢١) فالآية (٢٥) ثم رجع بعد ذلك إلى الآية (٢٢) (ص ١٣١)، وقد تكرر هذا السلوك منه في سورة الروم حيث انتقل من الآية (٣٤) إلى الآية (٣٢) (ص ٢١٥)، وفي سورة فاطر حيث انتقل راجعاً من الآية (٢٨) إلى الآية (١٨) (ص ٢٢٨).

كما خلط بين الآيات من سورة واحدة، فقد خلط أيضاً بين الآيات من سورتين مختلفتين؛ بين آيات من سورة هود وآيات من سورة الفرقان، ففي معرض حديثه عن سورة الفرقان (ص ١٩٦ س ٣) ذكر دون سبب ظاهر بعض الآية رقم (١٢٠) من سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

ومن مظاهر الاضطراب الواضحة إيراد المؤلف لبعض الآيات التي تحتوي على ماءين، فيحكم على إحداهما دون تحديد، ويهمل الكلام على الأخرى؛ فمن ذلك قوله (ص ٧٦ س ٧) بشأن الآية رقم (٥٦) من سورة الأنعام: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ نفي، ثم أردف قائلاً: وكذا ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] أي أن ما نافية كذلك. ولكن توجد ههنا ماءان؛ الأولى نافية والثانية موصولة، ثم قال بعد ذلك: وكذا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وبحسب السياق يفهم من كلامه هذا أن (ما) في هذه الآية نافية أيضاً، مع أنها موصولة. وقد تكرر ذلك عند حديثه عن الآية رقم (٧٤) من سورة يونس، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيَوْمًا يَكْتُوبُونَ بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، حيث قال: «موصولة»

(ص ١١٤ س ٨-٩) مع أنه توجد ههنا ماء؛ الأولى نافية، والأخرى موصولة. وقد تكررت هذه الظاهرة أيضاً عند حديثه عن الآية رقم (٨١) من سورة يوسف، وهي: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ حيث قال: نفي. (ص ١٢٨ س ٣)، مع أنه توجد كما هو ظاهر ماء؛ الأولى نافية والأخرى موصولة.

٤- الضعف في التوثيق والخلل في الإحالة:

من مظاهر ذلك:

أ- الهامش رقم (١) ص (١٦)، ذكر المحقق أن القول بزيادة (ما) في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ هو للأخفش (٢١٥هـ) والزجاج (٣١١هـ). والصحيح أنه رأي لجميع البصريين، قال الزجاج: «والاختيار عند جميع البصريين أن تكون (ما) لغواً»^(١٥)، ويؤكد ذلك نصّ المبرّد (٢٨٥هـ) - قبل الزجاج - على زيادتها في كتابه الكامل في اللغة والأدب^(١٦).

ب- الهامش رقم (٢) ص (١٦)، ذكر المحقق أن القول بأنّ (ما) في ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ نكرة بمعنى شيء هو للزجاج والنحاس (٣٣٨هـ). والصحيح أن كلاً من الفراء (٢٠٧هـ)^(١٧)، وثعلب (٢٩١هـ) قد قال بذلك قبلهما^(١٨).

ت- الهامش رقم (٣) السابق ص (٢٠) ذكر المحقق أن القول الوارد في المتن هو للزجاج وأحال على كتاب: (زاد المسير) لابن الجوزي (٥٩٧هـ)، مع أن رأي الزجاج هذا موجود في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) (٥٧/١).

(١٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٠٤، وينظر مغني اللبيب ص ٣٤٨.

(١٦) الكامل في اللغة والأدب ١/ ٤٤٢.

(١٧) الفراء، معاني القرآن، ١/ ٢١.

(١٨) البحر المحيط ١/ ٢٦٦.

ث - إهمال المحقق توثيق قول منسوب إلى الزّجاج بصدد «أينما» ينصّ فيه على أنّها عملت كما عملت (حيثما) (ص ٢٨ س ٤). وقول الزجاج موجود في كتابه: (معاني القرآن وإعرابه) ٢٢٦ / ١

ج - الهامش رقم (٤) ص (١٧٥) نقل المحقق رأياً للفرّاء أحال فيه على كتاب «المذكّر والمؤنّث» لأبي بكر ابن الأنباري (٣٢٨هـ)، ورأي الفرّاء هذا موجود في كتابه: (المذكّر والمؤنّث) ص (٦٤).

ح - الهامش رقم (٣) ص (٢١٧)، نقل المحقق رأياً لأبي عليّ الفارسي عن مرجع ثانويّ. مع أنّ رأي أبي عليّ موجود في كتابه: (الحجّة) (٤٦٣ / ٥)

خ - الهامش رقم (١) ص (٢٤١)، خرّج المحقق قولاً للطبري (٣١٠هـ) بالرجوع إلى (زاد المسير) لابن الجوزي، مع أنّ رأي الطبري موجود في تفسيره (١٠٢ / ٢٤).

وأما الخلل في الإحالة، فيتمثل في فكّ الارتباط بين النصّ الوارد في المتن والمرجع المحال عليه حيناً، أو في الخطأ في مكان الإحالة حيناً آخر. فمن ذلك:

١ - قوله (ص ١٢١ س ٣): «قال سيبويه (١٨٠هـ): سألت الخليل عن قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَأَلْوَفِيَنَّهُمْ﴾ [هود: ١١١]. أحال المحقق على كتاب سيبويه ١٤٠ / ٢ و ١٠٩ / ٣، ولكننا لا نجد هذا النصّ في أيّ من هذين المكانين، وقد تتبعت الآية في كتاب سيبويه فلم أجد هذا النصّ البتة، فهذه من جملة الإحالات العائمة التي لا معنى لها.

٢ - إحالته (ص ١٣٢ الهامش رقم ٤) على مرجع لا علاقة له البتة بما جاء في المتن، فما جاء في المتن يتعلق بالتجريد، والمكان الذي أحال عليه يتعلق بزيادة الحروف وحذفها، وشتان ما هما!..

٥- مظاهر التصحيف والتحريف

ويتجلى ذلك في الآتي:

ص (١١) سطر (٧) قوله: «من الغير». تحريف. والصواب: «من العين»، فالإنفاق إنما يكون من الأعيان لا الأحداث^(١٩).

ص (١٧) سطر (١٣) قوله: «بين ما وبين» تحريف، والصواب: بين أمّا وبين.

ص (٣٠) سطر (٦) قوله: «لبعد الهاء من قوله (به) من (ما) ويكون (ما) اسماً موصولاً بمعنى الذي».

لا معنى لقوله: لبعد الهاء، ولا لـ (من) فهذا كله تحريف، والصواب هو: لعود الهاء من قوله (به) إلى (ما).

قوله ص (٤٥) سطر (٢) قوله: «والمضمّر لا يوضع عنده موضع المضمّر». تحريف، وصواب ما تحته خط هو: (والمظهر).

ص (٩١) سطر (٨) قوله: «أي بصنعة». تصحيف. والصواب: أي يصنعه.

ص (٩١) سطر (١١) قوله: «هذه أنه مصدرية». الصواب: هذه أنها مصدرية.

ص (١١٦) السطر الأخير قوله: «أربعتهم نفي». يقصد بذلك المئات

الأربع في الآيتين (٢٧) و(٢٩) من سورة هود. وهذا خطأ، والصواب: أربعتهن...

ص (١٣٢) السطر (٣) قوله: «أما مالك أبّ قبلاً به أب» إن هذه العبارة على

هذه الصورة هي إلى العجمة أقرب منها إلى العربية، بسبب كثرة ما طالها من

التحريف والتشويه. والصواب فيها هو ما ورد في إعراب القرآن للزجاج، وفي

الخصائص لابن جني (٣٩٢هـ)، وهو: «أمّا أبوك فلك به أب^(٢٠)، أي: لك منه أو به،

(١٩) البيان في غريب إعراب القرآن ٢/ ٨٢.

(٢٠) الزجاج، إعراب القرآن، ٢/ ٦٦٥. وينظر أيضاً: الخصائص ٢/ ٤٧٥.

أي: بمكانه أب». وهذه العبارة في الأصل هي من عبارات الكتاب، قال سيوييه: «... ولو قال: أمّا أبوك فلك أب، لكان على قوله: «فلك به أب، أو فيه أب»^(٢١).

ص (١٥١) سطر (٨) قوله: «أن يكون هو نصبا» تحريف. والصواب: «أن يكون «هو» فصلا».

ص (١٥٢) سطر (١)، قوله: «وليس هو بمجرور»، تحريف. والصواب: وليس هو بمجزوم.

ص (١٦١) سطر قوله (٨): «فزعم (يقصد أبا عليّ الفارسي) أن (من) لا يتعلّق فيما بعدها»

يقصد بذلك (من) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

ما تحته تحريف؛ لأنّ ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها، وفي المقابل فإنّ ما بعد إلا لا يتعلّق بما قبلها، وعليه فالصواب هو: لا يتعلّق بما قبلها.

ص (١٦٣) سطر (٥) قوله: «حملت من عنانه الممتدّ». تحريف والصواب: جَهِلَتْ

وكذلك قوله: «ما عملت». تحريف. والصواب: «ما عَلِمَتْ». وهذا الشاهد أورده المؤلّف ليردّ على ما ذهب إليه الأخفش من زيادة حرف الجرّ (من) في الإيجاب الذي ربّما يحتجّ له بمثل هذا البيت، فبيّن أنّه ليس فيه حجة؛ لأنّ «جهلت» في المعنى: «ما علمت» فهو عائد - بحسب قوله - إلى النفي؛ يعني أنّ زيادة (من) في هذا الشاهد جاءت على باهما، ومن ثمّ لا يصلح أن يكون حجةً للأخفش على زيادة (من) في الإيجاب؛ لأنّ ما قبلها غير مثبت في المعنى.

ص (١٦٤) سطر (٢) قوله: «ولا يكون أحصى فعل». تحريف، والصواب، هو: ولا يكون «أحصى» أفعل تفضيل.

ص (١٧٤) سطر (٢٥١)، الشاهد:

وَأخَذَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ بِمَعْصَمٍ

قوله: بمعصم تحريف، والصواب: عَصَم. وهذا صدر بيت للأعشى كما سيأتي.

ص (١٧٩) سطر (١٠) قوله: «ولا يضاف»، تحريف. والصواب: ولا يصار.

ص (١٩٥) السطر الثاني، قوله:

أَلَيْسَ أَكْرَمَ خَلَقَ اللَّهُ قَدْ عَلِمُوا عِنْدَ الْحِفَازِ بَنُو عَمْرٍو بْنِ جَنْحُودٍ

ما تحته خط تصحيف، والصواب: «حُنْجُودٍ» بتقديم الحاء وتأخير الجيم، كما ورد في كتاب سيبويه^(٢٢) ونقلته عنه معاجم اللغة^(٢٣).

ص (٢٢٤) سطر (٣) قوله: «تعم» تحريف. والصواب: لتعم.

ص (٢٢٤) سطر (٣) قوله: «والثاني للمبالغة». تحريف، والصواب:

والتاء للمبالغة.

٦ - القصور في تخريج بعض الشواهد:

هناك قصور واضح في تخريج بعض الشواهد التي تكاد تكون أمثلة سائرة لشهرتها، وكثرة تداولها، فمن ذلك:

ص (٩١) سطر (٤) الشاهد: «إذ ما أتيت على الرسول...» البيت.

ذكر المحقق في الهامش رقم (١) أنه لم يعثر لهذا البيت على تكملة، وأنه لم يقف على قائله. وهذا عجب من العجب، فالبيت لعبّاس بن مرداس السلمى، وهو أحد

(٢٢) المرجع السابق ٣٧/٢.

(٢٣) لسان العرب، وتاج العروس مادة (حنجد).

شواهد سيبويه^(٢٤)، والمبرد^(٢٥)، وابن مالك (٦٧٢هـ)^(٢٦)، والخزانه^(٢٧)، وهو بتهامه:

إذ ما أتيت على الرسول فقل له حقاً عليك إذا اطمأن المجلس

ومن ذلك ص (٩٢) سطر (١) الشاهد:

وإني لراجيكم على بطء سعيكم كما في بطون الحاملات رجاء

ذكر المحقق في الهامش رقم (١) أنه لم يعثر على قائل لهذا البيت. والبيت

لمحرز بن المكعب الضبي^(٢٨).

ومن ذلك ص (١٦٣) سطر (٥) الشاهد:

حملت من عنانه الممتد

.....

ذكر المحقق في الهامش رقم (٤) أنه لم يعثر لهذا البيت على قائل. وكنا قد

أشرنا إلى التحريف في الكلمة الأولى من هذا الشطر. بقي أن نقول: إن هذا الشطر

هو صدر لبيت، وليس عجزاً كما يوهم إثبات المحقق له على هذا النحو. وهو

صدر بيت أورده صاحب الحماسة ضمن ثلاثة أبيات لقيصة بن النصراني

الجرمي، والبيت مع ما قبله وما بعده:

هاجرتي يا بنت آل سعد أن حلبت لِقحة للورد

جَهَلت من عنانه الممتد ونظري في عطفه الألد

(٢٤) الكتاب ٣/ ٥٧.

(٢٥) المقتضب ٢/ ٤٧.

(٢٦) شرح التسهيل ٤/ ٦٧.

(٢٧) خزانه الأدب ٩/ ٢٩.

(٢٨) الكامل في اللغة والأدب ١/ ١٠٨، وانظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ١٩٢، وشرح

ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٤٥٥.

إذا جِئاد الخيل جاءت تردّي مملوءة من غضبٍ وحرْدٍ^(٢٩)
 ومن ذلك ص (١٧٤) سطر (١-٢)، الشاهد:
 وأخذ من كلِّ حيٍّ بمعصم كأنَّ أيديهم بالقاع القرق
 هكذا أثبت المحقق هذين الشطرين من بيتين مختلفين، ولشاعرين مختلفين
 أيضاً وكأتهما بيت واحد نسبه في الهامش رقم (١) إلى رؤبة بن العجاج! وهذا من
 آفات التحقيق العلمي، فقلوله:

«وأخذ من كلِّ حيٍّ (بمعصم)»

هو عجز بيت للأعشى، وهو في ديوانه على النحو الآتي:

إلى المرء قيسٍ أطيل السرى وأخذ من كلِّ حيٍّ عُصم^(٣٠)
 وكما هو ظاهر من البيت فإنَّ قوله: «بمعصم» تحريف، والصواب: عُصم.
 ومن ذلك ص (٢٦١) سطر (٥) الشاهد: «وهنَّ عواقدُ حُبِّك النطاق».
 ذكر المحقق في الهامش رقم (٣) أنه لم يهتد إلى مصدر لهذا البيت! وهذا أيضاً
 عجب من العجب، فهذا صدر بيت مشهور، لشاعر مشهور أيضاً، هو أبو كبير
 الهذليّ. ويكفيه شهرة أن يكون أحد شواهد سيويه، وهو بتامه:
 مَّاحملن به وهنَّ عواقد حبك النطاق فعاش غير مُهَبَّل^(٣١)
 وهو أيضاً أحد شواهد الخزانة^(٣٢)، وهو موجود أيضاً في شرح ديوان
 الهذليين^(٣٣).

(٢٩) شرح ديوان الحماسة ١/ ٢٤٨ (أدين بهذا الشاهد لتلميذي وصديقي الدكتور ياسين أبو الهيجاء).

(٣٠) ديوان الأعشى ص ٧٣، وانظر سرّ صناعة الإعراب ٢/ ٤٧٧، ٦٧٦.

(٣١) الكتاب ١/ ١٠٩.

(٣٢) خزنة الأدب، ٨/ ١٩٢.

(٣٣) شرح أشعار الهذليين، ٣/ ١٠٧٢.

٧- المآخذ اللغوية والنحوية

وقبل الشروع في عرض هذه المآخذ يحسن بنا أن نقدم المعايير التي وضعها النحاة لتحديد نوع (ما) في القرآن الكريم خاصة، وكلام العرب عامّة، وهي^(٣٤):

- ١ - كلّ (ما) تقع قبل «ليس» أو «لم» أو «لا» أو بعد (إلا) فهي موصولة.
- ٢ - كلّ (ما) تقع بعد كاف التشبيه فهي مصدرية.
- ٣ - و(ما) الواقعة بعد الباء، محتملة للموصولة والمصدرية.
- ٤ - وكلّ (ما) وقعت بعد فعلين، سابقتها علم أو دراية أو نظر، فهي محتملة للموصولة والاستفهامية.
- ٥ - وكلّ (ما) وقعت قبل (إلا) فهي نافية إلا في ثلاثة عشر موضعا^(٣٥).

ونعرض فيما يأتي لأهمّ هذه المآخذ

ص (٢١) سطر (٤): **عَدَّ الْمُؤَلَّفَ (ما) في قوله تعالى: ﴿مَمَّا تُنِيتُ الْأَرْضُ﴾** مصدرية. وقد أنكر العكبري (٦١٦هـ) ذلك؛ لأنّ المفعول المقدر لا يوصف بالإنبات؛ لأنّ الإنبات مصدر، والمحدوف جوهر، ولذا عدّها موصولة، أو نكرة موصوفة^(٣٦).

ص (٢٢) سطر (٣): **﴿مَا عَقَلُوهُ﴾** عدّها المؤلف موصولة، وقد استبعد فيها ذلك، والأصح أنّها مصدرية^(٣٧).

ص (٣٤) سطر (١): **﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُّ الْبَيِّنَاتُ﴾** عدّها المؤلف موصولة،

(٣٤) البرهان في علوم القرآن، ٤/ ٤٠١، وانظر: الإتيان في علوم القرآن ٤/ ٢٤٤، والكليات ص ٨٣٣

(٣٥) البرهان في علوم القرآن ٤/ ٤٠٦ - ٤٠٧، وانظر: الإتيان في علوم القرآن ٢/ ٢٤٥،

والكليات ص ٨٣٣.

(٣٦) التبيان ١/ ٦٨.

(٣٧) المرجع السابق ١/ ٨٢.

بمعنى (الذي). والصحيح أنّها ههنا مصدرية^(٣٨).

ص (٣٧) سطر (٤): ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ عَدَّ الْمُؤَلِّفَ (ما) ههنا - شأنه في ذلك شأن أغلب النحويين - نكرة غير موصوفة، تعرب تمييزاً. وهذا هو ما ذهب إليه قديماً كلٌّ من الأخفش^(٣٩)، وأبي علي الفارسي في أحد قوليه^(٤٠). وذهب بعضهم إلى أنّها كافة، هيأت «نعم» للدخول على الجمل^(٤١). ويضعف هذا الرأي تكلف إضمار مبتدأ^(٤٢). وذهب الفراء^(٤٣)، وأبو علي الفارسي في أحد قوليه إلى أنّها موصولة بمعنى الذي^(٤٤). ويضعف هذا القول قلة وقوع (الذي) فاعلاً صريحاً لـ «نعم وبئس»، هذا إضافة إلى تكلف حذف الصلة بأجمعها؛ لأنّ «هي» المخصوص بالمدح^(٤٥).

والأفضل فيها - من وجهة نظرنا - أن تكون معرفة تامة، تقدّر بـ «الشيء»؛ وتكون فاعلاً؛ أي: فنعم الشيء هي؛ ذلك أن إعرابها تمييزاً يتناقض والغرض الذي يؤتى بالتمييز من أجله؛ لأنّه إنّما يؤتى به لتعيين جنس المميّز، و(ما) في هذه الآية مساوية للمضمّر في الإبهام^(٤٦)، بل هي في غاية الإبهام، وعليه، فلا تكون تمييزاً؛ لأنّ المبهّم يحتاج إلى ما يبيّنه، فلا يكون مبيّناً لغيره؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه. وكون (ما) في هذه الآية معرفة تامة هو الذي عليه إماما العربيّة: سيبويه،

(٣٨) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (القسم الأول، ج ٣)، ص ٢٩.

(٣٩) معاني القرآن (الأخفش)، ١/ ١٣٩.

(٤٠) الحجة، ٢/ ٣٩٩.

(٤١) شرح الكافية ٤/ ٢٤٩.

(٤٢) المرجع السابق ٤/ ٢٥٠.

(٤٣) معاني القرآن (الفراء) ١/ ٥٦-٥٧، وانظر شرح الكافية ٤/ ٢٥٠.

(٤٤) البغداديات ص ٢٥١، وانظر شرح الكافية ٤/ ٢٥٠.

(٤٥) شرح الكافية ٤/ ٢٥٠.

(٤٦) شرح التسهيل ٣/ ١٣.

والكسائي^(٤٧)، فهي عندهما اسم تامّ مكّنّى به عن اسم معرّف بالألف واللام الجنسية، يكون تقديره في: ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾: فنعم الشيء إبداءها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصارت في التقدير: فنعم الشيء هي.

وأكثر النحويين - على حسب ما قدّمنا - لا يثبت مجيء (ما) معرفة تامّة؛ نظراً إلى أنّ مجيء (ما) بمعنى «الشيء» في غير هذا الموضع غير معهود^(٤٨). ولكن يكفي للتدليل على كونها معرفة، وعلى ورودها في غير هذا الموضع، قول سيبويه: «ونظير جعلهم (ما) وحدها اسماً، قول العرب: إني مما أن أصنع، أي من الأمر أن أصنع، فجعل (ما) وحدها اسماً، ومثل ذلك: غسلته غسلًا نعمًا: أي نعم الغسل»^(٤٩). وحكى الفراء عن الكسائي أنّه قال: «أرادت العرب أن تجعل (ما) بمنزلة الرجل حرفاً تامّاً»^(٥٠).

ومما يقوّي القول بأنّ (ما) ههنا معرفة لا نكرة، هو كثرة الاقتصار عليها في نحو: «غسلته غسلًا نعمًا، ودقّته دقّاً نعمًا؛ إذ النكرة التالية «نعم» لا يقتصر عليها إلا في نادر من القول^(٥١). ومما يقوّي القول بتعريف (ما) أيضاً في نحو قولهم: «إني ممّا أن أصنع»، كونها مجرورة بحرف مخبر به، وما كان كذلك لا يكون - بالاستقراء - إلا معرفة، أو نكرة موصوفة، و(ما) المذكورة ههنا ليست نكرة موصوفة، فيتعيّن إذن كونها معرفة، وإلا لزم ثبوت ما لا نظير له في كلامهم^(٥٢).

(٤٧) المرجع السابق، في المكان نفسه، وشرح الكافية ٤/ ٢٥٠.

(٤٨) شرح الكافية ٤/ ٢٥٠، ومغني اللبيب ١/ ٣٩١.

(٤٩) الكتاب ١/ ٧٣، ٣/ ١٥٦.

(٥٠) شرح التسهيل ٣/ ١٣.

(٥١) المرجع السابق في المكان نفسه.

(٥٢) المرجع السابق في المكان نفسه.

ص (٤٣) سطر (٩-١٠) قوله: «كأنه سأله عنه فأجابه بأنه بمعنى الذي». يقصد بذلك: (ما) في «لما» بقراءة الفتح في قوله تعالى: ﴿لَمَاءَ آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ﴾ [آل عمران: ٨١]. إنَّ عدَّ المؤلف لـ: (ما) ههنا موصولة بناء على ظاهر كلام سيبويه، خطأ مبني على سوء فهم لمقصد الخليل (١٧٥هـ) وسيبويه؛ ذلك أنَّ (ما) عندهما شرطية وليست موصولة، قال أبو علي الفارسي: «والقول فيما قاله [يقصد الخليل] من أنَّ «لما» بمنزلة الذي، أنه أراد أنه اسم كما أنَّ (الذي) اسم، وليس بحرف... فهذا المعنى أرادَه بقوله: إنَّه بمنزلة (الذي)، ولم يرد أنَّها موصولة كالذي. وإنَّما لم يحمله سيبويه على أنَّ (ما) موصولة بمنزلة الذي؛ لأنَّه لو حمله على ذلك، للزم أنَّ يكون في الجملة المعطوفة على الصلة وهي: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ ذَكَرَ يعود إلى الموصول، فلما لم ير ذلك مظهراً، ولم ير أنَّ يضع المظهر موضع المضمَر، كما يراه أبو الحسن، عدل عن القول بأنَّ (ما) موصولة، إلى أنَّها للجزاء»^(٥٣). وقد ذهب الزجاج إلى أنَّ الجزء أجود الوجهين فيها^(٥٤).

ص (٥٢) سطر (٧) قوله: «الشيوخ الثلاثة». ذكر المحقق في الهامش رقم (٢) أنَّ المقصود بالشيوخ الثلاثة: المبرد والجرمي (٢٢٥هـ) وأبو علي الفارسي. وهذا غير دقيق، والصحيح أنَّ الثلاثة هم: الفراء والجرمي والمبرد، فهؤلاء هم الذين ذهبوا إلى أنَّ «أنَّ» الثانية في قوله تعالى: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] توكيد^(٥٥). قال الفراء: «أعيدت أنكم مرتين ومعناها واحد، إلا أنَّ ذلك حسن لما فرقت بين أنكم وبين خبرها بـ: إذا»^(٥٦)، وقال المبرد:

(٥٣) الحجة، ٣/٦٦.

(٥٤) معاني القرآن وإعرابه، ١/٤٣٦.

(٥٥) البحر المحيط، ٦/٣٧٤.

(٥٦) الفراء، معاني القرآن، ٢/٢٣٤.

«... فكررت الثانية توكيداً، ولست تريد بها إلا ما أردت بالأولى، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾. فهذا أحسن الأقاويل عندي في هذه الآية»^(٥٧) أما سيبويه فنصّ على بدليتها بقوله: «ومما جاء مبدلاً من هذا الباب: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾. فكانه على: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متتم»^(٥٨).

وأما أبو علي الفارسي، فقد كان تابعاً فيها لغيره، إذ اقتصر عمله على عرض مختلف وجهات نظر النحاة بشأنها، مبيناً أدلة كل فريق، غير أن تقديمه لرأي سيبويه يوحى بأنه يرى فيها رأيه^(٥٩).

ص (٥٣) سطر (٣) قوله: «وجوز أبو إسحاق أن يكون موصولاً إذا رفع «أجوركم» على أن يكون خبر إن». يقصد بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تَوْفُونُكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وهذا الكلام غير صحيح؛ فالزجاج لا يميز كونها موصولة على هذا الوجه، قال بهذا الخصوص: «ولا يجوز «أجوركم» على رفع الأجور، وجعل (ما) في معنى (الذي)؛ لأن «يوم القيامة» يصير من صلة «توفون»، و«توفون» من صلة (ما)، فلا يأتي ما في الصلة بعد «أجوركم» و«أجوركم» خبر»^(٦٠).
ص (٥٩) سطر (٢) قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ عدّها مصدرية والصحيح أنها موصولة.

ص (٦١) سطر (١) قوله: ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾. عدّ المؤلف (ما) ههنا مصدرية. وهذا خطأ، والصواب: موصولة.

(٥٧) المقتضب، ٢/٣٥٦.

(٥٨) الكتاب، ٣/١٣٢.

(٥٩) المسائل البصريات، ١/٦٦٨. وانظر: المسائل المنشورة ص ١٩٢-١٩٣.

(٦٠) معاني القرآن وإعرابه، ١/٤٩٥.

ص (٨٤) س (٣) قوله بصدد (ما) في قوله تعالى: ﴿أَتَلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]: «ويجوز أن يكون (ما) استفهاماً منصوباً بـ حرم مقدم عليه».

ههنا مأخذان:

الأوّل: قوله «مقدم» خطأ. والصواب: مقدماً.

والآخر: تجويزه لـ (ما) أن تكون استفهاماً في هذه الآية، يضعفه أن ذلك يقتضي تعليق الفعل «أتل» عن العمل، وتعليق هذا الفعل ضعيف؛ نظراً إلى أنه ليس من أفعال القلوب، فلا يعلّق^(٦١).

ص (٨٦) سطر (٩) قوله بصدد (ما) في قوله تعالى: ﴿أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾. إنها صلة، أي زائدة. وهذا غير صحيح؛ لأنه مخالف للمعنى، ومعروف أن الإعراب فرع المعنى، فإذا عارض الإعراب المعنى تمسكنا بعروة المعنى ووجهنا الإعراب وجهة تكون في ركابه، ما لم يمنع من ذلك مانع. والسؤال في الآية هو عن معبوداتهم، أو الشركاء الذين كانوا يدعونهم من دون الله، والقول بزيادة (ما) سيؤدّي إلى السؤال عن المكان، لا عن المعبودات والشركاء، ولا معنى لسؤال كهذا، يؤكّد ذلك قوله تعالى بعد: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي ذهبوا عنّا، أو هلكوا واضمحلّوا^(٦٢). وهذا لا يصحّ في حقّ الأمكنة، وإنّما هو للذوات والأشياء. وعليه، فهي هنا اسم موصول، يعرب مبتدأ مؤخرأ، وشبه الجملة قبله يعرب خبراً مقدّماً.

(٦١) البحر المحيط، ٤/ ٢٥٠.

(٦٢) انظر: جامع البيان ٨/ ٢٠٤، والكشاف ٢/ ٧٧، والتفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب

١٤/ ٦٠، والبحر المحيط ٤/ ٢٩٧.

ص (٨٧) سطر (٦) قوله: «وقول من قال: إن التقدير: أيعدكم بأنكم»، فحذفت الباء غلط؛ لأنه يتعدى بنفسه».

يقصد المؤلف بذلك الزجاج. وفي الواقع أن الزجاج لم يغلط؛ ذلك أن الفعل «وعد» من الأفعال التي يجوز فيها أن تتعدى إلى اثنين مباشرة تارةً، وإلى واحد مباشرة، وإلى آخر بالباء تارةً أخرى. قال ابن القطاع (٥١٥هـ): «وعدته خيراً وشرّاً أو بخيرٍ وشرّاً»^(٦٣). وجاء في لسان العرب: «وعدّه الأمر وبه»^(٦٤). وتحضرنا في هذا المقام قصة عزة صاحبة كثير، مع أم البنين، زوج عبد الملك بن مروان، حين قالت لها: أخبريني عن قول كثير:

قضى كل ذي دين فوقى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها
ما هذا الدين الذي طلبك به؟ قالت: وعدته بقبلة...»^(٦٥).

ص (٩١) سطر (١٠) قوله عن (ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَا هُمۡ ءِلهٖ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بأنها موصولة. والأرجح فيها أن تكون مصدرية، أو كافة^(٦٦)؛ لأن عدّها موصولة سيضطرنا إلى تقدير عائد، أي: كالذي هو لهم، ومعروف أن الأصل عدم التقدير، هذا فضلاً على أنهم قد نصّوا على أن كل (ما) تقع بعد كاف التشبيه مصدرية^(٦٧).

ص (٩٢) سطر (٩) أعرب المؤلف كلمة (إله) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ﴾ بدلاً من الضمير في الظرف: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ والتقدير عنده:

(٦٣) الأفعال، ٣/ ٢٩٦.

(٦٤) لسان العرب (وعد).

(٦٥) العقد الفريد، ٧/ ١٥٤.

(٦٦) التبيان ١/ ٥٩٢.

(٦٧) الكليات ص ٨٣٣، والبرهان في علوم القرآن ٤/ ٤٠١، والالتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٤٤.

وهو الذي في السماء هو. وقد استُبعد هذا التخريج. قال ابن هشام: «ولا يحسن تقدير الظرف صلة، و«إله» بدلاً من الضمير المستتر فيه، وتقدير ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ معطوفاً كذلك لتضمّنه الإبدال من ضمير العائد مرتين، وفيه بُعد، حتّى قيل بامتناعه؛ ولأنّ الحمل على الوجه البعيد ينبغي أن يكون سببه التخلّص به من محذور، فأما أن يكون هو موقفاً فيما يجوز إلى تأويلين فلا»^(٦٨).

ص (١٠٣) سطر (٦) جاء في هذا الموضع قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ من الآية ٥٤ نفي و[كان] ويجوز أن يكون استفهاماً. ذكر المحقق في الهامش رقم (٤) أنّ ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها النصّ. وفي الواقع أنّها زيادة تفسد النص، وتسيء إليه أيما إساءة، ولا أدري كيف استساغ زيادتها ههنا؛ فلا معنى البتة لوجودها؛ إذ يتحدّث المؤلّف عن (ما) في هذه الآية، ويحكم عليها بأنّها نفي، ويجوز أن تكون استفهاماً. فالكلام مستقيم دون «كان»، فزيادتها إذن خطأ واضح.

ص (١٠٣) سطر (٧) قوله: «فإذا كان نفيّاً منع فعلاً منفيّاً». هذا الضبط على هذا النحو غير صحيح. والصحيح هو: فإذا كان نفيّاً ف: «منع» فعلٌ منفيّ.

ص (١٠٧) سطر (٣) قوله: «أن يكون للتخيير بمنزلة أو»، يقصد بذلك «إمّا» في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]. وهذا غير صحيح؛ نظراً إلى أنّ «إمّا» إذا كانت للتخيير، وجاء بعدها الفعل، فلا بدّ من وجود «أن» قبل الفعل^(٦٩)، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]، وإذا لم ترد «أن» بعدها فليست للتخيير. وعليه،

(٦٨) مغني اللبيب ٢/٤٨٥.

(٦٩) ارتشاف الضرب، ٢/٩٩٦، وانظر: التبيان، ٢/٦٥١.

فالصحيح أنّ «إمّا» ههنا للإبهام^(٧٠).

ص (١٠٧) سطر (٧) قوله: «ومنها أن يضم إليها ما»، يقصد المؤلف بذلك كلمة: «إمّا». وقد علق المحقق في الهامش رقم (٣) بقوله: يوجد في المخطوط قبل هذه العبارة «أن يكون» قال: ولا معنى لها. والصحيح أن تركها قد أخلّ بالنص كثيراً، وأصبح النص من دونها لا معنى له؛ ذلك أنّ المؤلف ذكر أنّ «إمّا» تجيء في التنزيل على غير وجه:

منها: أن يكون للتخيير.... (سطر ٣)، ثم ذكر الوجه الآخر، فقال:

ومنها: «أن» يضم إليها (ما)، نحو: «فإمّا ترين» (سطر ٧).

وهذا الوجه الأخير الذي أثبتته المحقق على هذا النحو، غاية في الخلل والاضطراب، بحيث أفسد النص كثيراً، فقد ضبط الحرف «أن» بالفتح، الصواب «إن»، لأن المؤلف يقصد «إن» الشرطية، ثم لا بدّ من إضافة عبارة: «أن يكون» لتصبح الجملة على النحو الآتي:

ومنها: أن يكون «إن» يضم إليها (ما)، واسم «يكون» ضمير يعود على

«إمّا»؛ أي إنّ الوجه الآخر لـ «إمّا»، أن تكون «إن» الشرطية، ضمت إليها (ما) الزائدة، كما هو في «إمّا» من قوله تعالى: ﴿فإمّا ترين...﴾.

ص (١١٢) سطر (١) قوله: «وزعم فارسهم أن هذا يجوز في الضرورة»

يقصد بذلك حذف الضمير العائد من الخبر الفعلي إلى المبتدأ. ذكر المحقق في الهامش أنّ المقصود بفارسهم. هو أبو علي الفارسي اتباعاً منه لإبراهيم الأبياري محقق كتاب إعراب القرآن^(٧١). وهذا مردود؛ لأنّ سيويه نصّ على ذلك قبل

(٧٠) مغني اللبيب، ١/ ٧٢.

(٧١) الزجاج، إعراب القرآن، ٣/ ١٠٩٧.

أبي عليّ، قال في الكتاب: «ولا يحسن في الكلام أن يجعل الفعل مبنياً على الاسم، ولا يذكر علامة إضمار الأول... وهو ضعيف في الكلام، قال الشاعر وهو أبو النجم العجلي:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي عليّ ذنباً كلّه لم أصنع
فهذا ضعيف، وهو بمنزلة في غير الشعر؛ لأنّ النصب لا يكسر البيت،
ولا يخلّ به ترك إظهار الهاء»^(٧٢).

ص (١٢١) سطر (٨) قوله: «والأحسن فيما قيل، ما ذهب إليه فارسهم من أنّ قوله «لما» هي «لما» من قوله «أكلماً» والألف للتأنيث». كلام المؤلف هذا دليل آخر على أنّ المقصود بفارسهم ليس أبا عليّ الفارسي، وذلك أنّ هذا القول هو لأبي عبيد القاسم ابن سلام (٢٢٤هـ)^(٧٣)، وأبو عبيد كما ذكر أبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ) كان ناقص العلم بالإعراب^(٧٤). هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ أبا عليّ الفارسي لم يعتمد هذا الوجه بل لم يعرض له البتة في كتابه «الحجّة»، وإنّما وصف القراءة بتشديد «لما» بأنّها مشكلة^(٧٥).

وتطرّق إليها أبو عليّ أيضاً في كتابه: «البغداديات»، وشكّك في هذه القراءة؛ لأنّه لم ير للتثقيب في «لما» وجهاً مقبولاً، قائلاً: «فالوجه فيه التخفيف ولا مساغ له غيره في العربية»^(٧٦).

ثم إنّ ما وصفه مؤلف الكتاب، بأنّه أحسن ما قيل في هذه الآية، هو في

(٧٢) الكتاب، ١/٨٥، ١٢٧.

(٧٣) النحاس، إعراب القرآن، ٢/٣٠٦، وانظر: البحر المحيط، ٥/٢٦٧.

(٧٤) مراتب النحويين، ص ١٤٨.

(٧٥) الحجّة، ٤/٣٨٦ - ٣٨٧.

(٧٦) البغداديات، ص ٣٩١.

الواقع أضعف الوجوه فيها، ولذلك استبعده المحققون؛ قال أبو حيان: «وما قاله أبو عبيد بعيد؛ إذ لا يعرف بناء «فَعَلَى» من اللّم، ولما يلزم لمن أَمال «فَعَلَى» أن يميلها، ولم يملها أحد بالإجماع، ومن كتابتها بالياء ولم تكتب بها»^(٧٧).

ص (١٣١-١٣٢) قوله: ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الرعد: ٣٧]، نفسي، والمعنى: ليس الله واقياً وولياً. هذا المعنى يذكر مرة بـ(من) وأخرى بـ«الباء»، قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾... أي عذاب من جهنم. أما ما لَكَ أبٌ قبلاً به أب...».

هذا النص على هذا النحو دليل واضح على عدم فهم المحقق لمقصد المؤلف؛ فقد زاد ههنا حرف الجر (من) بين عذاب وجهنم، وقال في الهامش رقم (١): إن هذه زيادة يقتضيها النص! وفي الحقيقة إنَّها زيادة تسيء إلى النص، وتفسده، إذ لا معنى لزيادتها، ولكنَّ المحقق كان - على ما يبدو - في واد، والمؤلف في واد آخر؛ ذلك أنَّ ما قصده المؤلف بقوله: «هذا المعنى يذكر مرة بمن وأخرى بالباء»، هو «التجريد». والتجريد هو أن ينتزع من أمر ذي صفة، أمر آخر مثله، فيها مبالغة لكمالها فيه^(٧٨)، قال ابن جنِّي: «ومعنى التجريد أنَّ العرب قد تعتقد أنَّ في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنَّه حقيقته ومحصوله»^(٧٩). فعندما نقول: «لك من الله وليٌّ» فمعنى ذلك: أن الله وليٌّ لك. جرّدنا من الله وليّاً مبالغة لكمال هذه الصفة فيه سبحانه، وإذا نفينا ذلك قلنا: ليس الله وليك، ومن هنا فسر المؤلف قوله تعالى بقوله: ليس الله واقياً وولياً.

(٧٧) البحر المحيط، ٥/٢٦٧، وانظر: مغني اللبيب، ١/٣١٢.

(٧٨) المطول، ص ٤٣٢، وانظر: الكلبيات، ص ٢٧٣.

(٧٩) الخصائص ٢/٤٧٣.

ولكن يُؤخذ على المؤلف، أنه قصر التجريد على حرفي الجر: (من) والباء،
والصحيح أنه يكون بحرف الجر «في»^(٨٠) أيضاً، وعليه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ
الْخُلْدِ﴾ جرد من جهنم داراً لهم، أي في جهنم دار الخلد. ومنه أيضاً قوله:
أفءات بنو مروان ظلماً دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل^(٨١)
أي في عدل الله حكم عدل.

للبحث صلة

* * *

(٨٠) المطول، ص ٤٣٣، وانظر: الكلبيات، ص ٢٧٤.

(٨١) الخصائص ٢ / ٤٧٥.

اللغة العربية والمسلمون

عوامل انتشارها ورسوخها - آثارها

أ.د. حسين محمد حسين البطينة(*)

ملخص البحث:

كانت اللغة العربية وما زالت من أكثر لغات التواصل البشري تداولاً لما لها من خصائص فاقت بها غيرها من اللغات البشرية، فضلاً على التشريف الإلهي لها بتنزيل القرآن الكريم بها، فقال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وهذا التشريف زاد اللغة العربية مكانة ورفعة بين العرب الناطقين بها أصلاً، وبين المسلمين من غير العرب الذي وجدوا في اللغة العربية ما لم يجدوه في لغاتهم من مرونة وقدرة على التعبير، إضافة إلى قداسة اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم ولغة سنة نبيّه من بُعث للناس كافة. ونظراً لهذه المكانة المرموقة للغة العربية وفضلها على المسلمين من غير العرب، خضتُ باحثاً في هذا المضمار فتناولت في هذا البحث العوامل التي مكّنت للغة العربية عند الشعوب غير العربية التي اعتنقت الإسلام، ورسّخت هذه اللغة في حضارات هذه الشعوب، وأثّر اللغة العربية في لغات هذا الشعوب ونتائجهم

(*) أستاذ في جامعة البلقاء التطبيقية بالأردن.

الحضاري مُدعماً ما توصلت إليه بشهادات الباحثين الذين اتصفوا بموضوعيتهم فكان لهم أثر لا ينكر في الحضارة العربية نفسها.

Arabic Language and Muslims throughout the World: Factors of Popularity, Establishment and Influence

Abstract

Arabic has been one of the most widely used languages in human communication not only because of its aspects surpassing those of other languages, but due to the Divine honor as the language of Holy Koran as Allah said ,”We made it an Arabic Koran that perhaps you will understand (alzukhruf , ٣) This honor has enhanced and elevated the Arabic language status among the Arabs , its native speakers after all and among non-Arab Muslims, who found Arabic flexibility and potency of expression that their languages lack in addition to the holiness of Arabic as the language of the Koran and the Sunnah of the Prophet who is sent as Messengers for human beings. Due to the distinguished status of Arabic and its values for non-Arab Muslims, I addressed in this study not only the factors enhancing the usage of Arabic language by non-Arab peoples who embraced Islam and establishing. this language in the civilizations of these peoples, but also the impact of the Arabic language on their languages besides their cultural production , supporting my findings with the testimonies of objective researchers who had incontrovertible impact on the Arab civilization itself.

مقدمة البحث:

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين، وجعله قبلة للعرب والعجم من المسلمين، يتدبرون آياته وينهلون من منهله المعين، وحَفِظْهُ بحَفِظْهُ إلى يوم

الدين، فقال جلّ في علاه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فكان حفظه لكتابه حفظاً لحدوده وحروفه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وبعد:

فقد كانت علوم اللغة العربية من أبرز ميادين البحث عند الشعوب المسلمة من غير العرب، بوصفها أداة لتعلم علوم الشريعة الإسلامية، التي اعتنقوها بعد الفتوحات الإسلامية لبلادهم نتيجة ما عايشه تجار الشرق الأقصى من أخلاق التجار المسلمين من العرب، فكانت أحد عوامل انتشار الإسلام ولغته العربية في بلادهم. قال بروكلمان^(١): «بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا، المسلمون جميعاً يؤمنون بأنّ العربية هي وحدها اللسان الذي أُحِلَّ لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمانٍ طويلٍ مكانةً رفيعةً فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى».

ولذلك كان هناك الكثير من العوامل التي رسّخت اللغة العربية في حضارات هذه الشعوب، كما أن هناك الكثير من الآثار التي تركتها اللغة العربية في لغات وحضارات المسلمين من غير العرب.

المبحث الأول

عوامل انتشار ورسوخ اللغة العربية

عند المسلمين من غير العرب

أثرت عدة عوامل في انتشار وترسيخ اللغة العربية بين المسلمين من غير العرب، ومعظم هذه العوامل يعود إلى دوافع دينية نتيجة اعتناق هذه الشعوب

(١) الجندي، أنور، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص ٣٠٣.

لعقيدة لغتها اللغة العربية، يقول ابن خلدون معللاً انتشار اللغة العربية^(٢): «كما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان له لسانُ القائمين بالدولة الإسلامية عربياً، هُجِرَتْ كُلُّهَا في جميع ممالكها، فصار استعمال العربية من شعائر الإسلام وطاعة العرب وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغةً في جميع أمصارهم، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلةً فيها وغريبةً».

إلا أن اللغة العربية من منظور ديني تختلف عن اللغة اللاتينية كما يرى أنور الجندي^(٣): «واللغة العربية بذلك ليست دينية بالمعنى الذي تعتبر به اللاتينية لغة دينية، ولكن بمعنى يختلف عن ذلك كثيراً، ذلك أن العربية هي الرباط الذي يربط العرب كافة والمسلمين كأصحاب فكر واحد، ولقد تأكد أن العلم بالعربية عند المسلمين كالعلم بالسُّنن عند أهل الفقه».

وذهب أبو منصور الثعالبي إلى أن المعرفة باللغة العربية من الدين فقال^(٤): «إِنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ أَحَبَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ أَحَبَّ الْعَرَبَ، وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي بَهَا نَزَلَتْ أَفْضَلُ الْكُتُبِ عَلَى أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ عُنِيَ بِهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا، وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيْمَانِ، وَآتَاهُ حُسْنَ سَرِيرَةٍ فِيهِ اعْتَقَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَيْرَ الرُّسُلِ، وَالْإِسْلَامَ خَيْرَ الْمَلَلِ، وَالْعَرَبَ خَيْرَ الْأُمَمِ، وَالْعَرَبِيَّةَ خَيْرَ اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى تَفْهَمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ؛ إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ وَمِفْتَاحُ

(٢) السابق ص ٤٧.

(٣) السابق ص ٦٧.

(٤) الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي،

التَّفَقُّه في الدينِ وسببُ إصلاحِ المعاشِ والمعادِ، ثمَّ هيَ لإحرازِ الفضائلِ والاحتواءِ على المروءةِ وسائرِ أنواعِ المناقبِ كالينبوعِ للماءِ والزندِ للنارِ». ويرى الجنديُّ أنَّ العاملَ الدينيَّ كان أقوى العواملِ في نشرِ وترسيخِ اللغةِ العربيةِ عند غير العربِ من المسلمين. يقول^(٥): «ومع وجود هذه اللغات - يقصد لغات غير العرب من المسلمين - فقد كانت اللغة العربية هي لغة المعاملات الدينية ولغة العلم والشريعة، وقد اشترك أبناء هذه الأمم جميعاً في الكتابة بها حتى فاق بعضهم كُتَّاب العرب وعلماهم، ويرجع ذلك إلى:

١ - حقيقة التَّلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية.

٢ - نزول القرآن باللغة العربية.

٣ - الحقيقة القائمة في نفس كلِّ مسلمٍ وعقلِهِ، عربيًّا كان أو غيرَ عربيٍّ، أنَّ القرآن كلام الله وأنَّ على المسلم أن يتعلم لغة القرآن ليفهمه».

وقد ذكر عبد الرحمن أحمد البوريني^(٦) عدة أسباب لاحتكاك الشعوب الذي يؤدِّي إلى تأثير لغة في أخرى، يقول: «يؤثِّر احتكاكُ الشعوب وتعايشها معاً في اللغات التي تتكلَّمها، فتسرَّبُ الكلماتُ من لغة إلى أخرى، ويتناسبُ حجم ما يتسرَّبُ من لغةٍ إلى لغةٍ غيرها من اللغات تناسباً طرديًّا مع تأثير الشعب الذي يتكلَّم تلك اللغة في غيره من الشعوب التي تتعايش معه. الحروبُ والغزوات التي تنتهي دائماً بانتصار طرفٍ على طرفٍ وخضوعِ المهزومِ للمتصر هي من أكبر الأسباب لاحتكاك اللغات وامتزاجها ونشوء لغات جديدة تكون خليطاً من لغات الأقاليم التي تعيش معاً إثر اكتساح الجيوش

(٥) الجندي ص ٦٦-٦٧.

(٦) البوريني، عبد الرحمن أحمد، اللغة العربية أصل اللغات كلِّها، دار الحسن للنشر والتوزيع، ط ١،

١٩٩٨، ص ٦٢-٦٣.

لحدود دولٍ أخرى، وتتعدد أسباب احتكاك الشعوب التي تؤدّي بدورها إلى احتكاك اللغات وتسريب الكلمات فيما بينها، إضافة إلى الاكتساح والاحتلال بالحرب هناك الهجرة والتجارة والترجمة وانتشار الدين».

فالأسباب السابقة أدت إلى الاحتكاك الذي يولد تأثير اللغة العربية في لغات المسلمين من غير العرب، إلا أن تأثير اللغة العربية في لغاتهم كان أكبر من تأثير لغاتهم في اللغة العربية نتيجة القداسة التي اكتسبتها لغة الدين الإسلامي وصارت لغة الإسلام.

ويبقى العامل الديني أبرز هذه العوامل، يقول البوريني^(٧): «ولانتشار الدين تأثيراً في احتكاك اللغات لا يستهان به، فلغات الشعوب المسلمة في جنوب شرق آسيا تحتوي على كلمات عربيّة تسرّبت إليها لحاجة أولئك المسلمين الدنيّة لها، ولم يكن انتشار الإسلام في تلك المنطقة بسبب الحروب». ومن المعلوم أنّ اللغة بوجه عامّ تقوم بمجموعة من الوظائف الإنسانيّة، وهذه الوظائف تؤثر تأثيراً كبيراً في انتشار لغة ما بين من يستعملها، وكلّما ازداد مستعملو هذه اللغة ازدادت اللغة انتشاراً ورسوخاً، فمن هذه الوظائف التي ساهمت في انتشار ورسوخ اللغة العربية عند غير المسلمين، إقامة الشعائر الدينية والأوراد والأدعية، يقول نايف خرما^(٨): «ففي هذه الحالة تكون وظيفة اللغة الأساسيّة هي إقامة أو متابعة الاتصال بالخالق، كما تكون لها وظيفة فرعية هي تمتين أوامر الصلّة بين أبناء ذلك المجتمع الذي يدين بدين معيّن».

ولعلّ موسم الحج السنويّ المتواتر خير شاهد على أثر الشعائر الدنيّة في

(٧) البوريني ص ٦٣.

(٨) خرما، نايف، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، مجلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨،

ترسيخ اللغة العربية عند غير العرب من المسلمين، ففيه يجتمع ملايين المسلمين سنوياً لأداء فريضة الحج من جميع شعوب العالم ناطقين بلغة القرآن الكريم مؤدّين بها جميع مناسكه وأدعيته وأوراده.

ومن العوامل التي ساهمت في ترسيخ اللغة العربية أيضاً المناسبات الرسمية والمعاملات اليومية، كالمحاكمات والبيع والشراء والزواج والطلاق وغيرها من المعاملات اليومية، ولا سيّما التي تستعمل اللغة العربية، فعامل التجارة بين العرب وشرقي آسيا كان من أبرز العوامل في دخول شعوب هذه المناطق الإسلام وترسيخ اللغة العربية عندهم، يقول البوريني^(٩): «ودور التبادل التجاري فيما بين الأمم دورٌ مشهودٌ في انتقال الكلمات بين اللغات، فقد شهدت منطقة الجزيرة والهلال الخصيب قديماً اختلاطاً في كثيرٍ من الكلام بسبب كون المنطقة حلقة وصلٍ للتجارة بين الشرق والغرب، فقد دخل العربية كلماتٌ من الفارسيّة واليونانيّة والسريانية، لكنها تظل كلمات تعني مصنوعات أو أدوات مستحدثة أو أنواعاً من المأكولات والمشروبات».

إلا أنّ أثر اللغة العربية في هذه اللغات كان أكبر بكثير مما دخل العربية من لغات هذه الشعوب.

ومن العوامل أيضاً القرارات والأوامر الصادرة عن الوالي أو الحاكم أو القائد لإدارة البلاد والاستجابة لشؤون الرعية والسيطرة على أمورها وقيادة جيوش الفتوحات، فجميعها صادرة باللغة العربية وخاصّة بعد تعريب الدواوين في عهد الأمويين، يقول نايف خرما^(١٠): «وللغة وظيفة أخرى نحاول عن طريقها

(٩) البوريني ص ٦٣.

(١٠) السابق ص ١٧٤.

السيطرة على محيطنا سيطرةً دائمةً ومنظمةً، هي إصدارُ الأوامرِ والتَّحكُّمِ في تصرُّفات الآخرين أو السيطرة على أشياء أخرى في البيئة المحيطة بنا».

فقد استطاعت اللغة العربية، بوصفها لغة القرآن والثقافة والعلم والفكر والبيان، أن تستقطبَ عدداً كبيراً من أعلام المسلمين من غير العرب، فعملوا في محيطها وكتبوا آثارها بها، فكانوا من أبرز أعلامها كسيبويه والفارابي والفيروز آبادي والزمخشري الذي قال^(١١): «اللهُ أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية لهم، وأبى لي أن أنفردَ عن صميم أنصارهم وأمتازَ، وأنضويَ إلى لفيف الشعوبِ وأنحازَ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يُجدِّ عليهم إلا الرِّشَقَ بالسنة اللاعنين والمشقَّ بأسنة الطاعنين».

ولعلَّ حيوية اللغة العربية واتساعها وقدرتها على الاشتقاق والتعبير الدقيق جعلتها رائدة في حفظ تاريخ الأمم والشعوب سواء المسلمة وغيرها، إلا أنَّ المسلمين من غير العرب اتجهوا إلى تدوين حضاراتهم وتاريخهم وتراثهم وإبداعاتهم مستعملين اللغة العربية كحال العرب أنفسهم، يقول عمر فرُّوخ^(١٢): «لا نعرف لغةً كانت قبل العربية أو معها ثمَّ استمرَّت مثلها مقروءةً مكتوبةً كما كانت قبل ألف وخمسةَ عام أو أكثر».

فحفظ الحضارة والتاريخ والتراث والإبداع كان من أهم عوامل رسوخ اللغة العربية عند المسلمين من غير العرب، كونها محفوظةً بحفظ القرآن قادرةً على حفظ ما يُكتَبُ بها، يقول نايف خرما^(١٣): «وللغة المكتوبة وظيفةٌ في غاية

(١١) الزمخشري، جار الله، الفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط ١،

١٩٩٣، ص ١٧.

(١٢) الجندي ص ٤٩.

(١٣) خرما ص ١٧٥.

الأهميّة، فمع أنّ من الممكن أن يقوم مجتمعٌ معيّنٌ بحفظ دينه وتراثه وأساطيره وأدبه وعاداته بالطريقة الشفويّة أي عن طريق نقل ذلك التراث شفويّاً من جيل إلى جيل لاحقٍ فإنّ ذلك التراث معرّضٌ للضياع أو التحريف والتغيير لأسباب تتعلق بالحفظ والذاكرة كما تتعلق بالنفوس البشرية، ولكن نفس هذا المجتمع إذا تطوّر فأصبح مجتمعاً معقداً، وزاد تراثه زيادةً هائلةً بحيث لم يعد بالإمكان الاعتماد على الأفراد وذاكرتهم فإنّ الوسيلة الوحيدة لحفظ ذلك كلّ هو تسجيله كتابةً، والواقع أنّ الأمة التي لم تستعمل الكتابة قط فقدت معظم تاريخها وتراثها».

لذلك كانت اللغة العربية أداةً طيّعةً لتدوين التاريخ والتراث والإبداع وحفظها، فبعد انتشار الإسلام وتشكّل الدولة الإسلامية المترامية الأطراف كان لا بدّ من الانتقال من طور الرواية إلى طور التدوين، فكان المسلمون من غير العرب جزءاً من عملية التدوين، فقد كان بعضهم يتولى مهام الدواوين والرسائل فضلاً على عمليات التأريخ والتوثيق لحضاراتهم وتاريخهم وآدابهم وإبداعاتهم.

المبحث الثاني

أثر اللغة العربية في لغات

وحضارات المسلمين من غير العرب

أثرت اللغة العربية في الحضارات المجاورة لها قبل مجيء الإسلام، وازداد هذا التأثير ازدياداً كبيراً بعد مجيء الإسلام وانتشاره في بلاد هذه الحضارات وبين شعوبها، فلا ينكر تأثير اللغة العربية في الحضارات الفارسية والهندية والتركية والأردنية وغيرها من حضارات بلغتها الفتوحات الإسلامية، يقول

الجندي^(١٤): «ولقد أمدت العربية المستنيرين في أواسط آسيا بثقافةٍ تعتبر جديدة من جميع الوجوه، وبثت في قلوب هؤلاء أفكاراً طريفةً، وفتحت أمام عيونهم عوالم جديدة، كما أمدت العربية الفرس والأترك والهنود بلغه جديدة، كذلك أمدت العربية بلاد فارس بخزائن من العلم إلى جانب لغة مكتوبة منظمة، أو قل أمدت الفرس ببعث جديد مع ثقافة جديدة، فعلمت هذا على حين أن الإغريق، وقد حكموا الفرس قرنين، لم يتركوا أي أثر أدبي، كما أنهم لم يتركوا شيئاً في الهند، ولم يترك الفارسي في مصر أي أثر».

فهو يرى أن أثر اللغة العربية في الحضارات التي عاصرت الإسلام والفتوحات الإسلامية قد تجاوز مرحلة التأثير إلى مرحلة أوسع وأغزر هي مرحلة الإمداد، فالعربية قد أمدت تلك الحضارات بمدد لغوي أدبي ثقافي حضاري غزير تجلّى في جوانب عدة، ويرى أحمد مختار عمر^(١٥) أن تأثير العرب قد امتد إلى شعوب كانت أسبق منهم في الدرس اللغوي مثل الهنود والسريان والمصريين.

فمن جوانب تأثير اللغة العربية في الحضارات الأخرى:

- الحرف العربي:

فقد ظهر أثر اللغة العربية جلياً في لغات الشعوب الإسلامية، فقد أمدت اللغة العربية هذه الشعوب بأبجدية كتابية بزّت معاصراتها من الأبجديات، يقول الجندي^(١٦): «ظهر أثر اللغة العربية واضحاً في اللغات الشرقية من ناحية الحرف العربي باعتباره أداة لكتابة لغات الشعوب الإسلامية، فأصبحت اللغة

(١٤) الجندي ص ٥٠.

(١٥) عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط ٦، ١٩٨٨، ص ٣٥٨.

(١٦) الجندي ص ٦٦.

الفارسيَّة والتركيَّة والأزديَّة والجاويَّة (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتبُ بالحروف العربيَّة، كذلك أصهرت إلى اللغات الإفريقيَّة السواحليَّة والهوسا، ومع وجود هذه اللغات فقد كانت اللغة العربيَّة هي لغة المعاملات الدينيَّة ولغة العلم والشريعة، وقد اشترك أبناء هذه الأمم جميعاً في الكتابة بها حتَّى فاق بعضهم كُتَّاب العرب وعلماءهم».

وقد انتشرت الحروف العربيَّة بانتشار الحضارة الإسلاميَّة، وكُتبت بها اللغات التُّركيَّة والفارسيَّة والأزديَّة والأفغانيَّة والكرديَّة والتُّرّيَّة والمغوليَّة والبربريَّة والزنجيَّة والسَّواحليَّة، كما كُتبت بها لغة أهل الملايو، فقد حدث هذا منذ ألف سنةٍ، ودُوِّنت بها آدابها وعلومها وفنونها، فقد استعمل الفرس الحروف العربيَّة لكتابة لغتهم الفهلوية، كذلك استعملها الأفغان لكتابة لغتهم البامريَّة، وكذلك المسلمون الهنود في كتابة اللغة الأزديَّة، وسكان أرخبيل الملايو والصينيُّون في كتابة لغاتهم الخاصة، والأمم التُّرّيَّة والتركيَّة في كتابة لغاتهم الخاصة في المناطق الكائنة بين سيحون وجيحون الممتدة على طول بحر قزوين شمالي البحر الأسود وجنوبي الأورال وجنوبي روسيا^(١٧).

ولا تزال اللغة الفارسية تُكتبُ بالحرف العربي إلى الآن، أمَّا الأتراك فقد استبدلوا بها الحروف اللاتينية على يد مصطفى كمال أتاتورك^(١٨).

وفي إفريقيا لا يزال الحرف العربي مستعملاً في الكتابة حتى وقتنا الحاضر، يقول الجندي^(١٩): «وما تزال اللغة العربيَّة شائعةً في السودان الفرنسي وفي

(١٧) الجندي ص ٦٧.

(١٨) عمر ص ٣٦٤.

(١٩) الجندي ص ٦٨.

شاطئ العاج، وفي النيجر يعتمدون على الحروف العربيّة، وفي نيجيريا تكتبُ اللغات الوطنيّة بحروف عربيّة، وكذلك اللغات الأربعة التي يتكلّمُ بها أهل موريتانيا، وأكثرها استيعاباً للكلمات العربيّة اللغّة الحسانيّة).

- المصطلحات والاصطلاحات:

أدت علوم الحضارة الإسلامية العربيّة إلى استنباط مصطلحات جديدة صارت ضرورة في المعاملات الفقهيّة والدينيّة اللغويّة وغيرها، يقول محمد كردعلي^(٢٠): «هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد، فنقل ألفاظاً من الفارسيّة والعبرانيّة والحبشيّة والقبطيّة والهنديّة، وترك ألفاظاً عربيّة كانت مألوفةً في الجاهليّة، واصطلح على كلمات عربيّة كانت تؤدّي معاني أخرى قبل الإسلام». فهذه المصطلحات الجديدة التي أوجدتها علوم العربيّة والشريعة أغنت اللغة العربيّة أولاً، ولغات وحضارات الشعوب الإسلاميّة ثانياً، يقول الجندي^(٢١): «قدّمت اللغة العربيّة في ظل الإسلام مئات المصطلحات والاصطلاحات في مختلف الميادين:

- ١- الاصطلاحات الدينيّة والشرعيّة.
- ٢- الاصطلاحات الفقهيّة (كالإيلاء والظّهار والعدّة والحضلة) إلخ.
- ٣- الاصطلاحات اللغويّة التي اقتضتها علوم النحو والعروض والشعر والأدب والإدغام وغيرها من أسماء البحور.
- ٤- المصطلحات النحويّة.
- ٥- مصطلحات الحضارة العلم والفلسفة والطب والكيمياء والطبيعة

(٢٠) الجندي ص ٤٨.

(٢١) الجندي ص ٤٨.

والرياضة والفلك والجبر والمقابلة.

ولا توجد لغة من اللغات الشرقية تعتمد على موادها وحدها دون الالتجاء إلى العربية، ولا تجد سطوراً من سطور اللغة التركيّة إلا وهو مزدحم بالكلمات العربية وكذلك في اللغتين الفارسية والأردية، حتى قيل: إنَّ نصف ألفاظ اللغة الفارسيّة عربي، وثلاثة أرباع الكلمات في اللغة الأردية عربي أيضاً^(٢٢).

ويقول^(٢٣): «ولم يقف عطاء اللغة العربية عند حدّ الحروف الهجائية ومئات الألف من الألفاظ والمعاني، بل وألوف الجمل التامة، فقد أعطت مصطلحات اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات الفلسفة والعلوم، كما أعطت اللغات الأوربيّة الأرقام العربية وكثيراً من أسماء المعاني العلميّة».

ولم يقف هذا التأثير على شعب مسلم دون آخر، بل شمل جميع الشعوب المسلمة، يقول عبد الباقي خليفة نقلاً عن الأكاديمي البوسني الدكتور أنس كاريتش^(٢٤): «تقبلت معظم شعوب البلقان الإسلام ديناً لها ومنهج حياة، ومع انتشار الإسلام انتشرت المبادئ والمفاهيم الإسلامية وانتشرت الكلمات والتأثيرات الثقافية العربية ورافق التحول في الحياة الروحية تحولات عميقة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فالسلع التجارية والمعدات الحربية والكتب والأثاث والأدوات المنزلية والملابس والمأكولات المتنوعة والأدوية وغيرها وصلت إلى منطقة البلقان من الشرق العربي والتركي الإسلامي وعلى الأصح من الشرق الإسلامي، ومعظم تلك الأشياء كان يحمل أسماء عربية، ولهذا نجد

(٢٢) الجندي ص ٦٨.

(٢٣) الجندي ص ٦٩.

(٢٤) خليفة، عبد الباقي، مقالة بعنوان: آلاف الكلمات العربية في لغات شرق أوروبا، جريدة الشرق

في اللغات البوسنية والصربية والكرواتية وغيرها من لغات البلقان آلاف الكلمات والمصطلحات العربية في مجالات العلم والدين والأدب والسكن والملبس ومستحضرات التجميل والطب والطهي وغيرها من جوانب الحياة».

- المعاجم:

كان العرب من السَّابِّاقين إلى علم المعاجم وصناعتها، وقد تأثرت الشعوب التي اعتنقت الإسلام وغيرها بالعمل المعجمي العربي، وقد تمثل التأثير العربي في حضارات غير العرب من المسلمين بجانيين هما الترجمة والمحاكاة، فقد ترجم لغويو الترك عدَّة معاجم إلى اللغة التركية كالصَّحاح الذي ترجمه قرة بيري وسَمَّاهُ التَّرجمان^(٢٥)، ومثلهم لغويو الفرس، فقد ترجموا عدة معاجم إلى الفارسية كالصَّراح من الصَّحاح، وهو ترجمة لصَّحاح الجوهري ترجمه أبو الفضل محمد بن خالد القرشي مع إبقاء الآيات والأحاديث والشعر والأمثال باللغة العربية^(٢٦)، أمَّا المحاكاة فقد تمثلت بتأليف معاجم تحاكي المعاجم العربية من حيث الترتيب والأسلوب، كديوان لغات الترك لمحمود بن الحسين بن محمد الكاشغري، من أهل كاشغر على حدود الصين، وهو معجم يشرح الألفاظ التركية بعبارات عربية، وهو محاكاة لديوان الأدب للفارابي^(٢٧)، ومنها قاموس الأروام في نظام الكلام لشيخ الإسلام مُلَّا صالح أفندي^(٢٨)، وقد سار فيه على نظام الصَّحاح للجوهري، وجمع فيه الألفاظ التركية، وفسَّرها بالعربية.

(٢٥) عمر ص ٣٥٩.

(٢٦) عمر ص ٣٦٣.

(٢٧) عمر ص ٣٦٠.

(٢٨) عمر ص ٣٦٠.

وكانت المحاكاة حاضرة عند الفرس أيضاً، فقد ألف هندوشاه بن سنجر الكيزاني صحاح العجم على ترتيب صحاح الجوهري، وقال: «سميته بهذا الاسم لكونه على أسلوب صحاح العربية»^(٢٩).

ولم يقتصر أثر العمل المعجمي العربي على حضارات بعينها، فقد تأثر مسلمو البلقان بالعمل المعجمي العربي، ويعد قاموس عبد الله شكايليتس من أهم قواميسهم التي تتحدث عن الكلمات العربية في اللغة البوسنية^(٣٠)، يقول عبد الله شكايليتس^(٣١): «يمكن القول بارتياح تام أن اللغات البوسنية والكرواتية والصربية تحتوي على آلاف الكلمات العربية، وهذا بحد ذاته دلالة كافية على التأثير الكبير للغة العربية في البلقان».

العروض وموسيقا الشعر:

لقد أثرت اللغة العربية في لغات الشعوب المسلمة في آدابها عامة وشعرها خاصة، فقد استمد الفرس من اللغة العربية موسيقاها الشعرية وموضوعاتها، يقول أحمد مختار عمر^(٣٢): «يقول الدكتور علي الشابي: نشأ الشعر الفارسي متأثراً بالشعر العربي شكلاً وموضوعاً، ويقول عن «منو جهري» الشاعر الفارسي الغنائي: كان للقصيدة العربية بمفهومها الفني أثر واضح في نشأة القصيدة الفارسية...، ويقول بعد أن عرض نماذج من شعره: إنها تعتبر أنموذجاً حياً للقصيدة الفارسية من حيث تأثرها بالقصيدة العربية شكلاً وموضوعاً».

(٢٩) عمر ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣٠) خليفة، عبد الباقي، مقالة بعنوان: آلاف الكلمات العربية في لغات شرق أوروبا، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٤٨٣، ١٤-١٤، نوفمبر ٢٠٠٤.

(٣١) المصدر السابق.

(٣٢) عمر ص ٢٦٥ - ٣٦٤.

ويقول الجندي^(٣٣): «فقد استعمل شعراء الفرس الأوزان العربيّة والقوافي، ولكن تصرّفوا فيها بعض التّصرّف، كما أخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك، فهو يستمد من الإسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس».

ولم يقتصر تأثير موسيقا وموضوعات الشعر على الفرس وحدهم، فقد تأثر بهم كل من احتكّ بهم كالسريان والإسبان وغيرهم، يقول عمر: «أمّا تأثر السريان فقد تمثّل في شكل كل محاكاتهم للعرب في القوافي، وأوّل من أدخلها في شعرهم يوحنا بن خلدون في القرن الحادي عشر الميلادي».

وفي الأندلس أصبح ضرورياً لأكثر شعراء الإفرنج عند ملوك الأندلس أن يلمّوا ولو إماماً خفيفاً بلغة العرب^(٣٤).

وكذلك الأمر عند مسلمي روسيا، يقول الجندي^(٣٥): «لا يزال سكّان داغستان في روسيا يتكلمون باللغة العربية، ويستعملونها في التّخاطب والكتابة ونظم الشعر وفق الأوزان العربيّة الأصيلة».

- النحو:

لقد أثرت اللغة العربية في لغات وحضارات الشعوب الأخرى، وأثرت تراثها، وهذا التأثير لا يقتصر على علم أو فنّ دون آخر، وتأثير اللغة العربية في عدّة علوم وفنون يؤكّد تأثير النحو العربي في لغات هذه الشعوب ونتائجها العلمي، إلّا أنّ بعض المستشرقين يرون أن الدراسات النحوية العربية ليست

(٣٣) الجندي ص ٧٦.

(٣٤) الجندي ص ٧٠.

(٣٥) الجندي ص ٧١.

أصيلة، وأنها ناجمة عن التأثر باليونان والهنود، فمن الطبيعي أن يكون التأثير متبادلاً بين اللغات، وهذا لا يعيب اللغة العربية، فتأثير اللغات الأخرى في اللغة العربية لا يمكن إنكاره، ولكنه أقل بكثير من أثر اللغة العربية في اللغات الأخرى إذا ما قُورن بها، ولذا يقول البوريني^(٣٦): «إنَّ الدرس النحوي يتكوَّن من أسلوب الدراسة إضافة إلى المادة المدروسة، أمَّا مادة الدرس وهي العلاقات القائمة بين الكلمات في الجملة العربية وبين الجمل نفسها والتي تضبط حركات أو آخر الكلمات فهي صفة لازمة في اللغة العربية لا نعدم وجود شيءٍ منها في أيِّ لهجة خرجت من العربية، ونقصد بهذه اللهجات اللغات العالمية المعروفة لأنها خرجت من العربية، وأمَّا أسلوب الدراسة وهو طريقة البحث في العلاقات النحوية في الجمل ووضع القواعد الثابتة بشأنها، فقد يتماثل في بعض جوانبه لدى دارسين لموضوع واحد في مكانين مختلفين مع اتفاق الزمان أو اختلافه من دون أن يلتقي أحدهما بالآخر.

ولو فرضنا أن العرب قد تأثروا باليونان والهنود في أسلوب الدراسة النحوية فليس في هذا ما يعيب أو يقلل من شأن النحويين العرب، فالمعرفة لا يقتصر خيرها على أمة دون غيرها، فهي مكسب للإنسانية كلها، وليس في اقتباس النحويين العرب لأسلوب الدرس النحوي عند اليونان والهنود ما يشين اللغة العربية، وقد احتوت اللغة اليونانية كما احتوت اللغة الهندية بعض صفاتها».

ويبدو واضحاً أثر النحو العربي في الدراسات النحوية في النحو السرياني والقبطي والعبري، يقول أحمد مختار عمر^(٣٧): «بعد أن اتَّصل السريان بالعرب

(٣٦) البوريني ص ٦١ - ٦٢.

(٣٧) عمر ص ٣٥٧.

عندما دخل العرب بلادهم فاتحين، وعَدَّتِ اللغة العربية على لغتهم أَثَرَ ذلك على السريان، فوضعوا نحوهم على نمط النحو العربي لأنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى لغتهم من النحو اليوناني، وكان النحاة السريان في القرن الثاني عشر وما بعده يعكسون مناهج المدارس العربية الشهيرة في البصرة والكوفة، وقد وضع ابن العبري كتاباً كبيراً في النحو سَمَّاهُ (كتاب الأشعة) على غرار كتاب المفصل للزمخشري، ويلاحظ أَنَّ ابن العبري في كتابه كان يتبع تقسيمات النحاة العرب.

وكذلك حصل لمعظم اللغات التي احتكت باللغة العربية، ومن الملاحظ أن أشهر نحاة العرب من أصول غير عربية، فسيبويه والزمخشري فارسياً الأصل، وابن جنِّي روميُّ الأصل، وغيرهم الكثير من العلماء الذين تأثروا باللغة العربية وعلومها وفنونها، فصاروا من أشهر علمائها.

- الأهمية الجمالية للخط العربي:

صار الخط العربي ميداناً للمتنافسين من الخطاطين والكتّاب في دواوين الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء، واستمر الحال على ما هو عليه إلى وقتنا الرَّاهن، فأقيمت المعارض والمسابقات بين أشهر كتّاب العالم من مختلف الشعوب يتنافسون في ميدان الكتابة بالخطِّ العربيِّ، حتى غدت مخطوطاتهم لوحات تزين جدران السادة والأثرياء، ولم يكن ذلك حدثاً، بل كانت كتاباتهم تحفة فنيّة مزخرفة بديعة منذ زمن بعيد في فن الكتابة^(٣٨).

فهذه العوامل التي ساهمت في انتشار ورسوخ اللغة العربية عند المسلمين وهذه الآثار التي أمدت بها اللغة العربية لغات هذه الشعوب ساهمت مساهمة

(٣٨) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١٩٢٢، ٣/ ١٠٤.

واسعةً في تكوين أسرة اللغات الإسلامية^(٣٩) في آسيا وإفريقيا حين غلبت العربية على الجماعات الناطقة بالفارسية واللاتينية واليونانية والقبطية والآرامية.

خلاصة البحث

لقد كان للقرآن الكريم عظيم الفضل على العرب ولغتهم، فاكسبت لغتهم من القداسة والتشريف ما جعلها ميداناً لكل باحث، ومراماً لكل لاهث، فقد ساعدت مجموعة من العوامل كان أبرزها العامل الديني على رسوخ اللغة العربية وانتشارها بين الشعوب الإسلامية وعند من احتكَّ بها من غير المسلمين، وقد تجلَّى تأثير اللغة العربية في لغات المسلمين من غير الناطقين بها في معظم علومها وفنونها من النحو والمعاجم والأدب في شكله ومضمونه والاصطلاح والحرف والخطِّ وغيرها الكثير ممَّا كان يروي ظمأً ويسدُّ حاجة هذه الشعوب في هذا الميدان.

المصادر والمراجع

- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، مجلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨.
- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٦، ١٩٨٨.
- صبح الأعشى، القلقشندي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢.
- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٢.
- فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٢.
- اللغة العربية أصل اللغات كلها، عبد الرحمن أحمد البوريني، دار الحسن للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨.
- المفصل في صنعة الإعراب، جار الله الزمخشري، تحقيق: علي بوملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- مقالة بعنوان: آلاف الكلمات العربية في لغات شرق أوروبا، عبد الباقي خليفة، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٤٨٣، ١٤ - نوفمبر ٢٠٠٤.

المقالات والآراء

ما زال فلان في قيد الحياة/ ما زال حياً لا: لا زال فلان على قيد الحياة/ لا زال حياً! القيد- قيد كذا

د. مكّي الحسني (*)

أولاً: تدخل (ما) النافية على الفعلين الماضي والمضارع فيقال: ما زال، ما يزال، فيُبدل بهما على الإثبات وعلى الاستمرار، نحو: ما زال/ ما يزال الجوّ بارداً. وتدخل (لا) النافية على المضارع^(١)، نحو: لا يزال الجوّ بارداً، ولا تدخل على الماضي لإفادة النفي، فلا يقال: (لا جاء فلان) بل (ما جاء فلان)، ولا يقال (لا زال الجوّ بارداً) بل (لا يزال الجوّ بارداً)!

ولكن تستعمل (لا) مع الماضي لتكرار النفي، نحو: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١]، أو لتفيد الدعاء (بالخير أو بالشر) لا النفي!! نحو: لا سمح الله؛ لا قدر الله؛ لا أراك الله مكروهاً؛ لا عدمتك، لا زال بيتك عامراً؛ لا فضّ فؤك.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) الفرق بين نفي المضارع بـ (لا) ونفيه بـ (ما)، أنه إذا نُفي بها، تحلّص عند الجمهور للحال، كما في المعني.

قال المالمقي في (رصف المباني): «واعلم أن (لا) هذه التي للدعاء، يجوز أن تدخل على الماضي، ويكون معناه إذ ذاك الاستقبال، فيقال: لا غفر الله لزيد ولا رَحْمَةً...»

ينسب إلى الإمام الشافعي قوله في الوعد:

يا واعد الوعد ليس يُنجزه أف لمن لا يُتمُّ ما وعدا
أف لمن لا يزال صاحبه في تعبٍ من عذابه أبدا
أكلَّ طول الزمان أنت إذا جئتك في حاجة تقول غدا؟
لا جعلَ الله لي إليك ولا عندك ما عشتُ حاجة أبدا

ثانياً: جاء في معاجم اللغة (ق ي د):

- ١ - قاده يَقِيْدُهُ قَيْدًا: قَيْدُهُ تَقْيِيدًا: جَعَلَ الْقَيْدَ فِي رِجْلِهِ^(٢).
- ٢ - الْقَيْدُ: حَبْلٌ وَنَحْوُهُ يُجْعَلُ فِي رِجْلِ الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا فَيُمْسِكُهَا.
- ٣ - الْكَبْلُ: الْقَيْدُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ.
- ٤ - يُقَالُ لِلْفَرَسِ الْجَوَادِ: قَيْدُ الْأَوَابِدِ: أَي سَرِيعِ الْعَدْوِ، فَيُدْرِكُ الْوَحْشَ وَيَمْنَعُهَا الشَّرَادَ كَمَا يَمْنَعُهَا الْقَيْدُ، فَتُصَادُ!

• قال امرؤ القيس:

وقد أغتدي والطير في وُكْنَاتِهَا بِمُنْجَرِدِ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هِيكَل

(٢) إن ظاهرة «قلب الكلام عن وجهه» وردت في كلام العرب، وهي مفهومة من سياق الكلام، ويُضرب لها المثل: أدخلت الخاتم في إصبعي.

ومن الواضح أن المقصود هو إدخال الإصبع في الخاتم، وجعل الرجل في القيد. وهذه التراكيب الثابتة المسموعة لا يقاس عليها، فقد سُمع قولهم: (خرق الثوب المسمار) بنصب المسمار؛ ولكن لا يجوز أن نقول مثلاً: خرق القماش الإبرة!). وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ: ٣٣].

[المنجرد: الفرس السريع العَدْوِ]

٥- يقال: فرسٌ قيْدٌ: ذَلُولٌ مُنْقَادٌ!

فالقيد إذن مصدرٌ، واسم ذات، وصفة.

٦- يقال: رَسَفَ في القيدِ - رَسَفًا ورَسَفَانًا: مشى فيه رويداً.

واستعمل القيد على المجاز:

١- جاء في الأدب الكبير والأدب الصغير، لابن المقفع (١٤٢هـ):

«حاز الخيرَ رَجُلَان: سعيدٌ ومَرَجُوٌّ: فالسعيدُ الفالِحُ، والمرجوُّ مَنْ لم

يَخْصَمَ، والفالِحُ الصالِحُ مادام في قيد الحياة!». .

لم يقل: على قيد الحياة!

الفالِحُ: الفائز (لسان العرب)، والظافر.

مَنْ لم يَخْصَمَ: لم يكن شديد الخصومة.

٢- وقال أبو العلاء المعري (٤٤٩هـ):

أراني في قَيْدِ الحِياةِ مُكَلَّفًا ثَقَائِلَ أمشي تحتها وأطابقُ

٣- وجاء في دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي (٤٦٧هـ):

... وهو بعدُ في قَيْدِ الحِياةِ ...

٤- وجاء في وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان لابن خلكان (٦٨١هـ):

... واستوصاه خيراً في نفسه ما دام في قيد الحياة.

٥- وجاء في البحر المحيط لأبي حيان النحوي (٧٤٥هـ):

... لأنه ما دام المرء في قيد الحياة لا يقطع أنه صائرٌ إلى الجنة ...

٦- وجاء في حياة الحيوان الكبرى للدميري (٨٠٨هـ):

... فأمر له الرشيد بألفي دينار، وقال: هي لك مِنَّا ما دُمنا في قيد الحياة.

٧- وجاء في «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ):

... وكانت والدته إذ ذاك في قيد الحياة...

٨- وجاء في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي (٨٧٤هـ):

... وهي إلى الآن في قيد الحياة...

٩- وجاء في «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» للمُجَبِّي (١١١١هـ):

قسماً بوجهك وهو شمسٌ أشرقتُ وبما بفيك من الرضابِ المُسكِرِ
لا حُلْتُ عن مُرِّ الهوى ما دمتُ في قيد الحياة ولو بُعثتُ لمَحْشَرِ
١٠- وقال ابن مطروح:

لا أرعوي لا أنتهي لا أنثني عن حُبِّه فليَهْدِ فيه مَنْ هَدَى
والله ما خَطَرَ السُّلُوُّ بخاطري مادمتُ في قيد الحياة ولا إذا!
[أي ولا إذا مُتُّ!].

نلاحظ أن جميع الكتب التراثية المذكورة - وغيرها كثير - أوردت العبارة (في قيد الحياة)، ولم يرد فيها العبارة الشائعة (على قيد الحياة).

أما التعبير القرآني عن هذا المعنى فهو: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

حاشية:

قد يتساءل بعضهم: ألا يصح أن يقال: الكتابُ الفلاني هو قيد الطبع؟
بنصب (قيد) على نزع الخافض (في). والجواب عند جمهور النحاة هو أن نزع

- الخافض سماعي! (جامع الدروس العربية، ٣/ ١٩٦).
 ومن الشائع استعمال (قَيْدَ) مُضَافَةً ومنصوبة: فيقولون:
 ١- هذه المقترحات هي الآن قَيْدَ الدراسة.
 ٢- وُضعت هذه التعليقات قَيْدَ التنفيذ.
 ٣- هذه القِطْع المصممة حديثاً هي الآن قَيْدَ التصنيع.
 ٤- بقي الاتفاق المذكور قَيْدَ الكتمان.
 والوجه أن يقال:

- ١- هذه المقترحات هي الآن في مرحلة الدراسة. أو: هذه المقترحات تُدرس الآن.
 ٢- وُضعت هذه التعليقات مَوْضِعَ التنفيذ.
 ٣- هذه القِطْع هي الآن في مرحلة التصنيع.
 ٤- بقي الاتفاق المذكور طَيَّ الكتمان/ في طَيِّ الكتمان.
 [سُمع نَزْعُ الخافض قبل: طَيَّ، خلالَ، ثَنِي، أثناء، ضَمَنَ، وَفُق، دَرَجَ، حَسَبَ...]. ■

* * *

اليهود وغزوة أحد

تحقيق تاريخي

أ. إبراهيم الزيتق (*)

من الثَّابِت في وقائع السَّيرة النبوية المطهَّرة أنَّ من أوائل ما قام به النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة، كتابة صحيفة بين المهاجرين والأنصار، وادع فيها يهوداً، وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم، وافتتحها ﷺ بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس»^(١). ثم بيَّن الأحكام التي تنظم العلاقات فيما بينهم، وعرَّفهم حقوقهم وواجباتهم.

وعُرفت هذه الصحيفة بين المؤرخين المعاصرين بوثيقة المدينة^(٢)، وكان محمد بن إسحاق؛ وهو علامة في المغازي والسَّير^(٣)، أول من أوردها من كُتَّاب

(*) باحث في التراث.

(١) سيرة ابن هشام: ١٤٧/٢.

(٢) ونشرها الدكتور محمد حميد الله في كتابه النفيس «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة»: ١-٧، وبيَّن الفروق في رواياتها.

(٣) وصفه بذلك الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٣٧/٧.

السيرة، ونقلها عنه ابن هشام في «سيرته»^(٤).

وما يهمني في هذه الصحيفة، على عظمة ما حوت، ما يتعلق فيها باليهود، فقد نصت فيما نصت عليه:

«وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^(٥).
«وإن بينهم النصر على من دهم يثرب»^(٦).

وهذه الجملة الأخيرة «وإن بينهم النصر على من دهم يثرب» هي التي سأقف عليها، محاولاً كشف مدى التزام اليهود بها حين دهمت قريش المدينة أول مرة في غزوة أحد.

(٤) سيرة ابن هشام: ١٤٧/٢ - ١٥٠

ووقت كتابة هذه الصحيفة من سياق ابن إسحاق لها، كان في السنة الأولى للهجرة، وتابعه على ذلك جمهور المؤرخين، وخالفه بعض المؤرخين المعاصرين في زمن كتابتها، فذهب الدكتور صالح أحمد العلي في كتابه «دولة الرسول ﷺ في المدينة»: ١١٢ إلى أنها كتبت بعد غزوة بدر. أي في السنة الثانية للهجرة. وأغرب الدكتور بركات أحمد فجعلها في كتابه «محمد واليهود»: ٨٢ - ٨٣، ٨٨، ٩٣ بعد غزوة بني قريظة. أي في أوائل السنة السادسة للهجرة، مستدلاً على ذلك باستدلالات منها عدم التصريح فيها بأسماء القبائل اليهودية الثلاث: بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. وأتساءل: ما معنى كتابة الصحيفة إذن بعد تلاشي نفوذ اليهود في المدينة؟ وأي معنى يبقى لما جاء فيها: «وأن بينهم النصر على من دهم يثرب»، بعد يأس المشركين من غزوها عقيب انكفائهم عنها في غزوة الخندق، وقول رسول الله ﷺ حينئذ فيما رواه البخاري في صحيحه برقمي (٤١٠٩)، (٤١١٠): «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»؟ ولعل اعتماد الدكتور بركات في كتابه على مصادر عربية قليلة ضيق عليه سبيل النظر والتحليل. ولست الآن بصدد مناقشته فيما ذهب إليه، ولي عودة لذلك في بحث آخر، إن شاء الله تعالى.

(٥) سيرة ابن هشام: ١٤٩/٢.

(٦) سيرة ابن هشام: ١٥٠/٢، وأكد هذا القول كذلك موسى بن عقبة في «مغازيه»: ٢١٧، والبلاذري في «أنساب الأشراف»: ٢٨٦/١، والطبري في «تاريخه»: ٤٧٩/٢.

ذكر ابن عبد البرّ في كتابه «التمهيد» أن رسول الله ﷺ حين بلغه جمع أبي سفيان للخروج إليه في أحد، انطلق إلى بني النضير، فقال لهم: إما قاتلتم معنا، وإما أعرتونا سلاحاً^(٧)؟ وهذا الطلب من رسول الله ﷺ متفق مع صحيفة المدينة، فإعارة السلاح من النصرة. فماذا كان ردُّ بني النضير؟ رفضوا القتال معه أو إعارته السلاح. ويبدو أن الأنصار ظلوا يأملون بنصرة حلفائهم اليهود، على ما بدا منهم، وكأنتهم رغبوا في إعادة طلب إعانتهم مرة أخرى، فقالوا لرسول الله ﷺ: ألا نستعين بحلفائنا اليهود؟ فقال ﷺ: وقد تحقّق رفضهم: لا حاجة لنا فيهم^(٨). بل إن بني النضير أوغلوا في نقض العهد، فلم يقفوا محايدين، كما فعلت بنو قريظة - وهو أقل ما كان عليهم فعله - فحين نزل مشركو قريش في أحد أرسلوا إليهم، فحرّضوهم على القتال، ودلوهم على مواقع ضعف المسلمين^(٩). وفي هذا إعلان للحرب ومشاركة فيها، وهو أحد أسباب إجلاء بني النضير عن المدينة فيما بعد^(١٠)، صرّح بذلك الصّحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فيما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، إذ قال: «إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ فأجلى بني النضير، وأقرّ قريظة، ومنّ عليهم، حتى حاربت قريظة بعد ذلك، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين»^(١١). فبنو النضير لم يكتفوا بخذلانه ﷺ حين دهمت قريش المدينة، بل أعانوا على قتاله

(٧) التمهيد لابن عبد البر: ٣٦-٣٧.

(٨) سيرة ابن هشام: ٣/٦٨.

(٩) مغازي موسى بن عقبة: ٢١٠.

(١٠) إلى أسباب أخرى، منها محاولتهم قتله ﷺ بعد أحد حين جاءهم مستعيناً في دية العامرين

الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري. ينظر «سيرة ابن هشام»: ٣/١٩٩.

(١١) صحيح البخاري (٤٠٢٨)، وصحيح مسلم (١٧٦٦)(٦٢).

بالتحريض، ودَّهَم على مواقع ضعف المسلمين. أما بنو قريظة فلم يجاربه، وإنما وقفوا على الحياض، فقبلَ ﷺ منهم ذلك، ومنَّ عليهم، فعفا عنهم، حتى نقضوا عهده بعد نحو ستين في غزوة الخندق، وتحالفوا مع الأحزاب على قتاله^(١٢)، فكان من أمرهم ما كان.

واحدٌ من أحبارهم ساءه تحاذلُ اليهود عن نصرته ﷺ وهو مُحَيَّرِيقٌ، فوقف بينهم مذكراً بما بينهم وبين النبي ﷺ من عهدٍ، قائلاً: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمدٍ عليكم لِحَقٍّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت^(١٣). فقال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعُدَّتَه، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمدٍ يصنع فيه ما شاء. ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتِلَ. فقال رسول الله ﷺ - فيما بلغ ابن إسحاق -: مُحَيَّرِيقٌ خيرٌ يهود. وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامةُ صدقاته بالمدينة منها^(١٤).

* * *

موقفُ اليهود هذا في غزوة أحد، من تركهم نصره المسلمين، وهم حلفاؤهم وجيرانهم، أثار عليهم سُخْطَ شاعرٍ كبيرٍ من شعراء الجاهلية، هو الأسود بن يَعْفَرُ النَّهْشَلِيُّ؛ صاحبُ القصيدة المفضلية الرائعة، التي مطلعها:

نَامَ الْحَلِيُّ وَمَا أَحْسُّ رُقَادِي وَالْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدِيَّ وَسَادِي^(١٥)

(١٢) سيرة ابن هشام: ٢٣١/٣ - ٢٣٣.

(١٣) كانت معركة أحد يوم السبت ٧ شوال من السنة الثالثة للهجرة فيما ذكر الواقدي في مغازيه: ١/١٩٩، وابن سعد في الطبقات: ٢/٣٣، والطبري في تاريخه: ٢/٤٩٩، وعند ابن إسحاق أنها كانت يوم السبت ١٥ شوال، ينظر «سيرة ابن هشام»: ٣/١٠٦.

(١٤) سيرة ابن هشام: ٢/١٦٥، ٣/٩٤، وينظر في أمواله التي خلفها لرسول الله ﷺ «مغازي الواقدي»: ١/٣٧٨.

(١٥) المفضليات: ٢١٥ - ٢٢٠.

فلم يكتم غيظه واستشناعه لما فعلوه حتى وهو يمدح واحداً من قريش
 ممن أثنوا في المسلمين يوم أُحد، وهو الحارثُ بن هشام بن المغيرة؛ أخو أبي
 جهل عمرو بن هشام، فقال:

إِنَّ الْأَكَارِمَ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا قَامُوا فَرَأُوا الْأَمْرَ كُلَّ مَرَامٍ
 حَتَّى إِذَا كَثُرَ التَّحَاوُلُ بَيْنَهُمْ فَصَلَ الْأُمُورَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ
 وَسَمَا لِيُثْرَبَ لَا يَرِيدُ طَعَامَهَا إِلَّا لِيُصْلِحَ أَهْلَهَا بِسُؤَامٍ
 وَغَزَا الْيَهُودَ فَأَسْلَمُوا جِيرَانَهُمْ صَمِّيَ لِمَا لَقِيَتْ يَهُودُ صَمَامٍ

هذه الأبيات أوردها ابنُ سلام في كتابه «طبقات فحول الشعراء»^(١٦)،
 وشرحها العلامة محمود محمد شاكر بما عُهد عنه من دِقَّةِ فهمٍ وحُسْنِ بيانٍ،
 فقال: «حتى إذا كثرت التحاول بينهم: يعني إذا كثرت بينهم التحاور والتنازع
 والتخادع وطلب الغلبة بالحيلة فَصَلَ الْأُمُورَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ. وسما ليثرب:
 يريد خروج قريش من مكة إلى أحد لقتال المسلمين. إلا ليصلح أهلها بسؤام:
 كأنه أراد بالسؤام هنا العذاب والنكال».

أما البيت الأخير، فعليه مدارٌ حديثي، وهذه قراءتي له مما استظهرته من
 رواية ابن سلام، ومما جاء في «لسان العرب» (صمم)، و(هود)، و«المخصص»:
 ١٦ / ١٠٢، وقد علق عليه العلامة محمود محمد شاكر، ولي عودةً إلى تعليقه.
 وحسبي منه قوله هنا: «يعني بالجيران: المهاجرين الذين نزلوا المدينة على
 الأنصار. وأسلم فلانٌ صديقه: خذله في مكروه، وفرَّ لِيَسْلَمَ هو. وصَمِّيَ
 صَمَامٍ: كلمة تقال عند استفظاع أمرٍ بشع قبيح، وكأنه يقول: احرص يا داهية،
 فإن الذي أرى أكبر منك. وصَمَامٍ: اسم الداهية الشديدة»^(١٧).

(١٦) طبقات فحول الشعراء: ١/ ١٤٨-١٤٩.

(١٧) طبقات فحول الشعراء: ١/ ١٤٩.

ورواية ابن سلام لصدر البيت، هي: «وغزا اليهود فأسلموا أبناءهم». وقوله: «وغزا اليهود»، ظاهره مُشكَل، لأنه إنما غزا المسلمون. بيد أن الأسود قال ما قال، وهو الجاهلي، لما كان عليه اليهود من قوة يومئذ في يثرب، وكثرتهم ومنعتهم في حصونهم^(١٨)، فكان المسلمون، لأنهم حلفاء لهم وجيران، يعيشون تحت حمايتهم، ولذلك عبر عنهم بأبنائهم، فالحارث بغزوه للمسلمين يكون قد غزا اليهود كذلك، والله أعلم.

فالأسود بن يعقفر، وهو العربي الذي يُقيم لحق الجوار كل حُرمة، راعه خذلان اليهود لجيرانهم المسلمين، واستفطع فعلهم.

* * *

موقف اليهود هذا، ينقلب في رواية شاعت بين المحدثين إلى موقفٍ مضاد، تبرئهم من تخاذلهم، وتصورهم وقد حملوا السلاح مبادرين إلى قتال قريش، ورسول الله ﷺ هو من ردَّهم عن مشاركة المسلمين في قتالهم.

وردت هذه الرواية في مصدرين، أولهما عند الواقدي في «مغازيه»، وقد ساقها دون إسناد، فقال: «فلما ركب رسول الله ﷺ خرج السعدان أمامه يعدوان: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، كل واحد منهما دارع، والناس عن يمينه وعن شماله حتى سلك على البدائع، ثم زقاق الحسبي حتى أتى الشيخين - وهما أطمان^(١٩) كانا في الجاهلية، فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان،

(١٨) ولمنعهم هذه وقوتهم شبه الشاعر جبل بن جوال الثعلبي رسوخهم في بلدتهم برسوخ الصخور، فقال:

وقد كانوا ببلدتهم ثقلاً
كما ثقلت بميطان الصُّخور

وميطان: جبل بالمدينة. ينظر «سيرة ابن هشام»: ٣/ ٢٨٥.

(١٩) الأطم: حصن مبني بحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح. اللسان (أطم).

فسمي الأطمأن بالشيخين - حتى انتهى إلى رأس الثنية، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء^(٢٠)، لها زَجَل^(٢١) خلفه، فقال: ما هذه؟ قالوا: يا رسول الله، هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود. فقال رسول الله ﷺ: لا يُستنصر بأهل الشُّرك على أهل الشرك^(٢٢). وتابعه على هذه الرواية ابنُ سعد في «الطبقات»^(٢٣).

ثم إن ابنَ سعد ساق في «طبقاته» رواية أخرى بإسناده، فقال: «أخبرنا خالد بن خدّاش، أخبرنا الفضل بن موسى السّيناني، عن محمد بن عمرو، عن سعد بن المنذر، عن أبي حميد السّاعدي: أن رسول الله ﷺ خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة خشناء، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: هذا عبدُ الله بن أبي بن سلول في ستمئةٍ من مواليه من اليهود من أهل قينقاع، وهم رهطُ عبدِ الله بن سلام. قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا، فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين»^(٢٤).

أما رواية الواقدي، فقد ساقها دون إسناده، ثم إنه متفق على ضعفه عند المحدثين، وإن كان لا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصّحابة وأخبارهم^(٢٥)، ما لم ينفرد بما يرويه^(٢٦). وحسبي رواية ابن سعد التي ساقها بإسناده، ففيها نكارةٌ في متنها، على ضعفِ إسناده. ومدارُه على سعد بن المنذر، وهو ابن أبي حميد

(٢٠) خشناء: كثيرة السلاح. اللسان (خشن).

(٢١) الزَّجَل: الجلبة ورفع الصوت. اللسان (زجل).

(٢٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢١٥-٢١٦.

(٢٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥-٣٦.

(٢٤) طبقات ابن سعد: ٢/ ٤٥.

(٢٥) ينظر سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٥٤، ٤٥٥.

(٢٦) فتح الباري لابن حجر: ٧/ ٤٧٢.

السَّاعدي - ومن طريقه أورده بعضُ المحدثين كذلك^(٢٧) - وهو مجهولُ الحال، فلم يرو عنه سوى اثنين، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، على عادته في توثيق المجاهيل، ثم إن المنذر انفرد به، وهو ممن لا يُحتمل تفرده. أما نكارة المتن ففي قوله: من مواليه اليهود من أهل قينقاع. والثابت أن يهود بني قينقاع جلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة بعد غزوة بدر لخيانتهم ونقضهم العهد^(٢٨). ثم إنه سمى اليهود بالمشركين، وإنما هم أهل الكتاب، كما سماهم الله تعالى في مُحكم كتابه.

فكُتِّب السيرة من قداماء ومُحدثين اعتمدوا على هذه الرواية في سياق حديثهم عن غزوة أحد، وبعضهم آثر السكوت عن موقف اليهود، فغيبهم عن الوُفُوعَة تماماً. بل إن الغريب حقاً أن العلامة محمود محمد شاكر عدل عن رواية ابن سلام لبيت الأسود بن يعفر: «وغزا اليهود فأسلموا أبناءهم»، ليستقيم له الرد عليه، فقال في تعليقه: «رواية ابن سلام غير جيدة، وفي اللسان وغيره (صمم)، (هود)، والمخصص: ١٦ / ١٠٢، «فرت يهود وأسلمت جيرانها»،

(٢٧) منهم الطحاوي في «شرح مشكل الآثار»: ٤١٦/٦ - ٤١٧ برقم (٢٥٨٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط»: ٢٢١/٥ برقم (٥١٤٢)، والحاكم في المستدرک: ١٢٢/٢.

(٢٨) نبذ يهود بني قينقاع العهد لرسول الله ﷺ عقب قدومه من غزوة بدر ظافراً، فنزل قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فلما فرغ جبريل من هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف من بني قينقاع». قال عروة بن الزبير: فسار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية. ينظر «تاريخ الطبري»: ٤٨٠ / ٢. وأما ما رواه الواقدي في كتابه «المغازي»: ١ / ١٧٦ - ١٧٧، وساقه ابن هشام في زياداته على السيرة: ٥١ / ٣ من قصة المرأة المسلمة التي جلست إلى صائغ بسوق بني قينقاع، فعقد الصائغ إلى طرف ثوبها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحك اليهود منها، فصاحت، فقام إلى الصائغ رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع بنو قينقاع فقتلوا الرجل، ونبذوا العهد، وكان ذلك سبباً لإجلائهم عن المدينة. فهي رواية لا تصح، لضعف إسنادها، ونكارتها، ولي عودة إليها في بحث آخر، إن شاء الله تعالى.

ويُروى «حلفاءها». ثم قال: ويهود لم تفرّ في غزاة أحد - وهم أهل الفرار والغدر - ولكن ردّهم رسولُ الله ﷺ لما خرجوا مع عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقال: لا نستنصر بأهل الشُّرك على أهل الشرك»^(٢٩).

فرواية البيت: «فرت يهود» لا تستقيم معنى، لأن اليهود لم يخرجوا للمعركة أبداً، إلا إذا فسّرنا فرارهم بتخاذلهم عن الخروج، ومن ثم رجّحت رواية البيت: «وغزا اليهود فأسلموا جيرانهم» أو «حلفاءهم»، جمعاً بين رواية ابن سلام ورواية «اللسان».

ثم إن مدار معنى البيت على قوله «فأسلموا»، وفي «اللسان»: أسلم الرجل: خذله^(٣٠). وهل وقع من اليهود إلا الخذلان؟ فالبيتُ بدلالته التاريخية، وعلى قراءة العلامة محمود شاكر له كذلك، قولٌ فصلٌ من مُشركٍ معادٍ للمسلمين بتخاذل اليهود عن نصرّة المسلمين في غزوة أحد، مع ما يؤيِّده من أخبار صحيحة، فلا يُردُّ برواية ضعيفة في متنها نكارة، إلا إذا قلنا إنه منحول، وهو ما لم يقل به أحد. وما أدري كيف تأتي للعلامة محمود محمد شاكر ردّه، وهو الذي عاش حياته مُنافحاً عن الشُّعر الجاهلي وصحته^(٣١)؟

* * *

نعم، صحَّ عن رسولِ الله ﷺ قوله: «إنا لا نستعين بالمُشركين على المُشركين»، ولكن في غزوة بدر، وقد لحقه أحدُ مشركي المدينة للقتال معه، فيما روت أمّنا عائشة رضي الله عنها، فقالت: «إنَّ رسولَ الله ﷺ خرج إلى بدر، فتبعه رجلٌ

(٢٩) طبقات فحول الشعراء: ١ / ١٤٩.

(٣٠) اللسان: (سلم).

(٣١) أرجو ألا يسافر وهمُّ بعض الناس إلى أنني أنتقص بذلك من علم هذا العالم الجليل، حاشى لله، وله في قلبي حبٌّ كبير، ولكن هل من شرط العالم ألا يخطئ؟

من المشركين، فلققه عند الجمرة، فقال: إني أردت أن أتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله عز وجل ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجع فلن نستعين بمشرك. قال: ثم لحقه عند الشجرة، ففرح بذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكان له قوة وجلّد، فقال: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجع فلن أستعين بمشرك. قال: ثم لحقه حين ظهر على البيداء، فقال له مثل ذلك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم، قال: فخرج به»^(٣٢).

فهذه - كما ترى واقعة أخرى - قيلت في مشرك، لا في أهل كتاب بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ وموآثيق.

وبعد، فهذه واحدة من القضايا التي شوّش الرؤية فيها رواة ضعفاء، حاجبين عن الأعين ما صحّ من أخبارها، وسواها في تاريخنا كثير، تنتظر من يزيل عنها ما تراكم عليها على مرّ السنين من غبار الأوهام. ■

المصادر والمراجع

- أنساب الأشراف، تصنيف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ م.
- تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد

(٣٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٥١٥٨)، بإسناد صحيح، واللفظ له، ومسلم في صحيحه (١٨١٧).

الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق مصطفى أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، المملكة المغربية، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، للإمام الحافظ الكبير محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، مطبوع مع فتح الباري؛ شرح الحافظ ابن حجر العسقلاني، عناية عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ترقيم فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.
- دولة الرسول ﷺ في المدينة، تأليف الدكتور صالح أحمد العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- شرح مشكل الآثار، للطحاوي، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٥٥م.
- طبقات فحول الشعراء، تأليف محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م.
- الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق الدكتور علي

- محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
- لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- محمد (ﷺ) واليهود، نظرة جديدة، تأليف الدكتور بركات أحمد، ترجمة محمود علي مراد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، طبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند.
- مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزبيق، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله، طبعة دار الحرمين، الرياض، سنة ١٤١٥هـ
- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، تأليف الدكتور محمد حميد الله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.
- المغازي، لمحمد بن عمر الواقدي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.
- المغازي، لموسى بن عقبة، جمع ودراسة وتخريج محمد باقشيش، المملكة المغربية، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٢م.

شكري فيصل الأديب الذي جنت عليه السياسة ١٩١٨-١٩٨٥

أ. عيسى فتوح (*)

الأستاذ الدكتور شكري عمر فيصل أديب مرهف الإحساس، وناقد رصين، ومجمعي بارز، وأستاذ جامعي متميز، وسياسي جنت عليه السياسة... وُلد في حي العقبية بدمشق القديمة لأب حمصي الأصل، وأم دمشقية هي أخت العالم الشيخ محمود ياسين الذي كان صاحب ومدير (التهذيب الإسلامي) الابتدائية الخاصة، في حي (المسكية) قرب الجامع الأموي، وفي هذه المدرسة تلقى شكري دراسته الأولى، وفي بيت خاله نشأ وترعرع، وعلى يديه تربي، وفي مجاله تفتّح، وفي مكتبته كانت مطالعته كما يقول.

انتقل بعد ذلك إلى مدرسة (نموذج البحصة) الرسمية التي أصبح اسمها فيما بعد (مدرسة معاوية) ثم إلى (مكتب عنبر) لمواصلة دراسته الإعدادية والثانوية، حيث تلمذ للأستاذين زين العابدين التونسي (١٨٨٨-١٩٧٧) وأبي الخير القواس في السنتين الأولى والثانية، وللأستاذة محمد البزم (١٨٨٧-١٩٥٥) وسليم الجندي (١٨٨٠-١٩٥٥) وعبد القادر المبارك (١٨٨١-١٩٤٥) في السنوات التالية.

(*) باحث في الأدب واللغة من سورية.

حين نال شهادة الدراسة الثانوية بقسميها العلمي والفلسفي عام ١٩٣٨ التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وفي عام ١٩٤٤ نال شهادة الإجازة في الآداب بدرجة الامتياز، وكان الأول من خريجي تلك السنة، ولما عاد إلى دمشق درّس اللغة العربية في ثانوياتها، وواصل في الوقت نفسه دراسة الحقوق في الجامعة السورية، فنال الإجازة فيها عام ١٩٤٦.

أوفد عام ١٩٤٦ إلى جامعة القاهرة لتحضير الدكتوراه في الآداب، فعمل إلى جانب دراسته ملحقاً ثقافياً في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التي كان يشرف عليها الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤)، فكان شكري خير معين له في وضع الترتيبات التي آلت بالإدارة إلى ما دُعي فيها بعد بـ (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).

في ١/٧/١٩٤٨ نال شهادة الماجستير في الآداب بدرجة جيد جداً، وكان موضوع أطروحته (مناهج الدراسة الأدبية - عرض ونقد واقتراح)، وفي عام ١٩٤٩ حصل على دبلوم معهد اللهجات العربية (قسم اللغات الشرقية)، وفي ٢٥/١٠/١٩٥١ نال شهادة الدكتوراه في الآداب بدرجة جيد جداً، وكان موضوع أطروحته (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للهجرة - نشأتها ومقوماتها وتطورها اللغوي والأدبي)، ولما عاد إلى دمشق عيّن عضواً في لجنة التربية والتعليم المكلفة بتخطيط برامج التعليم ومراقبة الكتب المدرسية، وكان لا يترك لنفسه ساعة فراغ إلا أسهم بها في النشاط الثقافي للجمعيات والنوادي الدمشقية كجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الإخوان المسلمين، والنادي العربي وغيرها.

في عام ١٩٥٢ عيّن أستاذاً مساعداً للأدب العربي القديم في كلية الآداب بجامعة دمشق، وفي عام ١٩٥٦ صار أستاذاً بلا كرسي في الكلية، فأوفدته الجامعة إلى ألمانيا للزيارة والاطلاع، فتابع هناك دراسة اللغة الألمانية التي بدأها في جامعة

القاهرة، واختار بعض المخطوطات الموجودة في جامعات توبنغن وماربورغ وبرلين
لمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي عام ١٩٥٧ مثل سورية في مؤتمر الأدباء العرب الثاني الذي عُقد في (بلودان)
بسورية، وفي عام ١٩٥٨ مثلها في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في الكويت، حيث
ألقى بحثاً بعنوان (البطولة في الأدب العربي الحديث منذ سقوط بغداد حتى فجر
النهضة الحديثة)، وفي عام ١٩٦٠ سمي عضواً في المؤتمر العاشر لهيئة الدراسات العربية
في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث ألقى بحثاً بعنوان (ما أسهم به المؤلفون العرب
في المئة سنة الأخيرة في دراسة الأدب العربي)، كما حضر ندوة التعريب التي أقيمت في
ليبيا عام ١٩٧٤، حيث ألقى بحثاً بعنوان (عوائق في طريق التعريب) ومؤتمر الأدباء
العرب الذي عقد في ليبيا أيضاً عام ١٩٧٧، حيث ألقى بحثاً قيماً بعنوان (مشكلة اللغة
العربية في الأدب المعاصر)، وندوة اتحاد المجامع العربية التي عقدت في عمان عام
١٩٧٨، حيث ألقى بحثاً بعنوان (اللغة العربية خلال ربع قرن في ميدان التعلم
والتعليم)، وندوة التعريب التي عقدت في الخرطوم عام ١٩٧٩، حيث ألقى بحثاً
بعنوان (موقع الندوة في حركة التعريب) وندوة اتحاد المجامع العربية التي أقيمت في
الرباط عام ١٩٨٤، وكان بحثه فيها بعنوان (تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع
القرن الأخير)... والحقيقة أنه ما كان يتأخر عن الاشتراك في أي مؤتمر يدعى إليه، أو أية
ندوة يستطيع أن يساهم فيها ببحث أو دراسة...

لقد كان إصرار الدكتور شكري فيصل على حضور هذه المؤتمرات والندوات،
وتحقيق رغبات الداعين إليها، موضع لوم وانتقاد بعض أصدقائه، فقد اتهمه الدكتور
إبراهيم الكيلاني (١٩١٦-٢٠٠٤) بالسعي الدؤوب وراء المال والتعويضات
المادية، وهذا ما أرهقه وأوهن قلبه المريض أصلاً، ولم تتجاوز المدة الفاصلة بين آخر
بحث قدمه في ندوة المجامع العربية بالرباط ووفاته بضعة أشهر، فقد توفي يوم

السبت في الثالث من شهر آب ١٩٨٥ في مدينة (جنيف) بسويسرة إثر عملية جراحية في القلب، وفي العاشر منه نقل جثمانه إلى المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية حيث دفن فيها، وفي ٣٠/١٠/١٩٨٥ أقيم له حفل تأبيني في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق الذي كان عضواً فيه، تكلم فيه نخبة من رجال الأدب والفكر، منهم الدكتور عدنان الخطيب (١٩١٤-١٩٩٥) الذي تحدث عن عمله في الصحافة السياسية وانتقاله فيما بعد إلى الصحافة الأدبية.

فاتني أن أشير إلى أن الدكتور شكري فيصل رشح نفسه عام ١٩٥٤ للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق لكنه لم يوفق، فلما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ رشح نفسه للانتخابات (الاتحاد القومي) فنجح، ولم يلبث أن ظهر اسمه في عداد أعضاء (مجلس الأمة) عن سورية... وفي عام ١٩٦١ اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، واستقبل في جلسة علنية في الأول من شباط ١٩٦٢، واحتل المقعد الذي خلا بوفاة الأستاذ الرئيس خليل مردم بك (١٨٩٥-١٩٥٩)، وأسندت إليه عضوية لجنتي المجلة والمطبوعات والمخطوطات وإحياء التراث، وفي عام ١٩٧٢ انتخب أميناً عاماً للمجمع، ولم يمنعه هذا المنصب من متابعة التدريس الجامعي في كل من جامعة دمشق، والجامعة اللبنانية في بيروت، والجامعة الأردنية في عمّان، وتحقيق مخطوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر، ووضع البرنامج لإتمام تحقيقه بمشاركة بعض الزملاء... وكان من قبله قد عُهد إليه بتحقيق قسم شعراء الشام من كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني بأجزائه الأربعة التي صدرت بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٨.

لقد استهوت السياسة الدكتور شكري منذ أن كان طالباً في المرحلة الثانوية، فكان من رواد الحركات الطلابية في مكتب عنبر منذ أن انتسب إليه عام ١٩٣١، ولذلك انتمى عام ١٩٣٣ إلى (عصبة العمل القومي)، ولما أصدرت هذه العصبة

جريدة (العمل القومي) في السادس من حزيران ١٩٣٨ لتكون لسانها الناطق، وكلفت المجاهد عثمان قاسم برئاسة تحريرها، أخذ شكري يكتب زواياها، وينشر تعليقاته فيها، إما باسمه الصريح، أو باستعمال بعض الأسماء المستعارة، وكان أحياناً يستقلُّ بتحريرها ويصححها ويدفعها إلى المطبعة بمفرده، إلى أن توقفت في أوائل الحرب العالمية الثانية، فترك الصحافة السياسية واتجه إلى الصحافة الأدبية، فكتب في مجلات الرسالة والثقافة والأديب والآداب... والمعرفة والموقف الأدبي، ومجلة مجمع اللغة التي كتب فيها ستة وعشرين مقالاً بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٨٠.. وقد اتسمت مقالاته بالجدية والعمق والإحاطة والدقة والفهم والوعي، فقد كان الدكتور شكري أديباً موهوباً وناقداً بليغاً، أوتي قلماً سيالاً، وأسلوباً مشرقاً وجذاباً تأثر فيه بأسلوب طه حسين، وكان يقول:

«أعتقد أن العناية بالأسلوب بعناية لا تكلف فيها يجب أن تكون موضع اهتمامنا، فالأفكار الطيبة، والنتائج القيمة، والأبحاث التي استنفدت الجهد، يجب ألا تبرز للناس في ثوب مهلهل». ولا يشك الأستاذ عبد الغني العطري (١٩١٩- ٢٠٠٣) في (أن شكري فيصل كان أديباً ذوّاقاً وموهوباً، يتمتع بأسلوب قلّ نظيره بين الأدباء العرب قديماً وحديثاً، تأسرك كلماته الرقيقة، وتسحرك جملة وألفاظه... ولا غرابة فقد تلمذ عند عميد الأدب العربي طه حسين، فأعجب بأسلوبه وأحبه حتى العشق، فثابه الأسلوبان، وامتزجا امتزاجاً عجيماً، حتى لم يعد من السهل على الباحث أو الناقد أن يميز بين الأسلوبين... لقد غدا أسلوب شكري نسخة ثانية عن أسلوب أستاذه طه حسين، فقد ترسّم خطاه في أسلوبه الساحر، حتى جرى مجرى الطبع فيه، وصار جزءاً من أدبه، وعلامة بارزة في كل ما كتب وأبدع...).

أستاذي شكري فيصل

عرفت الأستاذ الدكتور شكري فيصل عام ١٩٥٨ حين كنت في السنة الثانية

بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق، يوم كان يلقي علينا محاضرات عن (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة) وفي السنة الثالثة انتقل بنا إلى دراسة الأدب العباسي حيث درسنا عليه ثلاثة من شعراء هذا العصر هم: بشار بن برد، وأبو العتاهية، وأبو نواس، فكان يختار لنا نصوصاً من دواوينهم فيحللها ويشرحها ويبين خصائصها الفنية، وصورها، مستعيناً بذاكرته الخصبية، وحافظته الجيدة، وموهبته الخارقة... فقد كان بارعاً جداً في تحليل النصوص التي يقلبها على شتى وجوهها، ويعتصر زبدة ما فيها من أفكار وخصائص وميزات، وكثيراً ما كنا نقضي ساعتين أو أكثر في دراسة النص الواحد الذي لا تتجاوز أبياته العشرة، فيأتي بأفكار ومعاني واستنتاجات كنا نستغرب كيف يفتن بها، ويصطادها خياله الخلاق المبدع...

لا أذكر أنه حمل في حقيبته يوماً درساً مكتوباً، أو في جيبه ورقة وضع عليها رؤوس أقلام بل كان يمتح كلامه من ذاكرته الحية، وقر يحته الفياضة... كان يتحدث بيسر وطلاقة وكأنه يغرف من بحر زاخر، لا يتردد ولا يتلجلج، لا يريد أن يقاطعه أحد من طلابه حين يكون مستغرقاً في الكلام، لئلا يقطع عليه سلسلة أفكاره، أو يعكر انسجامه في تحليل النصوص، أو سبحاته التي يغيم في ضبابها، محللاً وشارحاً ومفسراً، وما زلت حتى اليوم أحتفظ بمعظم ما أملاه علينا من محاضرات غير مكتوبة سابقاً، وأتمنى أن تتولى طباعتها إحدى دور النشر في الوطن العربي، حفاظاً على آثاره التي لم تجمع، ولا يزال أكثرها مبعثراً في بطون الصحف والمجلات العربية. ومهما نسيت فلن أنسى يوم زرته في منزله، واطلعت على محتويات مكتبته الضخمة التي كانت تغص بالآلاف المؤلفة من الكتب التراثية والمراجع الأساسية، ورأيت السلم الذي كان يستعمله للوصول إلى الرفوف العالية المحاذية لسقف المنزل، ولست أدري ماذا حل بهذه المكتبة الغنية التي أفنى زهرة شبابه في تجميع محتوياتها، فقد أغلقت بعد

اضطراره إلى مغادرة دمشق والإقامة في المملكة العربية السعودية.

* * *

بعد أن أنهيت دراسة السنة الثانية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب عام ١٩٥٨، سافرت لقضاء عطلة الصيف في بلدتي (مشتى الحلو). دفعني تأثري به، وإشفاقي عليه من مواصلة العناء والسفر والسهر أن أكتب إليه رسالة أدعوه وأرجوه فيها أن يرأف بنفسه ويرتاح قليلاً في ربوع المشتى الجميلة، فأجابني برسالة تحمل تاريخ الثلاثاء ٢٩ تموز ١٩٥٨ هذا نصها:

عزيزي عيسى:

شكرت لك رسالتك الأخيرة، وإن جاءت متأخرة فيما تظن... ذلك أن كل شيء في حياتنا ينسحب على الصيف، حتى ليوشك أن يأكل... إننا في نهاية شهر تموز، ومع ذلك فلا يزال عندنا بعض الاجتماعات في مجلس الكلية، وبعض الرسائل، وبعض الأعمال الأخرى.

إن توتر الجو الدولي أنساني وألهاني عن أمر السفر، إلى جانب مشاغل الكلية، وحين أفكر اليوم أتساءل: هل في وسعي أن أخطو في ذلك خطوة جريئة؟ أمامي بحث مستعجل... وأعمال أخرى تتصل ببعض المخطوطات، ولا أدري كيف أتجاوز ذلك، يبدو لي على كل حال أنني سأخذ باقتراحك الأخير، أن أزور الضيعة وحدي... وقد أصطحب زوجتي دون الأولاد.

أما متى يكون ذلك... فلا أدري.. ولك أن تنتظر مني رسالة في هذا.. قبل السفر. وعلى كل حال فلن أكون من عدم القدرة بحيث لا أستطيع أن أوّمن لنفسي بيتوتة ليلة أو ليلتين وفي نيّتي أن أكتب لك مرة أخرى. أكرر لك الشكر والتحية، وأحمد الله على عافيتك من الوعكة التي ألمت بك، والسلام عليك ورحمة الله.

شكري فيصل

وبعد أن تخرجت في كلية الآداب عام ١٩٦٠ وعملت في التدريس والكتابة والتأليف، أنجزت كتاباً مخطوطاً بعنوان (أديب إسحاق باعث النهضة القومية)، فخطر لي أن أرسله إليه ليكتب مقدمته، فأجابني برسالة مؤرخة في ١٢ / ١٠ / ١٩٦٩ معترداً بلباقته المعهودة عن كتابة المقدمة قائلاً:

عزيزي الأستاذ عيسى:

تمنيت مخلصاً أن أفرغ لبحثك القيم هذا مدة من الزمن، تساعدني على أن أتمثل كل ما فيه، ثم أن أكتب عنه... ولكنني وجدته في دوامة من المشاغل التافهة الصغيرة التي تمتص الوقت، ولا تغني عن الحق شيئاً. ولقد تخطيت كل صعوبة فقرأت في جلسة واحدة قدراً صالحاً اجتذبتني واستماني، ولكن العوائق كانت فوق ما أقدر على مطاردته.

إني أقضي هذين الأسبوعين وسط ضجيج السفر الذي أرجو أن تيسر لي أسبابه قريباً، وبين ضجيج داخلي هو هذه المشاعر التي تملك الإنسان وهو يهيم أن يغادر وطنه، وأن يتعد عن مغانبه.

لهذا أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أنني حينذاك سأخسر متعة السبق إلى ذلك.

أتمنى لك أطيب الحظوظ من التوفيق في عملك هذا وفي أعمالك الأخرى، ولنا في الصيف المقبل إن شاء الله فرص كثيرات.

شكري فيصل

* * *

تعمدت نشر هاتين الرسالتين لأظهر من خلالهما مدى تقدير الأستاذ الدكتور شكري فيصل لطلابه، مع أنني كنت في عام ١٩٥٨ لا أزال في السنة الثانية من دراستي الجامعية، فهو لم يهمل رسالتي، بل أجاب عنها بكل مودة واحترام وتقدير،

واعذر بلطف ولباقة عن عدم إجابة دعوتي لقضاء بضعة أيام في ضيافتي.
أما الرسالة الثانية التي كتبها لي بعد إحدى عشرة سنة من كتابة الأولى، فقد كانت
ترجماناً أميناً لما كان يعانيه من ضغوط العمل، وكثرة المشاغل والأعباء والأسفار، ولما
كان يحمله في قلبه من قلق وهموم لفراق أسرته ووطنه، فقد كان طوال حياته في حلٍّ
ومرتحلٍ... كما كانت تعبيراً صادقاً عن اللباقة والدماثة والشفافية التي كان يتمتع بها،
والتهذيب الرفيع المتأصل فيه، وهل أجمل وأرق من قوله:
«أتمنى أن تتاح لي فرصة قراءة الكتاب مطبوعاً، وإن كنت أعتقد أنني حينذاك
سأخسر متعة السَّبْقِ إلى ذلك»..؟



التعريف والنقد

من أمالي محمود محمد شاكر^(١)
على كتابي الأصمعيات والكامل للمبرد

قراءة في دفتر قديم (٤٢٢ ص)

إعداد

د. يعقوب الغنيم

وزارة الأوقاف بالكويت ٢٠١٣

أ. د. عبد الإله نبهان^(*)

كان أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي (١٢٢-٢١٦هـ) قد أَلَفَ عددًا من كتب اللغة ، وكان واسع العلم بشعر العرب وأخبارهم، وترك لنا كتابًا جمع فيه اختياراته من شعرهم، وُسم بأنه اختيارات الأصمعي، وعُرف في

(١) محمود محمد شاكر / ١٩٠٩-١٩٩٧ /، أبو فِهر، من أسرة علمية من صعيد مصر، كان أبوه وكيلاً للجامع الأزهر، وُلد بالإسكندرية، وتحول مع أبيه صغيرًا إلى القاهرة، قرأ على الشيخ سيد بن علي المرصفي (ت ١٩٣١)، ثم دخل كلية الآداب في الجامعة المصرية، وترك الدراسة فيها؛ لنشوب خلاف بينه وبين الدكتور طه حسين (ت ١٩٧٣) في موضوع الشعر الجاهلي، انتُخب عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة / ١٩٨٣ /، وعضوًا مراسلًا بمجمع دمشق سنة / ١٩٧٧ /، وكان عضوًا في المجلس الاستشاري لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن سنة / ١٩٩١ /، ونال جائزة الدولة التقديرية سنة / ١٩٨٣ / . من كُتبه «أباطيل وأسار».

يُنظر: أحمد العلاونة ذيل الأعلام ٢: ١٨٤، ١٨٥، جدة، دار المنارة، ٢٠٠٢.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عصرنا باسم «الأصمعيات»، أو «اختيار الأصمعي»، وقد اشتملت على اثنتين وتسعين قصيدة لنحو من سبعين شاعرًا معظمهم من الجاهليين، ويبدو أن القدماء لم يعنوا بوضع الشروح عليها، وانصرفت عنايتهم إلى «المفضليات» للمفضل الضبي^(٢) (ت ١٦٨هـ).

وقد حظيت «الأصمعيات» في عصرنا بعناية: العلامة الشيخ محمد أحمد شاكر (ت ١٩٥٨)، والعلامة عبد السلام هارون (ت ١٩٨٨)، فإنهما عنيا بتحقيقها وتدقيقها وضبطها وفهرستها، وفصلاً القول في ذلك في مقدمتها، واعتمدت طبعتهما هذه لدى العلماء وصانعي المختارات، لكنها لم تحظ بالشروح ولا بالتعليقات، وكان من حسن الطالع أن طلعت علينا وزارة الأوقاف بالكويت عام ٢٠١٣ بكتاب حمل عنوان «من أمالي محمود محمد شاكر على كتابي الأصمعيات والكامل للمبرد»، والكتاب من إعداد الدكتور يعقوب الغنيم.

وخبر هذا الكتاب بإيجاز يعود إلى عام ١٩٥٧ عندما كان الدكتور يعقوب طالباً في مصر، وكان هو ومعه نفر من طلبة العلم من دول عربية مختلفة يُلازمون مجلس العلامة المرحوم محمود محمد شاكر الذي فتح بيته، وبذل مكتبته لطلاب العلم الراغبين فيه، وقد طلبوا منه تقديم درس أسبوعي ثابت^(٣)، فحدّد لهم يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكانت البداية يوم الثلاثاء

(٢) ابن الأنباري، محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ)، له شرح كبير مطبوع على «المفضليات»، وكذلك التبريزي يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) له شرح عليها مطبوع أيضاً، وكذلك الميداني أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ).

(٣) كان من هؤلاء بعض أعضاء مجمعنا فيما بعد: أستاذنا العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ (ت ١٩٩٢)، وأستاذنا العلامة المرحوم الدكتور شاكر الفحام (ت ٢٠٠٨)، ومن أعضائه المرسلين فيما بعد: الدكتور ناصر الدين الأسد من الأردن، والدكتور إبراهيم شيوخ من تونس.

الموافق ١٩ / ١٠ / ١٩٥٧، وارتأى الأستاذ أن يُدرّس هؤلاء الراغبين في العلم كتاب «الأصمعيات».

وضّح الدكتور يعقوب الغنيم المنهج الذي اتبعه الشيخ محمود في تدريسه؛ وذلك بأن يشرح القصائد منفردة، أو يجمع بعضها إلى بعض إذا كان هناك ارتباط واضح بين قصيدة وأخرى، وغاب عن الرواة أن يجعلوا القصيدتين قصيدة واحدة، كما حدث في القصيدتين: (٢٥) لكعب بن سعد الغنوي، و(٢٦) لغريقة بن مسافع العبسي، ثم يقوم بما يلي:

١- تبيان مصادر القصائد في مظانها في كُتب الأدب واللغة، وهو في هذا لا يغيب عنه أن يذكر حتى البيت المنفرد إذا وجدته في أحد المصادر.

٢- الحديث عن الشاعر مع بيان موقع القصيدة في بقية شعره إذا كان له ديوان أو مجموعة وافرة من القصائد.

٣- ترتيب أبيات القصائد اعتماداً على درايته بالشعر العربي وفهمه له، بحيث تحافظ القصيدة على وحدتها وتسلسل أفكار قائلها، حتى إذا قرأها القارئ بعد ذلك أيقن أن هذا الترتيب هو الأقرب إلى الصواب وإلى طبيعة الكلام.

٤- ثم يقوم بشرح معاني الأبيات وتبيان معانيها بتفصيل كامل.

٥- خلال الدرس يعرض الأستاذ بعض المعلومات التي يستدعيها عرض معاني الشعر، ويردّ على استفسارات طلابه.

وقدّم الدكتور الغنيم لكتابه بحديث: عن العلامة محمود شاكر، وعن الدراسات التي كُتبت عنه، وعن زيارته للكويت، وعمّا ابتلي به من اعتقال واضطهاد.

بقي أن نذكر أن الدكتور الغنيم كان قد دوّن كلام الشيخ في أربعة دفاتر بقيت هاجعة عنده عدة عقود، إلى أن آن أو ان إحيائها وبعثها.

ويمكن أن نعرض الآن لإحدى قصائد «الأصمعيات» في هذه الأمالي؛ لنرى كيفية تطبيق المنهج المشار إليه، ولنأخذ القصيدة الأولى، وهي قصيدة سُحيم بن وثيل الرياحي^(٤) (ت نحو ٦٠هـ)، أحد بني حمير، وهي في أحد عشر بيتاً.

«بدأ الشيخ بقراءة القصيدة مُقسماً إياها إلى أقسام، ثم تحدّث عن الشاعر فقال: المراجع التي ورد فيها ذكر سحيم بن وثيل الرياحي هي: طبقات فحول الشعراء ص ٥٧، وكذلك الشعر والشعراء ص ٦٢٦، والإصابة في معرفة الصحابة: القسم الثالث، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وفي لباب الآداب لابن منقذ (ت ٥٨٤هـ) بيتان لعمر بن لبيد الرياحي، هما:

أَبْلِغْ إِهَابًا كُلَّهَا وَإِهَابَهَا وَشَرُّ صَدِيقِ الْمَرْءِ مَنْ لَا يُعَابِئُهُ
فَمَا تَرَكَتْ أَحْلَامُكُمْ مِنْ صَدِيقِكُمْ لَكُمْ مِنْ أَخٍ إِلَّا قَدِازُورَ جَانِبُهُ
ويُرى خبر سحيم أيضاً في: النقائص ص ٤١٨، وكذلك في الأغاني ١٢: ١٣٠،

كما ورد ذكره في ترجمة عبد الله بن الحارث بن نوفل في كتاب طبقات ابن سعد.

هذا ما بدأ به الشيخ تعليقاته على قصيدة سحيم، ومن الواضح أنها تعليقات قُصد بها التوثيق، فقد ذكر المصادر الأساسية التي ورد فيها ذكر الشاعر مبتدئاً بأقدمها، وهو «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، ثم بدأ بعرض القصيدة ليقف لدن بعض الأبيات، ويشرح بعض العبارات.

لم يقف الشيخ عند البيت الأول، وهو بيت مشهور كان الحجاج بن يوسف استهل به إحدى خطبه المشهورة وهو:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

(٤) شاعر مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام، وناهز عمره المئة، كان شريفاً في قومه، نابه الذكر، قال ابن دريد: «عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام»، وكانت له مفاخرة مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق. (عن الأعلام).

ووقف لدن البيت الثالث:

وَإِنِّي لَا يَعُودُ إِلَيَّ قِرْنِي غَدَاةَ الْغَبِّ إِلَّا فِي قَرِينِ

قال الشيخ: «وللقرين عدة معان منها: الحبل، والصديق، والسجين المقرون»، وذكر أن كُتِبَ اللغة اقتضرت على القرين بمعنى الحبل، والقرن هو الحبل الذي تُقرن به الدابة، ونقل عن ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتاب «المعاني الكبير» ص ١٠٢٥، قوله: «(غداة الغبّ) معناها إذا غمزه وثبت معه يوماً وليلة لم يصبر، فلا يعود معه أبداً إلا وهو مقرون، أي أسير مربوط، وقوله: (إلا في قرين)، قد قرّن إليه من الأسرى، بمعنى مربوط».

والشيخ في هذا التعليق قدّم معنىً للبيت متفقاً والسياق الذي قيل فيه، ولم يُقدِّم شرحاً مُحَقَّقِي «الأصمعيات» - على فضلها وتقدمها - مثل هذا المعنى، فقد اكتفيا بالقول: «(القرين) المقارن والمصاحب، و(في) بمعنى (مع)، أراد أن قرنه لا يُقاومه من الغد إلا مستعيناً بغيره»، وشتان بين المعنيين، فقد اقتصر المحققان على الشرح المعجمي، واعتمد الشيخ المعنى السياقي، فبلغ بذلك إلى المقصود، وأصاب المحزّ والمفصل كما يُقال.

وقد يقترح الشيخ كلمة مكان كلمة في تعليقاته، لكنه لا يغير الكلمة الأصلية محافظة على الرواية، ففي البيت السادس:

وَمَاذَا يَدَّرِي الشُّعْرَاءُ مِنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ

رأى الشيخ أن كلمة (يتغي) هنا أفضل من (يدري)، والمقصود بقوله (رأس) حدّ، وهذا اللفظ أفضل.

ولم يقف الشيخ عند البيت العاشر والحادي عشر، وذكر عوضاً من ذلك ثلاثة أبيات مما لم تذكره «الأصمعيات»، قال: «وهذه الأبيات ساقطة من الأصمعيات، وقد وردت في كتاب خزانة الأدب ١: ١٢٦، الطبعة القديمة،

وشرح أبيات مغني اللبيب ١: ١٢٧، وهذه الأبيات هي:

مَتَى أَحْلُلُ إِلَى قَطْنٍ وَزَيْدٍ وَسَلْمَى، تَكْثُرُ الْأَصْوَاتُ دُونِي
وَهَمَّامٌ مَتَى أَحْلُلُ إِلَيْهِ مَحَلَّ اللَّيْثِ فِي عَيْصِ أَمِينِ
أَلْفَ الْجَانِبَيْنِ بِهِ أُسْوَدُ مُنْطَقَةً بِأَصْلَابِ الْجُفُونِ

قال الشيخ: «يقول في هذه الأبيات الثلاثة أنه متى نزل بديار (قطن) و(زيد) وهما خالاه، أو (سلمى) وهي خالته، فإن أصواتهم تعلو بتحيته والترحيب به، و(همام) هو عمه، و(العيص): الشجر الملتف من جانبيه فيه أسود هم جماعته، وقد حزموا أمرهم للحرب بسيف لا تكل، و(أصلاب الجفون): الأصلاب السيور التي تُعلق بها الجفون، وهي قراب السيف».

ثم أورد كلاماً مفصلاً عن الشاعر وعن حياته، وذكر خبر مفاخرته غالب ابن صعصعة والد الفرزدق، وذكر شيئاً مما ذكرته المراجع من شعر لسحيم، ثم أورد مقارنة لترتيب أبيات القصيدة التي على النون - موضوع البحث - في أربعة مراجع إضافة إلى «الأصمعيات»، وقد خرج كل بيت من أبياتها، فاليبت الأول مثلاً ورد في: العقد الفريد ٤: ١٢٠ / ٥: ٣٤٢، والكامل للمبرد ١٣٢ - ٢٢٦، ورغبة الأمل ٣: ٣٦، وكتاب سيبويه ٢: ٧، والأغاني ١٣: ١٣٢... وهكذا، ثم ذكر اختلاف الروايات في كل بيت من أبيات القصيدة مع تعليقات لغوية أو تاريخية إذا اقتضى الأمر.

كانت الأصمعية التاسعة والعشرون هي آخر القصائد الأصمعية التي حظيت بتعليقات الشيخ، وهي قصيدة لدريد بن الصمة جاءت في ستة عشر بيتاً في «الأصمعيات»، وزاد عليها الشيخ بيتاً، فأضحت سبعة عشر بيتاً، وقدم لها مُعرِّفاً بمناسبة، ومُلخِّص ذلك أن دريداً قالها بعد أن ثار لمقتل أخيه، يفخر بها، ويتشفى من القاتل المقتول على يده، ويهدد أعداءه بإعادة الكرة عليهم.

وسنعرض لشيء مما ورد في ذلك:

يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ أَبَا غَالِبٍ أَنْ قَدْ ثَارَتْ بِغَالِبِ
فَتَلْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُوَابَ بْنِ أَسْمَاءَ بْنِ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ

قال الشيخ شاكر: «في اللسان، مادة (جفن): قتلنا بعبد الله، والصواب كما ورد في الأصمعيات. (اللدة): التُّرْبُ الذي وُلِدَ مع الشخص بما يُعادله في السن، وقد روى أبو عبيدة أن عبد الملك بن مروان (أحد خلفاء بني أمية عبد الله) استمع إلى هذا البيت، فقال: كاد دريد أن ينسب ذؤاب بن أسماء، إلى آدم». ثم ذكر دريد القبائل التي هزمها وحاربها؛ ثارًا لأخيه، فذكر: عبسًا، ومرة، وأشجع، وثعلبة، وفزارة... وكان الشيخ يقف لدن كل بيت، ويُفسر ما يرى أنه يلزم تفسيره، وقد يُعلّق أو يستدرك، ففي البيت الثالث عشر، وهو البيت السابع من المطبوعة:

وإن تُسْهِلُوا لِلخَيْلِ تُسْهِلْ عَلَيْكُمْ بِطَعْنِ كَايَزَاغِ المَخَاضِ الضَّوَارِبِ
قال: «(المخاض) النوق الحوامل، (الايزازغ) إخراج البول دفعة بعد دفعة، يُقال: أيزغت^(٥) الناقة في بولها، دفعته، والطعنة توزغ بالدم: تُخرجه دفعة دفعة». وفي هامش «الأصمعيات» ذكر المحققان أن معنى (الضوارب) في هذا البيت (اللواحق)، وصحح ذلك بقوله: «(الضوارب) التي تضرب بأذانها». ومن الجدير بالذكر أن الشيخ رتب أبيات القصيدة ترتيبًا خالف فيه ترتيب «الأصمعيات»، وقد حدث هذا في عدة قصائد.

هذه لمحة عامّة إلى أمالي الشيخ شاكر على «الأصمعيات»، وسنعرض في لمحة أخرى لأماليه على كتاب «الكامل».

(٥) في تاج العروس: أوزغت الفرس إيزاغًا.. ووَزَعَتِ الناقة ببعلها كأوزَعَتْ به [المجلة] (*).

أضواء على المشكلة اللغوية العربية

للدكتور محمد عبده فلفل

د. فاتن كوكة(*)

لا يخفى على أيِّ باحث في اللغة العربية علو شأنها، وأهمية مكانتها التي اكتسبتها من تضافر عدة عوامل؛ فهي لغة القرآن الكريم، وهي لغة التراث الفكري والحضاري الذي اتسمت به الأمة العربية، وهي وسيلة التواصل الاجتماعي، والتعبير الصادق عمّا في القلب والعقل، وهي رمز من رموز الانتماء الوطني والقومي.

من هؤلاء الباحثين العلماء المختصين بدراسة شؤون العربية الدكتور الفاضل محمد عبده فلفل الذي ألقى الضوء على مجموعة من القضايا اللغوية، ونبّه على جوانب متعددة من المشكلات اللغوية التي تعترض لغتنا العربية، وعرضها في كتابه (أضواء على المشكلة اللغوية العربية) ضمن ثمانية مباحث مهمة جاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: وعي المشكلة اللغوية.

المبحث الثاني: العربية من وجهة نظر الآخر.

(*) عضو الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق.

المبحث الثالث: اللغة العربية بين الثبات والتغير.

المبحث الرابع: من آثار القياس الخاطيء في اللغة العربية.

المبحث الخامس: قراءة عملية في لغة الصحافة السورية.

المبحث السادس: ما جاء على (فعال) من اسم الآلة.

المبحث السابع: في الدلالة الإسنادية للفعل.

المبحث الثامن: الإعراب من الوجهة الوظيفية.

سنحاول ضمن السطور التالية أن نبين فحوى كلّ مبحث، ونناقش ما تحدّث عنه المؤلّف، وما وصل إليه من النتائج، سعياً وراء إظهار أهمية هذا الضرب من المصنّفات التي تتبنّى القضايا اللغوية، وتعرضها بموضوعية وحيادية، وتقدّم الحلول للمشكلات التي تعاني منها، وتعبر عن الوعي العميق لأدقّ تفاصيلها، وتلتزم المنهج العلمي في عرضها ومناقشتها.

ففي المبحث الأول وقف المؤلّف على ضرورة استيعاب المشكلة اللغوية العربية، وهو أمر يتحقق بوجود الوعي اللغوي الذي يكشف النقاب عن الشخصية الثقافية لأبناء الأمة العربية الناطقين بلغة الضاد، ويظهر التكوين الفكري عندهم.

يتجلى هذا الوعي بإدراك أهمية اللغة العربية، وبالإيمان الراسخ بسمو مكانتها بين اللغات الأخرى، وقدرتها على الاستمرار والتجدد ومواكبة التطور العلمي والتقني، وبالفهم العميق لأسرارها وقضاياها والمشكلات التي تعاني منها.

وقد أشار المؤلّف إلى فكرة مهمة مفادها أن الوعي اللغوي يُظهر أهمية اللغة في حياتنا على المستوى الفردي والاجتماعي والحضاري والديني والسياسي والقومي، ويشكّل قاعدة ثابتة ينطلق منها المرء لدراسة مقوّمات

استمرار اللغة العربية، والمعوقات التي تعترض سبيلها.

وهذا ما تحدّث عنه د. فلل حين ذكر أن مقومات استمرار اللغة العربية هي:

أ- نضج اللغة العربية، واستدّل على ذلك بأنّ لغتنا العربية كانت وما

زالت قادرة على التعبير عن المظاهر الحضارية العربية والإسلامية في

مختلف أشكالها، وقد كانت لغة عالمية واسعة الانتشار في الحقبة الزمنية

التي بلغت فيها الحضارة العربية الإسلامية قمةً تألّقها ومجدها.

ب- قدرة اللغة العربية على إيجاد صيغ، وتوليد تراكيب لغوية جديدة

تستوعب مستجدات الحياة. وتطوّر العلوم أمرٌ بالغ الأهمية، لأنه يؤكّد

قدرة اللغة العربية على التجدّد والاستمرار، ومواكبة التطوّر ومعطيات

الحياة الجديدة في ميادينها كافة.

وهذا لا يعني ابتكار صيغ وأوزان جديدة لا عهد للعربية بها، أو تبديل

نظام الجملة العربية، أو تغييره، بل يعني استثمار الطاقة التوليدية الكامنة في

المستويين النحوي والصرفي للجملة.

فاللغة العربية شأنها شأن كل لغة كاملة النضج، تحمل عنصر التجدد إن

استطاع أبنائها الإفادة من منهجها في القياس والاشتقاق، والنحت والتعريب،

والمجاز والتطوّر الدلالي، وغير ذلك من مظاهر التوسع اللغوي والنماء اللفظي.

وقد أشار المؤلف إلى جانب مهم يتعلّق بالتنمية اللغوية وأهميتها، فالحياة

المعاصرة في تجدد مستمر، وهذا الأمر يتطلّب تنمية لغوية تتجلى في توسّع

مدروس لمفردات اللغة، ويتطلب أيضاً تجديداً قائماً على قواعد ثابتة ألفتها أبناء

اللغة ودارسوها.

وقد بيّن المؤلف أن التنمية اللغوية للغة العربية تحتكم إلى مجموعة من

عوامل حصانة اللغة العربية، تلك العوامل مرتبطة بمرجعية معيارية نظرية تمثلها مجموعة القواعد والأحكام النازمة للغة العربية، ومرجعية معيارية عملية تمثلها المدونة اللغوية العربية والإسلامية الممتدة من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا.

في هذا السياق نبه المؤلف على أمر مهم يتعلّق بالمرجعية المعيارية النظرية، وهو ضرورة الفصل بين الدرس العلمي للغة العربية والدرس التعليمي لها، والابتعاد عن الخلط بينهما، فثمة فرق كبير بين عرض القواعد ومراعاتها في النحو التعليمي التعلّمي واستقراء النصوص واستنباط القواعد منها في النحو العلمي.

وإن حصانة اللغة العربية من مقومات استمرار اللغة العربية التي ذكرها د. فلفل، وبين ارتباطها بما سبقت الإشارة إليه من المرجعية المعيارية النظرية والمرجعية المعيارية العملية إلى جانب ما تمتاز به العربية من رصيد بشري، وانتشار جغرافي واسع. فكل ذلك يصون اللغة العربية ويحميها، ويحصنها، ويمكن لها في حاضرها ومستقبلها. تجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتور فلفل قد ذكر في كتابه تحت عنوان (الرصيد البشري للغة العربية) في الصفحة (٢٠) أن عدد سكان الوطن العربي (١٦٠) مليون نسمة معتمداً في ذلك على ما أورده محمود فهمي حجازي في بحث من مقتنيات مجمع اللغة العربية، والظاهر أن هذه الإحصائية قديمة، فعدد سكان الوطن العربي يبلغ حالياً نحو (٣٠٠) مليون نسمة.

في مقابل ذلك بين المؤلف المعوقات التي تقف في وجه استمرار اللغة العربية وتشكل حجرة عثرة أمامها، فتحدّث عن التقصير في الإعداد اللغوي لإتقان المستوى الفصيح المأمول من اللغة، وأشار أيضاً إلى ما تتعرض له اللغة العربية من مزاحمة لغوية سواء من اللهجات المحليّة، أم من اللغات الأجنبية

كالإنكليزية والفرنسية، في مختلف الميادين الإعلامية والإعلانية والتعليمية. وتحدث المؤلف أيضاً ضمن المعوقات عن القصور والاضطراب الذي يعتري بعض قواعد الإملاء العربي، كالاختلاف في رسم الهمزة، وكتابة الألف بين المد والقصر، وعدم كتابة ما يُلفظ، وكتابة ما لا يُلفظ، إلى جانب الحالات الشاذة التي خالفت القاعدة لأسباب غير مقنعة.

والمهم في هذا الأمر أن هذا المعوق قابل للإصلاح ببذل الجهود التي ينبغي أن تُدعم بتطبيق عملي يستند إلى قرار واحد موحد ومسؤول يُعنى بحلّ مشكلات الإملاء العربي.

ضمن الوعي العميق للغة العربية أتى المؤلف على ذكر أمر مهم يتعلق باللغة، وهو مستقبل اللغة العربية الذي سيكون زاهراً بنشر الوعي اللغوي السليم بين أبناء الأمة العربية، وبتضافر الجهود الحثيثة الساعية إلى تحقيق نهضة علمية شاملة قائمة على تعريب العلوم، وترسيخ الانتماء الحقيقي للغة العربية، واستشعار أهميتها في جميع النواحي.

أما المبحث الثاني فهو يتناول العربية من وجهة نظر الآخر، وقد نبّه د. فلفل منذ البداية على أمر مهم يتعلق بضرورة الوقوف على رأي الآخر في لغتنا، لأنه لا يُخشى عند الأجنبي عن اللغة من التأثير بها، أو برسالتها الحضارية والقومية، يُضاف إلى ذلك أن ابن اللغة قد يفقد القدرة على ملاحظة ما يستدعي الوقوف عنده من ظواهر وإشكالات لغوية لطول ألفته لها، أما الأجنبي عنها فهو قادر على ملاحظة الجوانب اللغوية المشكلة منها، وحريص على رصدها لإحساسه بالفروق اللغوية الدقيقة بينها وبين لغته.

وقد عرض المؤلف وجهة نظر الآخر في لغتنا العربية عرضاً وافياً من

خلال المسائل التالية: العربية من حيث النضج والكفاءة، العربية بين الثبات والتغير، العربية في ميزان اليسر والعسر، العربية بين لهجاتها، العربية في علاقتها باللغات الأخرى.

في المبحث الثالث تحدّث المؤلّف عن اللغة العربية من حيث ثباتها وتغيرها، واستفاض في عرض آراء اللغويين الغربيين المتعلقة بالتطور اللغوي، وانتقل بعد ذلك إلى تطوّر اللغة العربية ضمن المستويات الدلالية والنحوية والصرفية.

فالتطور ضمن المستويين النحوي والصرفي لا يعني اختراع صيغ وأوزان لا عهد للعربية بها، ولا يعني تبديلاً في نظام الجملة، أو تغييراً في التراكيب النحوية المألوفة.

إن ثبات البنية النحوية والصرفية لا يعني جمودها وعجزها عن استيعاب معطيات الحضارة الحديثة، فضمن هذين المستويين (النحوي والصرفي) ثمة طاقة كامنة توليدية كفيلة بإظهار التطور اللغوي عن طريق التطبيق السليم للمنهج اللغوي في القياس والاشتقاق والنحت والتعريب والتطور الدلالي للألفاظ.

أما التطور ضمن المستوى الدلالي فهو مرتبط بتغير معاني المفردات بسبب تعيّر الأحوال الاجتماعية والبيئية، وتطور المظاهر الحضارية والجوانب العلمية. يُضاف إلى ما سبق ارتباط تعيّر دلالات الألفاظ باستعمالها ضمن سياق الكلام، فإذا أُطلقت لفظة على غير ما اشتهرت به، واستعملت في غير ما وُضعت له اكتسبت دلالة جديدة إلى جانب الدلالة المعجمية المألوفة، وهذا ما يُطلق عليه الانزياح اللغوي، وهو مصطلح يدل على العدول عن المعنى المعجمي للّفظة ضمن السياق الأدبي على وجه الخصوص إلى معنى آخر ذي أبعاد جديدة لها صلة بالمعنى الذي كانت تدلّ عليه قبل الانزياح، وقد بيّن المؤلّف أن الانزياح

على المستوى الدلالي له جذوره المتأصلة في الدراسات اللغوية والبلاغية،
فالتضمين الذي يعني إشراب لفظ معنى لفظ آخر لا ينأى من حيث المفهوم
والتطبيق عن الانزياح.

أما المبحث الرابع فقد تناول فيه المؤلف جانباً مهماً يتعلّق بالقياس الخاطيء في
اللغة العربية، وهو ناجم عن قيام الأفراد بتركيب عباراتهم اعتماداً على المحصول
اللغوي الذي اختزنوه في أذهانهم، وتطبيقاً لمبدأ ردّ الشيء إلى نظيره؛ لأنّ النظر
يكون معروفاً عند المتكلم، أما ما ردّ إلى النظر فهو غير معروف لديه.

بيّن المؤلف أنّ هذه العملية تكون فردية عفوية، وهي تنتج عن نوعين من
القياس: صحيح وخطيء، فالصحيح يُظهر لفظةً أو صيغةً تعارف عليها أهل
اللغة، والخطيء يُظهر لفظةً أو صيغةً مجهولة لم يتعارف عليها اللغويون، وهي
غالباً تشتمل على انحرافات لغوية أو صوتية أو نحوية أو صرفية.

ذكر المؤلف أسماء عدد من اللغويين الذين أقرّوا بمبدأ القياس الخاطيء ولم
يرفضوه، وبيّن أنّ محمد بهجة الأثري رفضه رفضاً تاماً، أمّا عباس حسن فقد
عدّه من أوهام النحاة.

ساق الباحث بعض الأمثلة الدالة على القياس الخاطيء، كالتقييم الذي
يجب أن يكون تقويماً لأنه من الفعل (قوم يقوم)، فأصل الألف واو وليس ياء،
ومن ذلك (الاستقراء)، فقد ظنّ كثير من مستعمليها أنها مصدر استقرأ
يستقرئ، لكنها في حقيقتها مصدر استقرى يستقرى، فلو أنها قيست على
استسقى يستسقى استسقاء، واستعلى يستعلي استعلاء لما وقع الخطأ في قياسها،
فأصل الهمزة في استقراء واو، لأنها من قرا يقرؤ أي تتبّع، ولا وجود في المعاجم
لمعنى التتبع في استقرأ، وإنما طلب القراءة.

من ذلك أيضاً جمع مدير على مدراء، مع أنها يجب أن تُجمع جمعاً مذكراً سالماً، فنقول: مديرو ومديري، لكن قياسها الخاطيء على خبير، وزير، سفير، رئيس - كما يبدو - سبب هذا الجمع الخاطيء، والصحيح أنها يجب أن تقاس على معيد وجمعها معيدون ومعيدين، فحين نقول: أعاد يعيد فهو معيد، يجب أن نقول: أدار يدير فهو مدير.

ومما يتصل بذلك أيضاً النضوج من نضج ينضج، فقد قيست قياساً خاطئاً على الجلوس والسكوت، والصحيح أنها يجب أن تكون نُضجاً، فلم يُسمع عن العرب لفظة النضوج.

تناول الكاتب القياس الخاطيء الذي تفشى في جمع الجمع، واقتران جواب إذا الشرطية باللام قياساً لها على لو، والاستعمال الخاطيء لكلمة (سوى) ومجيئها في موضع لا تكون مضافة فيه، وعدم إدخال الباء على المتروك، وفي لزوم الأفعال وتعديها.

وقد ربط المؤلف ربطاً موفقاً بين المبحث الرابع والمبحث الخامس الذي تناول فيه لغة الصحافة السورية، وألقى الضوء على الأخطاء الشائعة الواردة فيها، فالقياس الخاطيء الذي لمسناه في مواضع متعددة من استعمالنا اللغوية يقود إلى الانحرافات اللغوية الواردة في إحدى أهم الوسائل الإعلامية السائدة في مجتمعنا. عرض المؤلف ضمن المبحث الخامس في دراسة وصفية معيارية الأخطاء السائدة في الصحافة السوريّة وفق أربعة مستويات:

المستوى المفرداتي والمستوى الصرفي والمستوى النحوي والمستوى التركيبي.
وأجرى هذه الدراسة على خمسة أعداد من صحائف (الثورة وتشرين والبعث والفداء) اختارها عشوائياً.

- ففي المستوى المفرداتي بيّن أن لغة الصحافة تعاني من تسرب بعض المفردات العامة إلى جانب الدخيلة كالشقلبة والكاتالوك.

- وفي المستوى الصرفي وقف على حالات صرفية خاطئة من قبيل: وجود مشتقات مستغنى عنها مثل: الجهوزية، ملفت، ومنها أيضاً همز ما لا يهمز كالمضائق والمصائف^(١)، وجمع الجمع مثل طروحات، كشوفات، فحوصات، وإعلال ما لا يعل كقولهم: سوّاح في جمع سائح مع أنها من ساح يسيح، ومزاودة في مصدر زايد يزايد، فلا وجه لقلب الياء واواً فيها.

- وفي المستوى النحوي وقف عند حذف ما لا يحذف، كحذف الفاء الرابطة لجواب الشرط من جواب الشرط، وزيادة ما لا يزداد في كثير من المواضع، كزيادة النون في جمع المذكر السالم والمثنى عند الإضافة، وزيادة الفاء بين المبتدأ والخبر، وزيادة اللام فيما ناب عن المفعول المطلق، والخطأ في العلامات الإعرابية، وعدم مراعاة أحكام المطابقة بين العدد والمعدود، والتذكير والتأنيث ضمن العبارة نفسها عند استعمال لفظي أحد وإحدى، أو وصف لكلمة مذكرة أو مؤنثة، فمن ذلك تذكير لفظة بئر، وتأنيث الرأس والباع، وذكر إلى جانب ذلك كله الخطأ والاضطراب في اللزوم والتعدي، فالأفعال أكد، مسّ، قرّر... لا تحتاج إلى أحرف جرّ كي تتعدى إلى مفعولها.

وقد بيّن سبب تلك الاضطرابات اللغوية الصحفية، فذكر أنه الجهل بأصول العربية، والوقوع في ملابسات معنوية تتمثل في تقارب معاني بعض الأفعال في الأذهان، الأمر الذي يدفع إلى ارتكاب خطأ في تعديتها قد يكون باستعمال حرف جر لم تألف العربية استعماله معها، وقد يكون بجعلها متعدية

(١) ذكر المؤلف أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أجاز ذلك.

بنفسها، وقد أتى المؤلّف على ذكر الاضطراب في استخدام (حيث) فقد شاع تجريدها من دلالتها الظرفية بإدخالها على الظرف وحرف الجر.

وقد وضع المؤلّف يده على علاج هذه المشكلة اللغوية، ووضح أنه يكون بإعداد الأُطر الصحفية القادرة على تجاوز تلك الأخطاء وغيرها بمؤهلاتها اللغوية، وبتطبيق الرقابة اللغوية الصحفية الصارمة.

- أما المستوى التركيبي الأسلوبي فهو يبدو بجلاء في الحذف والاختصار، والإقحام لبعض المفردات التي لا مسوّغ لوجودها في الجمل، إلى جانب استعمال التراكيب المشكّلة وغير الصحيحة من الناحية النحوية، كقولهم: إن هكذا مهرجان يحتاج إلى تحضير، والصواب: إن مهرجاناً كهذا، وقولهم: كلما درست كلما تفوقت أكثر، والصواب: كلما درست تفوّقت أكثر.

انتقل المؤلّف بعد ذلك إلى المبحث السادس الذي تناول فيه ما جاء على وزن (فِعال) من اسم الآلة، وبيّن إقرار مجمع اللغة العربية في القاهرة لهذا الوزن في باب اسم الآلة، وردّ على من انتقد ذلك متبعاً الاستقراء والتحليل وصولاً إلى النتائج، فتحدّث عن اسم الآلة من حيث المفهوم والمصطلح مستفيداً من آراء اللغويين القدماء والمحدثين، وبيّن أيضاً أن من أسماء الآلة ما هو مشتق، ومنها ما هو جامد، مع وجود اختلافات وفروق معنوية في دلالة كل منهما على الآلة أو الأداة، وعرض المؤلّف أيضاً مفهوم قياسية أسماء الآلة وضوابطها عند أئمة اللغة القدماء والمحدثين، وأتى على وزن (فِعال) مبيّناً عدداً غير قليل من أسماء الآلات جاء على هذا الوزن، وبلغ ما يقارب الأربعمئة اسم. واستفاض في بيان حال اسم الآلة من حيث الجمود والاشتقاق، وتطرّق إلى مسألة السماع والقياس في أسماء الآلة المشتقة، وختم ذلك الشرح بعرضٍ لما جاء على حروف

المعجم من أسماء الآلة.

وفي المبحث السابع الذي حمل عنوان (في الدلالة الإسنادية للفعل)، ناقش المؤلف الفكرة الشائعة بين العلماء والباحثين والدارسين، وهي دلالة الفعل على الحدث والزمان، ويبيّن أنّ ثمة فكرة أخرى تتعلق بمفهوم الفعل، مفادها أنّ الفعل يدلّ على الحدث والزمان والإسناد إلى الفاعل الذي قام بالفعل، وقد أظهر المؤلف تفكيراً علمياً رصيناً حين عرض قضية دلالة الفعل على الإسناد، إذ بيّن أنّ معظم الباحثين والدارسين ذهبوا إلى أنّ الفعل بحالته الإفرادية يدلّ على إسناده إلى فاعل مبهم أو مطلق، وأنّ العلاقة التركيبية النحوية هي التي تجعل هذا الفاعل محددًا مقيدًا.

وقد رجّح المؤلف أنّ دلالة الفعل على الإسناد المطلق لا تعني أنّ الفعل عنصر لغوي تركيبى نحوي، بل ما زال عنصراً صرفياً مفرداً من الناحية النحوية، ومركباً من حيث الدلالة الصرفية. وذهب أيضاً إلى أنّ الفعل يدلّ على الإسناد دلالة لفظية تضمنية كما يدلّ على الإسناد دلالة التزامية عقلية اقتضائية. وذكر أيضاً أنّ الفعل في دلالاته على المعاني الصرفية من دوال الماهية لا من دوال النسبة مخالفاً في ذلك ما ذهب إليه بعض اللغويين، ومعللاً ذلك بأنّ الفعل يثير في الذهن دلالات مختلفة وهو مفرد غير محتاج إلى أي علاقة تركيبية نحوية.

أما المبحث الثامن (وهو الأخير) فهو يتناول الإعراب من الوجهة الوظيفية، وقد تحدّث فيه المؤلف عن الإعراب من حيث المفهوم والوظيفة. فمفهوم الإعراب مرتبط بظهور العلامة الإعرابية على أواخر الكلمات العربية، وتغيّرها بتغيّر العامل النحوي، وهو مرتبط أيضاً بالتحليل النحوي الإعرابي الذي يتناول بيان وظائف مفردات التركيب النحوي بالاعتماد على ركائز

محددة كالحذف والذكر، والتطابق، والتقديم والتأخير، وهذا يعني تجاوز حدود العلامة الإعرابية، والدخول في حيز التحليل النحوي للتركيب اللغوي.

ومفهوم الإعراب مرتبط أيضاً بالمفهوم العام للنحو، وما يؤيد ذلك تسمية ابن جني لواحد من كتبه بـ(سّر صناعة الإعراب)، إذ تناول فيه كثيراً من القضايا اللغوية والنحوية والصرفية، وكذلك الزجّاجي الذي أشار إلى أنّ مصطلح الإعراب يُراد به النحو عامة.

أما وظيفة الإعراب فقد تناولها المؤلّف من وجهتين مرتبطتين بما سبق ذكره من مفهوم الإعراب، أي العلامة الإعرابية، والتحليل النحوي الإعرابي. وقد عرض المؤلّف فكرة مهمة مفادها أنّ العلامة الإعرابية ليست القرينة الأساسية الوحيدة لتحديد الإعراب الدقيق، لذلك يمكن القول: إن التحليل اللغوي الإعرابي يؤدي إلى الإعراب الصحيح، ولكنّ المؤلّف نبّه أيضاً على أنّ هذا التحليل النحوي الإعرابي ليس بالضرورة أيضاً أن يكون مرتبطاً بتوضيح المعنى وبالتوجيه الإعرابي الصحيح، فقد يخالف ذلك المعنى ويتعارض معه، ويبيّن ذلك من عدة أمثلة ساقها.

وبعد، فقد وجدنا أنّ المؤلّف استطاع أن يلقي الأضواء الكاشفة على المشكلات التي تعاني منها لغتنا العربية، وتمكّن من وصفها بدقة، وقدم الحلول الناجعة التي تعين على تحطّي تلك المشكلات، والارتقاء بلغتنا. ■

* * *

المحاضرات

العقل ظاهرة انبثاقية

هاني خليل رزق^(*)

“*Cogito ergo sum*”

«أفكر، إذاً أكون»

Renatus Cartesius (ريناتوس كارتيزيوس)

(1596 – 1650)

١- تعريف الظاهرة الانبثاقية:

الظاهرة الانبثاقية *emergent phenomena* سيرة طبيعية إبداعية، تشتمل على ظهور خاصيات جديدة كلياً لظاهرة أو لمادة ما، لا يمكن استنتاجها من دراسة خصائص مُكوّنات الظاهرة أو المادة المنبثقة. إن معظم مظاهر الحياة وموادها ظواهر انبثاقية طبيعية إبداعية. إن الظاهرة الانبثاقية تولد من ذات الطبيعة *ipso facto*، ولا يمكن اجتنابها. ابتكر التعبير «جورج هنري لويز» *George Henry Lewes* (1817 – 1878).

٢- تعريف العقل

العقل (*menos, mens, mind, cognition, esprit, pensée*): ظاهرة انبثاقية، تتمثل بمجموعة من السيرورات *processuses* والمضامين *contentents*

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق هاني رزق هذه المحاضرة بتاريخ ١٦ / ٢ / ٢٠١٤.

النفسية المنظّمة، انبثقت من الخلال، التي يمتلكها الإنسان دون غيره من الحيوان. وهذه الخلال هي: 1. القشرة الدماغية المستحدثة *neocortex*. 2. انتصاب القامة. 3. تقابل الإبهام مع بقية أصابع اليد. 4. الشكل الفراغي الثلاثي الأبعاد للحنجرة والثنتين الصوتيتين *plicae vocalis*. 5. القانون الأخلاقي. إن الدماغ هو مركز تنسيق هذه السيوررات والمضامين.

إن هذه السيوررات والمضامين النفسية تتيح للفرد أن يستجيب للمنبهات الخارجية والداخلية استجابات متكاملة وتفاعلية، بحيث تقيم علاقات سببية بين ماضي الفرد ومستقبله.

أ- السيوررات العقلية: أهمها: التجريد والمحاكمة والإدراك والتعلم والتفكير والتذكر والشعور والحس والتصرف بحكمة وذكاء. إن السيوررات العقلية توجد في أفراد البشر كافة؛ فهي بشرية النوعية *human-specific (species)*. هي إذن جينية الاشتقاق *gene-derived*، أو على الأصح ذات نمط ظاهري جيني المنشأ *genetic phenotype*.

ب- المضامين العقلية: خاصيات فردية تتباين وفقاً لتجارب الفرد، ونمط تربيته وتعلمه؛ فهي إذن فردية النوعية *individual-specific*؛ أي ذات اشتقاق بعد جيني *epigenetically-derived*، أو على الأصح ذات نمطٍ ظاهريٍّ بعدَ جيني *epigenetic phenotype*.

٣- مفهوم العقل عبر الزمن

- «أرسطو» *Aristotle (322-384)*: الإنسان حيوان عاقل.
 - «رينيه ديكارت» *René Descartes (1596-1650)*: أفكر، إذن أكون
- (إنساناً) *cogito ergo sum*.

- «شارل دارون» *Charles Darwin* (1809-1882)، في أصل الإنسان (1871): ليس الإنسان سوى قرد ذي دماغ ضخم *Man but an ape with a large brain*. إن العقل وصل إلى الإنسان بالانتقاء الطبيعي *natural selection*.
- أوضحت الأبحاث المعمقة والمستفيضة، التي نُشرت في العام 2009 أن العقل مُنح للإنسان هبةً.

٤- دماغ الإنسان ودماغ الشيمبانزي

- يتكون جسم الإنسان من 1×10^{14} خلية؛ يستموت (استموات *apoptosis*) منها في كل ثانية مليون خلية. إن جسدنا يَسْتَموتُ إذن كل سنتين ونصف تقريباً.
- يتكون دماغ الإنسان من 4×10^{12} خلية؛ يستموت منها في كل ثانية 40 000 خلية.
- يبلغ وزن الدماغ البشري 1 350 غراماً، وتبلغ مساحة تلافيفه 222 600 ميلي متر مربع.
- تتكون القشرة الدماغية المستحدثة في الإنسان من ست طبقات من العصبونات.
- يتشارك الشيمبانزي مع الإنسان في (98.5 في المئة) من جيناته، ومع الفأر في (80 في المئة).
- يبلغ عدد جينات الإنسان 100 24 جين. هنالك إذن 360 جيناً بشرية في الإنسان لا توجد في الشيمبانزي. عرف منها حتى الآن 54 جيناً خاصة بالدماغ البشري.

- يبلغ وزن دماغ الشيمبانزي 406 غرام، وتبلغ مساحة تلافيفه 54 000 ميلي متر مربع.
- تتمايز عصبونات دماغ الشيمبانزي تمايزاً وظيفياً قبل بضعة أشهر من الولادة. في حين أن عصبونات دماغ الطفل البشري لا تصل مرحلة التمايز الوظيفي إلا في العام الخامس بعد الولادة.
- نعتقد أن معظم بقية الجينات البشرية (300 جين) تخصص لانتصاب القامة، وخاصة تقابل الإبهام مع بقية أصابع اليد، والشكل الفراغي الثلاثي الأبعاد للحنجرة وللثنتين الصوتيتين، وربما القانون الأخلاقي.
- يوجد في دماغ الإنسان أكثر من 10×10^{15} مشبك عصبي *synapses*، تكوّن أكثر من 10×10^{17} وصلة عصبية *connexions*.
- يتلقى العصبون الواحد في الثانية الواحدة آلاف الاشارات (المعلومات)، ويعالجها ويكاملها في متصلة المكان-الزمان *space-time continuum* (يمكن لدماغ الإنسان أن يعالج ويكامل على الأقل 10×10^{15} معلومة في الثانية).

٥- العقل والإنتروبية

المحتوى الحراري = الطاقة الحرة + الإنتروبية

$$55 + 45 = 100$$

تمثل الإنتروبية *entropy* بديهية *axiom* المبدأ الثاني من الترموديناميك (الدينامية الحرارية)، الذي وَضَعَهُ «نيكولا ليونارد سادي كارنو» *Nicolas Léonard Sadi Carnot* (١٧٩٦ - ١٨٣٢).

ويمكن تعريف الإنتروبية كما يلي: 1. توزع عشوائي للمادة، وبخاصة مادة الكون؛ فمادة الكون في تدد مستمر. أي إن الطاقة الحرة *free energy* (الطاقة المفيدة والمنتجة للعمل) في تناقص مستمر. 2. توزع سيئ للمادة. 3. مقياس دقيق للزمن. إن الكون سيتلاشى (بفعل الإنتروبية) بعد 10×10^{60} عام (بعد مليون مليار مليار مليار مليار مليار مليار مليار عام). يبلغ عمر كوننا حالياً 13.798 مليار عام. ويبلغ عمر المجموعة الشمسية 4.6 مليار عام. ولم يتبق في الشمس من الدوتريوم (الهيدروجين الثقيل) كي تحرق إلا ما يكفي مدة 5 مليارات عام أخرى؛ ستنفى الشمس بعدها وتتحول إلى قزم أبيض، وتزول معها الحياة. لذلك؛ فعندما يتلاشى الكون لن يكون هنالك من يشاهد هذا الحدث المتفرد.

٦- الانتصار على الإنتروبية

- تمثل أول انتصار على الإنتروبية بنشوء الحياة وانتظام مادتها وتوليد الطاقة، التي تحتاجها لبقائها واستمرارها وتطورها.
- تحقق الانتصار الثاني على الإنتروبية عندما أدرك الإنسان وجوده في مجتمعات راسخة. وتمثل هذا الانتصار بظاهرتين: الأولى وضع القوانين والقواعد لتنظيم علاقات الفرد بالمجتمع والدولة. إن أول تنظيم في التاريخ حدث في بابل «حمورابي» (؟ - ١٧٥٠ قبل الميلاد). أما الظاهرة الثانية؛ فاتضح بمقدرة الإنسان على ربط ملكته *faculty* الفكرية بملكته التعبيرية؛ فاستطاع أن يُعبّر عن أفكاره لفظاً وكتابة وحركة بأقل عدد ممكن من التعابير (خير الكلام ما قلّ ودلّ)، أو الحركات في خلال أقصر مدة من الزمن. وتُمثّل هذه الظاهرة التعبيرية ضرورة انتصارات الإنسان على الإنتروبية.
- أمّا الانتصار الثالث؛ فتمثل بخلق القانون الأخلاقي للإنسان، الذي

صانه حتى الآن من الانقراض.

٧- الإنتروبية وسهم الزمن

يتميز عالمنا بثلاث خاصيات أساسية، هي الشحنة $charge$ (C)، والتماثل $parity$ (P)، والزمن $time$ (T). إن قوانين العلم تبقى هي ذاتها حتى لو عكسنا C؛ فيكون لدينا عالم يتكوّن من المادة المضادة. وحتى لو عكسنا P؛ فيكون لدينا عالم خصائصه وبنّيته خيال مرآة لعالمنا. ولكن يستحيل علينا كلياً عكس اتجاه الزمن أو سهم الزمن (مثل عرضنا فيلماً ما بالاتجاه الراجع) مع أن قوانين العلم تبقى هي ذاتها للماضي. ويرجع سبب استحالة العودة بالزمن إلى الوراء إلى فعل الإنتروبية. فسهم الزمن والإنتروبية ظاهرتان متلازمتان، يتصل وجودهما بوجود الكون. وقد يكون من المفيد دراسة هذه الصلة.

المصادر والمراجع

- Darwin, C. *The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex* (John murry, London) In Lovejoy C. Owen et al. *Science* 326, 73 – 74 e 8 (2009).
- White, T.D. et al. *Science* 326 (the whole issue) (2009).
- *Encyclopaedia Universalis*, Vol.20, P. 2228 b et c, Paris (1982).
- Selosse, M-A et Godel, B. *Larecherche* 396, 51 – 52 (2006).
- Robertson, M.P. and Ellington, A.D. *Nature* 395, 223 – 225 (1998).

- Guerrier, S. et al. *Cell* 138, 990 – 1004 (2009).
- Hauser, M. et al. *Science* 298, 1569 – 1579 (2002).
- Hauser, M. *Sci. Am.* 301 (3), 44 – 51 (2009).
- Rizk, H.K. *Evolution Oriented; Genome Personalised (in preparation)*.

- رزق، هاني، موجز تاريخ الكون، من الانفجار الأعظم إلى الاستنساخ البشري (الفصول ذات الصلة)، دار الفكر، دمشق (٢٠٠٤).

- رزق، هاني، الجينوم البشري وأخلاقياته؛ جينات النوع البشري وجينات الفرد البشري (الفصول ذات الصلة)، دار الفكر، دمشق (٢٠٠٧).

- رزق، هاني، أصل الإنسان (الصفحات ذات الصلة)، دار الفكر، دمشق (٢٠١٠).

- رزق، هاني، العقل والدماغ البشري (الصفحات ذات الصلة) (قيد الطباعة)، دار الفكر، دمشق (٢٠١٤).

* * *

التصحيح اللغوي كلام في المنهج

أ.د. مازن المبارك^(*)

الحاجة إلى توحيد المناهج^(١):

تقوم في الوطن العربيّ اليوم مؤسّسات تُعنى بالشأن اللغويّ، منها الرسميّة، ومنها الأهليّة، كما يُعنى بكثير من القضايا اللغويّة أفرادٌ يغلب عليهم الاختصاص، والجميع يُعنون باللّغة وموضوعاتها المختلفة، ويبدون فيها الآراء، وتُصدر المؤسّسات المعنيّة القرارات التي توصلت إليها. وهي كلّها جهود مطلوبة ومشكورة، ولكنها متباعدة مبعثرة، وقد يخالف بعضها بعضاً، وخاصّة فيما يتصل منها بالتعريب، والمصطلح، وجواز الاستعمال.

وكان المأمول أن يكون اتحاد المجامع اللغوية المركز الجامع الذي تصل إليه المقترحات والقرارات، من المعنّيين باللّغة، ثم تصدر عنه وباسمه، وتعمّم على المجامع والجامعات والمراكز في البلاد العربيّة كلّها.. كما كان المأمول أن يكون

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور مازن المبارك هذه المحاضرة بتاريخ ٢٥/٣/٢٠١٥م.

(١) ليست العنونات في هذه المقالة أكثر من إشارات، لأن الموضوع وحدة تتكامل مقاطعه وتداخل فقراته.

مكتب تنسيق التعريب في المغرب مركزاً لتنسيق التعريب لا للانفراد بالتعريب.. ولكنَّ كلَّ ذلك المأمول ظلَّ أملاً يُراود اللغويين العرب!

وإذا كان توحيد العمل اللغويّ عسيراً لظروفٍ وأوضاع كثيرة! فإنَّ وحدة المناهج التي يقوم عليها العمل كفيلةٌ إلى حدِّ ما بتوحيد النتائج التي يتوصّلون إليها، وهو الأمر المطلوب. وليس عسيراً على أيِّ مجمعٍ لغويّ عربيّ، بله اتِّحاد الجامعات، أن يدعوَ إلى مؤتمرٍ يدرس المشاركون فيه المناهج التي ينبغي العملُ بموجبها في التعريب، ووضَعِ المصطلح، وتفصيح العامي، وجواز استعمال المفردات والتراكيب، ويضعون لكلِّ ذلك القواعدَ أو الضوابط التي يُقرّون العمل بها.

قيمة اللغة بأسلوبها:

من المعلوم أن اللغة مفردات ونظم، وأن المفردات هي مادة اللغة، وأنها يَنْضَمُّ بعضها إلى بعض باتّصال مباشر، أو غير مباشر، تُستعمل في أدوات أو حروف خاصّة. وأما النظم فهو الشكل الظاهر الذي تبدو فيه المفردات بعد تألفها واتّساقها في ترتيبٍ معيّن. إنَّ اللغة بناء، والمفردات حجارته. وإنما يظهر جمال البناء بشكله المكتمل لا بأحجاره، وإن كانت الأحجار النفيسة تزيد من قيمة البناء. إن اللغة نسيج والمفردات خيوطه، ولا تظهر روعة النسيج بخيوطه، وإن كانت الخيوط ترفع قيمة النسيج، ولكن تظهر الروعة باكتمال النسيج وتمام القطعة المنسوجة.

إن اللغة - كما قال الرافعي في أحد كتبه - «كلّحنٍ موسيقيٍّ مُكتملٍ، تطرب الأذان له حين تسمعه، على حين أن للألفاظ نغماتٍ مفردةً في تكوين ذلك اللحن، لا قيمة للواحدة منها إذا انفردت، ولا يظهر جمالها إلا إذا اتّحدت

وانسجمت في تشكيل ذلك اللحن، وأنت لا تطرب لتلك النغمات إلا إذا اجتمعت منسجمة في أداء ذلك اللحن».

إن اللغة ليست بمفرداتها، ولا بمعجماتها، ولكن بتركيبها ونسيجها وأسلوبها ونظمها.

إن الكلمات ينضم بعضها إلى بعض، كما تنضم الخيوط وتلتحم في نِساجة الثوب فإذا هي نسيج واحد، تساوت مقاطعه، وتشابهت أجزاءه، وانسجمت ألوانه، وظهر قطعة واحدة في شكل جميل غابت فيه صفات خيوطه!

إن كل إنتاج تُشكّله عناصر مختلفة، تصبح له صفاته وخصائصه الخاصة به، والتي منحها إياها تجمع العناصر المشكّلة له، تلك العناصر الجزئية التي غابت في ذلك الشكل الذي أوجدته، إنها فاعلة في داخله، غائبة في ظاهره! وإن صفات المجموع بعد اجتماعه وتشكّله، صفات جديدة، وليست هي صفات العناصر التي شكّلت ذلك المجموع.

إننا نؤكد أن اللغة بناء أقامته مفردات، ولكنها ليست بمفرداتها وحدها! وأنها نسيج محبوك من خيوط، ولكنه ليس بخيوطه وحدها! ولكنها فيما تظهر به بشكلها العام ذوقاً وحبكاً ولوناً.

وكذلك اللغة، أو الكلام المكتوب أو المنطوق، لا يكفي الحكم على مفرداته للحكم عليه، إن مجموعه شيء آخر غير مفرداته. إن ما تشكّل منه النص اللغوي من حروف بأصواتها وتناغمها، ومن كلمات بتناسقها وتتابعها في سياقاتها، ومن أعراف نحوية وضوابط صرفية، ومن موسيقية الحركات الإعرابية، وتناسب الصيغ أو الأبنية الصرفية، ومن إحياء متمددة من تاريخ الكلمات المستعملة عبر تاريخ الناطقين بها، ومما جاءت عليه من تعريف أو

تنكير، وتقديم أو تأخير، ووَصَلَ أو فصل، ومما ظهرت فيه صراحة من ذكرٍ أو تكرار، أو اختفت فيه من حذفٍ أو إضمار...، كلُّ ذلك يُعطي البناء أو النسيج اللغويَّ قيمته ومستواه، وليست قيمته بقيمة مفرداته ! وليس للمفردة فيه ذلك الأثر البين في الحُكم على عمومته وجملته.

ولو لم تكن قيمة اللغة الحقيقيَّة بصياغة نسيجها لا بمفرداتها لما أدرك العربُ إعجاز القرآن، ولما سلّموا بتحدّيه، لأنَّ حروفه هي حروفهم، وألفاظه هي ألفاظهم؛ وما لم يكن من لغتهم فقد عرفوه من قبلٍ وأدخلوه حياتهم حتّى ظهر وكأنه من لغتهم.

وهل قال أحدٌ إنَّ إعجاز القرآن بألفاظه المفردة؟! ألا يعني هذا أن النسيج اللغويُّ هو الذي يُعطي اللغة وجهها الصَّحيح، ويُعطي الكلام مرتبته في طبقات البيان؟

ولست أكنم أنني لا أستطيع أن أعدّد العناصر التي تحكم على النسيج اللغويَّ بجملته بالصحة والسلامة والإشراق، ولا أن أحدّد عناصر الجُودة فيه، غير أني أقول بلا تردّد إنَّ عند العربيِّ المُتمرس بأساليب اللغة الرفيعة حسًّا يُمكنه من معرفة إشراق المرآة وجمال صفحاتها من فسادها أو تشوُّهها أو ضبايبتها.. إنه أمرٌ ذهنيٌّ أو نفسيٌّ يُعرف ويُدرَك ولكنه لا يوصف !!

لذلك أو مما يؤيد ذلك أن القرآن لم يتحدّ العرب بأن يأتوا بمثل مفرداته، ولكنه تحدّاهم بأن يأتوا بطريقة إيراد مفرداته، فكان تحدّهم بحديثٍ أو كلامٍ مهما يكن قصيراً فقال:

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤].

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣].

وقال: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وإنَّ الأدباء والكتّاب تتفاوت درجاتهم بأساليبهم، أي بنسيج لغتهم، وشكل عباراتهم، وتأليف جملهم، وهو أمر لا يُدرکه القارئ ما لم يكن من أبناء اللغة، أعني ممن مارس اللغة قراءةً وتذوقاً وإحساساً قبل أن يتذوقها كلمات مفردة، وقواعد نحويّة، وأبنية صرفيّة..

إنَّ اللغة بعد أن تتشكّل مجموعةً في حديثٍ أو نصٍّ، سواء أطلال أم قصر، تصبح شيئاً آخر غير العناصر التي تكوّنت منها، ويصبح لها وجهها المشرق المعبر عن عبقريتها وعن قدرة منشئها.

إنَّ مَنْ لا يُفرّق بين جملةٍ وجملة، أو تركيب وتركيب إذا اختلفا (عربيّة)، ولا أعني اختلافاً في إعراب كلمة، أو صيغة كلمة، ولكنني أعني كلّ ما تكون الجملة به عربيّة، فهو لا يملك حسّاً لغويّاً ولا ذائقة سليمة ولو كان يحفظ كلّ معاجم اللغة ومُتون النحو.

إنَّ الحسّ اللغويّ شيء آخر، وهو الذي أدرك العرب به تميّز القرآن وإعجاز نظمه ورفعة أسلوبه.

وإنَّ الذين يُجيزون اليوم للمتحدّثين والكتّاب أن يستعملوا كلّ ما هبَّ ودبَّ ونظقت به أفواه العامّة، محاولين تسويغه تفصيحاً للمفردات، أو تخريجاً للوجوه النحويّة، أو قبولاً للتراكيب المهلهلة، إنما يسيرون في طريق تشويه اللغة، وتكثير سواد الجليل المُبتعد عن أساليب العربيّة الجيّدة أو الرفيعة، بل الصحيحة، وبذلك يُجرّدون الناس مما يُدركون به جمال اللغة والإحساس بها.. ويشاركون مشاركةً فعّالة في تجريدهم من الإحساس بما تميّز به أساليب العربيّة الراقية، وأسلوب القرآن المعجز!!

وقد شغل كثير من اللغويين بموضوع التصحيح اللغوي، ووضعوا في ذلك كتباً، وكتبوا أبحاثاً ومقالات، وعرفنا ذلك منذ العصور الأولى، عصور الكسائي (ت ١٨٩ هـ) وزملائه ومن تلاهم، وما زلنا نراه اليوم في أعمال الكثيرين من المعنّيين باللّغة في غير قطرٍ من الأقطار العربيّة، وعرفنا كتبهم بأسمائها المختلفة ومناهجها المختلفة، مما يعرفه المختصّون.

وكان من الباحثين من يُعنى بتصحيح المفردات، وينصرف إلى بيان العاميّ منها، وإلى ما أصاب المفردة على لسان العامّة، وتبيين ما هو دخيل أو أجنبيّ، وما ينبغي أن يكون عليه لفظ الكلمة لتكون صحيحةً في العربيّة أو مقبولة. وكانت قلةً من اللّغويين تُعنى بتصحيح العبارات والأساليب، وتنبّه على ما وقع في بعضها من انحرافٍ أو تغيير. وقد قام بكلّ هذا وعني به أفراد ومؤسّسات.

ولاشكّ أن للجميع جهوداً مشكورة في ميدان التفصيح والتصحيح، وملاحقة الأخطاء في المكتوب والمنطوق، ولكنّ المتبّع لهذا النشاط اللغويّ يقف عند أمورٍ يحسن التنبّه فيها والحذر:

لبس كلّ ما شاع وانتشر حجة:

١- من هذه الأمور أمرٌ يتّصل بالمنهج الذي يأخذ به بعض العاملين في التصحيح اللغويّ، وهو الأخذ بالأشيع، أو بما شاع وانتشر، وغلب على الألسنة والأقلام! إذ كثيراً ما نقرأ هذا في ذيل ما يقرّرونه، أو في تعليل قراراتهم، يذكرون ذلك مُحْتَجِّين بالكثرة أو مستأنسين! وهو أمر عجيب في هذا العصر الذي فشّت فيه الأميّة، وقَلَّ العِلْمُ الصّحيح باللّغة حتى عند المتعلّمين والكتّاب، ولم تعد الكثرة الكاثرة في هذا الميدان ولا غيره دالّةً على الهدى والصّواب! وأحمد الله أن القضاة لا يأخذون بمنهج أولئك المشتغلين بالشأن

اللغويّ، وإذن لأجازوا السرقة لأنها كثرت، وأجازوا الرّشوة لأنها انتشرت، وهكذا الأمر في كثير من الموبقات، وصدق ربنا جلّ جلاله ﴿وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. إن للقاضي قانوناً يضبط عمله ويحكمه، وإنّ للغة كذلك أصولاً وقواعد لا يصحّ التفريط بها؛ لأنّ لذلك نتائج خطيرة لا يُقدّرُها كثيرون ممن دخلوا من باب الشهادات الجامعيّة وأصبحوا «لغويين»، وإنّ مواقفهم تحكم عليهم؛ فلقد تعلّمنا أن العالم - بكسر اللّام - يتبعه العالم - بفتح اللّام -، فأصبح العلماء اليوم تبعاً لمن هم دونهم بعد أن كانوا هم المتبوعين! ويقول بعضهم إنّ ما يذكرونه من الشيوخ وكثرة الاستعمال ليس للاحتجاج بل هو للاستئناس! ونحن نسأل أليس ذكره لهذا أو لذلك إنّما هو لترجيح الأخذ بالوجه الذي تريدون إقراره؟! والمنطق يقضي أن الخطأ إذا شاع وانتشر كان أخطر مما لم يَشع ولم يكثر، وكان أحرى أن نكون أشدّ في منعه وإنكاره.

إن العالم الوثائق من علمه يثبت على الحقّ الذي عرفه ولو خالفه الكثيرون.. وليت العلماء اليوم يتذكّرون الدّرس الذي ألقاه عليهم عالمٌ عاش في القرن الثاني للهجرة، هو خَلَف بن حيّان، المعروف بخَلَف الأحمر، العالم البصري الذي كان من أعلم أهل زمانه في بيئته بالعربيّة نحواً وشعراً، وهو شيخ الأصمعيّ وابن سلام وغيرهما، فقد نقل عنه ابنُ سلام في كتابه طبقات الشعراء أنه «قال قائلٌ لَخَلَف: إذا سمعتُ أنا بالشّعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. فقال له: إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته، فقال لك الصرّافُ إنه رديء، هل ينفَعك استحسانك له؟!»^(١)

(١) طبقات الشعراء: ٧. وإنباه الرواة ١/ ٣٥٠ الحاشية ١.

- كان العلماء قديماً يأخذون بالأكثر شيوعاً لأن اللغة نفسها كانت على كلِّ لسان، ولكن الأمر تغيّر، فتراجعت المعارف اللغويّة، واختلّت السلائق وفسّدت، وأصبحت العربيّة الفصيحة في حاجةٍ إلى مَنْ يُترجمها لأهلها ويشرحها للمخاطبين بها!! لقد غلب اليوم الجهل على أبناء الأمّة، وضعفت إن لم نقل انقطعت صلتهم بمصادر لغتهم، وأصبح النادر من المثقّفين ومن طلّاب الجامعات مَنْ يعرف أسماء الكتب التي تُعلّم اللغة في أساليبها الرفيعة، وقلّ أن تجد منهم من قرأها أو اطّلع عليها!! لأنهم سُغلوا عنها وعمّا فيها بمشاغل حياتهم وشؤون معيشتهم، وبخلافات آرائهم الاجتماعية والسياسية، ولأن الحياة في عصرهم لا تتطلّب منهم معرفتها ولا معرفة لغتها... ولأنّ معظم ما جاء في كتبهم المدرسيّة والجامعيّة شبيهٌ بعصرهم وبيئاتهم وبوجبات طعامهم، حجماً ويُسراً، وقبولاً بالمظهر دون الحقيقة، وبالشعار دون الواقع، إنها الحياة السريعة التي لا تُبني فكراً، ولا تُنشئ شخصيّة، ولا تصنع حضارة ولا تُربّي جيلاً يتطلّع إلى تحقيق أملٍ أو رسم مستقبل.. إنه جيل يريد أن يعيش وكفى!! إنه الجيل الذي يُؤثر السهولة في كلِّ شيء، فإذا جاءه اليوم (حُمة العربيّة) ليضعوا بين يديه لغةً بل ليُقرّوا له لغته، ويشرّعوها له بشيء يسيرٍ من التعديل، مال إليها وأخذها، وهجر العربيّة الأصيلة الصحيحة ذات النسب، واستبدل بها تلك المُيسّرة.. التي لا تزال تكثُر وتزداد، ولا يزال (المُفصّحون) يَضعون له منها ما يريد، حتى تصبح هذه الحديثة هي الفاشيّة الغالبة، وكذلك يصنعون في التراكيب ما يصنعون في المفردات؛ تفصيحاً وإقراراً وتشريعاً حتى تصبح فصاحة (مديرٍ عام الجامعة. وقائد أعلى الجيش. ومجلس قبليّ المحلّة) هي الغالبة، فيصبح صعباً على (الفصحاء) الذين يفصّحونهم ويُرَبُّونهم أن يفهموا

إذا قرؤوا في كُتب الطَّبْرِيِّ والجرجانيِّ والشافعيِّ وأمثالهم من فُصحاء العربيَّة وبلُغائها ! إنهم يقومون بعملية انزياح للغة يُغيِّرون به مفرداتها وأساليبها بل عناصرها ونسيجها لتُصبح لها بنيةٌ جديدة في أحجارها وشكلِ بنائها وخيوط نسيجها.

في الفروق المعنوية

٢- إن كثيراً من الكتاب لا يفرِّقون بين معاني الكلمات التي تحمل معنىً عاماً، ويستعملونها وكأنَّها واحدة أو مترادفة، ثم نجد كثيرين ممَّن كتبوا في التصحيح اللغويِّ يقبلون ذلك، ويطمسون المعاني المختلفة والفروق الدقيقة بين معاني الكلمات بحجَّة أن استعمال العامة لها ضيِّع تلك الفروق.. لكنَّ العجيب أن العامة أضاعت الفروق عن جهل، وأمَّا العلماء فأضاعوها عن علمٍ أو ثوه وعرفوه ووقفوا عليه، ولكن لم يُبالوا بطمس خاصَّة من أدقِّ خصائص اللغة العربيَّة وأحلاها، وأكثرها مساعدةً على الدقة في التعبير، والصِّدق في الوصف والتصوير.

ولنا أن نسأل هل كان عبثاً ما حفظته لنا كتبُ اللغة من الفروق بين معاني الكلمات التي سَحَقها بعض المشتغلين باللغة انجراراً وراء الاستعمال العاميِّ لبعض الكلمات، وإهمالاً لكثيرٍ من المفردات استغناءً ببعضها عن بعض وكأنها مترادفات متطابقة !

حين تقدِّم لنا اللغة:

في المَشْي: دَرَج وحبَا وحبَل وخطَر ودَلَف وهَدَج ورَسَف واختال
وتبختر وهَرول وتهادى.

وفي النَّظَر: رَمَقه ولاحظه وحدَّجه واستشرفه وحدَّق إليه.

وفي الجوع: السَّغْبُ والطَّوَى والمَخْمَصَةُ والضَّرَمُ والشُّعَارُ.
وفي العطش: الظَّمَا والصَّدَى والغَلَّةُ والأُوَامُ.

أليستُ تُعيننا على بلوغ الدقة في التعبير عن الحقيقة، وإبلاغ الغاية في الإفهام؟ إنَّ الوصف بالامتلاء اليومَ يَمَلَأُ الألسنة والأقلام! فكلُّ شيءٍ عندنا مُتَمَلِّئٌ أو مَلَانٌ، سواء أكان كأساً أم بيتاً أم نهراً أم مَرَكَباً أم غير ذلك! أمَّا العربية فلها شأن آخر، ففيها:

الكأس دِهَاقٌ. والنَّهْر طَافِجٌ. والبحر طَامٍ. والوادي زَاخِرٌ. والفُلُك مَشْحُونٌ. والمجلس غَاصٌ...

إنهم يريدون أن يُبيحوا اليوم القولَ بأنَّ باع بمعنى أباع؛ لأن الباعة يُعلنون للناس عامةً بلغتهم، وهي مَبْلَغٌ عِلْمُهُمْ، ولو عرفوا الصَّواب لاستثمروه للتفريق بين بضائعهم؛ فهل يَصِحُّ أن نزل اليوم عن علمنا مراعاةً لجهلهم؟ أم أنَّ الأفضل أن نشرح لهم ونوضِّح أن (باع) تعني أن البيع قد وقع، وأمَّا (أباع) فتدلُّ على أن الشيء معروضٌ للبيع. وفي القاموس المحيط وغيره: أبعته: عرضته للبيع. وفي (اللسان): فمن بيعَ فرساً فليس جوادُنا بمُباع. أي بمعرَّضٍ للبيع.

ويريدون أن يجعلوا (المهَّمة) بفتح الميمين بمعنى (المهَّمة) بضم الميم الأولى وفتح الثانية، مع أن الأولى كما جاء في القاموس المحيط معناها الحزن والأسى، قال: همَّه الأمرُ همَّاً ومهَّمةً: حزنه، كأهمَّه فاهتمَّ. وما حاجتنا إلى التي بفتح الميمين، ما دامت عندنا المهَّمة. وهل صحيح أنها للتفريق بين الاسم والصفة، أي أن أحدهما اسمٌ، وهي التي بالفتح، والثانية صفة، وهل يريدوننا أن نقول إن فلاناً ذهب في مهَّمةٍ مُهَّمةٍ!. ومتى كان التفريق بين الوصفية والاسمية يحتاج إلى اختلافٍ في حركة البناء، أليست كلمة (عادل) اسماً وهي في الوقت

نفسه صفةً للقاضي؟ وكذلك كلُّ أسماءِ الفاعلين التي استُعْمَلَتْ أسماءً وصفاتٍ كخالد وثابت وفارس، وغيرها من المُشْتَقَّات التي يوصَف بها. إن طمس الفروق المعنوية بين الكلمات سياسةٌ غيرٌ حكيمة، وليست مفيدة في ميدان اللغة عامّة، فكيف إذا كانت اللغة أصلاً كاللغة العربية موصوفةً بالدقّة في التعبير؟ وأي دقّة أكثر من وَضْع كلمةٍ لكلِّ حالة يمرُّ بها الكائن في خلقه، وفي مشيه، وفي أكله، وفي شرابه، وفي كلِّ صغيرة أو كبيرة من شأنه أو شأن حيوانه، أو بيئته؟! إن العربية أُوتِيَتْ من الدقّة في التعبير ما تقوى معه على أن توحى للسّامع أو القارئ بصورةً محدّدة وبمعنى خاصّ تبلّغ به أعمق درجات الفهم والوقوف على المدلول.

ونحن اليوم في حاجة إلى إحياء الفروق بين معاني الكلمات، وتحديد الألفاظ الدالّة على المعاني الدقيقة التي يُراد التعبير عنها لِنَمْلِك لغةً علميّةً دقيقةً تدلُّ على الفكر الدقيق لأصحابه. بل نحن في حاجة إلى هذه الفروق للتعبير عن أحاسيسنا ومشاعرنا وأفعالنا المتفاوتة الدرجات.

ولعلَّ أهمّ من ذلك حاجةُ المعرّبين والمترجمين والأطباء والعلماء عامّةً إلى هذه الثروة اللغوية التي نُمِيَتْها اليوم وننّدها بتوحيد معانيها حتى إذا جاؤوا للبحث عن كلمة عربية يعبرون بها عمّا وجدوه في لغة أجنبيّة من معنى دقيق لم يجدوا إلا جملةً مفرداتٍ قلنا لهم إنها مترادفات!! ولو بيننا لهم ما بينها من فروق لوجدوا ما أرادوه يُيسرُ وسهولة.

وهل كان سلفنا في هذا العصر من العلماء الذين حملوا عبء التعريب قادرين على تعريب علمهم لولا محافظة اللغة على ما بين كلماتها من فروق دقيقة؟! من أين للعلماء المخلصين من أطبائنا أن يُعبروا عن دقائق علمهم لو لم

يجدوا ثروةً من المفردات المختلفة الألفاظ المتقاربة المعاني وغير المتطابقة فيها كالرُّعونة والبلاهة والحُمق والهوس والهوساس... وكالعتة والهديان والهبل... أهى كلها جُنون؟! رحمهم الله كم بذلوا من الوقت والجهد ليبيّنوا ما بينها من فروق، وغيرهم يبذل الوقت والجهد ليطمس تلك الفروق، ويجمع بين المتفرقات، تيسيراً - كما يدعون - للغة، ورفعاً للخرج عن المتكلمين، حتى وصل بعض فرسان الاستجابة لما يطلبه الجمهور إلى تحريم (قل ولا تقل) في التصحيح اللغوي!! وقال إنه أسلوب غير تربوي!! فأنت يجب أن تنزل على رأي (الشارع) أي السوق والطلب، وتتخلّى عن رأي (الشارع) الذي شرع لك باب اللغة وضبط لك أصولها وأحكامها، وأرشدك إلى أن تُصبح فيها مثل أصحابها... وحسبنا أن نقول له إن ما حرّمته على المربّين تكرر في كتاب ربّ العالمين نيّفاً وأربعين وثلاثمئة مرة!!

فاستغفر ربّك و(قل): الحمد لله ربّ العالمين.

ورحم الله الجاحظ؛ فقد قال: «اللغة العربية واسعة في اشتقاقاتها، كثيرة المرونة، غنيّة بألفاظها المتباينة والمترادفة. ومن هنا أتى الكتاب، فكثيراً ما يستعملون الألفاظ المترادفة والمتواطئة، بعضها في مواضع بعض، مع أنّ الواجب على الكاتب إذا وقع على ألفاظ مختلفة متقاربة المعاني، أن يبحث عن أسباب اختلافها، ثم يستعمل كلّاً في موضعه ما دام من حقّ علم المعنى أن يكون الاسم له طبّقاً، وألاً يكون له فاضلاً ولا مفضولاً، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً»^(١)

رحمه الله، ما كان أبلغه، وأثقب فهمه، وأرهف حسّه! فلقد كان يُفرّق بين

(١) البيان والتبيين: ٩٣/١.

المترادفات، فكيف لو رأى اليوم مَنْ يخدم العربيّة بطمس ما بين مفرداتها من فروقٍ في المعاني؟!

إن الذين يطمسون الفروق المعنوية بين الألفاظ المتقاربة المعاني، والذين يضعون اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة، يساهمون في خفاء المعاني، واختلاطها، وتداخل حدودها، بعضها ببعض، ويقضون على خاصية من أجمل خصائص العربية وأدقها، وهي التعبير الدقيق عن المعنى المراد، وهي من الخصائص التي يستفيد منها العلماء في كتاباتهم العلميّة، ويستفيد منها المترجمون وواضعو المصطلحات، كما يستفيد منها الأدباء في التعبير عن أدقّ خلجات النفس ومشاعرها، وعن أدقّ الحركات وأنواعها.

في العربيّ - إذا وجد - غنىّ عما سواه.

٣- إن اللفظ العامّي الذي يوجد له بديل في الفصحى، لا حاجة إلى تفصيحه ولو شاع وانتشر، وكذلك الأجنبيّ الذي له مقابل في العربيّة. إن كثيراً من زملائنا في الوطن العربيّ يُنبهون على ما تنطق به العامّة خطأً، فيصحّحون أخطاءهم، سواء أكانت في بنية المفردة أو حركات بنائها، وهذا أمرٌ حسنٌ يُشكرون عليه. وأما محاولة تعليل ما ينطقون به أو يستعملونه من كلماتٍ عاميّة، ومحاولة جعلها فصيحاً والمبالغة في ذلك، فنحن في غنىّ عنه ولو كان شائعاً كثيراً الانتشار، وذلك لأن البديل العربيّ متوفّر، ولأن هذا النوع من الألفاظ العاميّة الدخيلة إذا كثرت وغلب استعمالها، استمرأها الناس وأقبلوا عليها، وأخذت مواضعها على ألسن الناس وفي صحفهم وكتاباتهم وهجروا الفصحى المقابل لها، والذي لو لم نُشرع لهم استعمالها كان هو - أي الفصحى - في مكانها على ألسنتهم وفي صحفهم وكتاباتهم. وإذا كثرت ذلك الجديد، وسيكثر

بلا شكَّ بهمة اللغويين المُفصِّحين، فإنه سيؤدِّي بعد مدَّةٍ من الزمن إلى انزياح لغويٍّ، تنزاح به لغةٌ فصيحة، هي لغة تراثنا وأدبنا، وتحلُّ محلَّها لغةٌ جديدةٌ ساعدنا نحن على نشرها وشيوعها، وهو أمرٌ لا يجوز لحياة اللغة أن يساعدها عليه، وأن يكونوا فرسان ميدانه !

قال الجاحظ «إن اللَّفظ الهجين الرديّ، والمُستكره الغبيّ، أعلقُ باللسان، وآلف للسمع، وأشدُّ التحاماً بالقلب من اللفظ النبیه الشريف والمعنى الرفيع الكريم.» «واعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط يُعشّش في القلب، ثم يبيض ثم يُفَرِّخ، فإذا ضرب بجِرانه ومكّن لعروقه، استفحل الفسادُ وبزل، وتمكّن الجهلُ وقرح، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنعُ دواؤه.»^(١)

رحم الله الأستاذ سليم الجنديّ، فقد كتب مقالاً بعنوان «إنعاش العربية» قال فيه: «ويلوح لي أن خير وسيلة تضمن إنعاش اللغة وسيرها مع مدنيّة العصر الحاضر، وتَحْفَظُ جوهرها من تسرُّب الخلل إليه، أن تُنقِّح من شائبة العُجْمَة والرّكاكة». ولنلاحظ كيف جمع رحمه الله بين صفتين هما العُجْمَة، وهي خاصّة بالمفردات، والرّكاكة، وهي خاصّة بالعبارات والتراكيب. ثم قال: «وألّا يُصارَ إلى الدّخيل أو العاميِّ إلّا عند العجز عمّا يراد فهماً من الفصيح، لأن التسامح في استعمالها يُفضي إلى إفساد اللغة وتكثيرها بغير فائدة، والتّيباس الفصيح بغيره، وانتشار الفوضى فيها، والدليل على ذلك من وجوه:

* منها أن الكلمة إذا كانت موضوعة لمعنى بالوضع العربيّ، ثم تداولت العامة كلمة أخرى تدلّ على ذلك المعنى، فإمّا أن نقول بجواز اللَّفظين معاً فيكثُر سواد المترادفات، وهذا ما ياباه البلغاء في هذا العصر، ويسعون للتخلُّص

(١) البيان والتبيين: ٨٦/١.

منه، وإما أن تُهمل العربيّ العريق في العربيّة ونحتفظ بالعاميّ، وهذا لا يرتضيه مَنْ ضَرَبَ بسهمٍ في العِلْمِ، لأنه يَسْتَلْزَمُ أن يُزالَ المعنى الصحيحُ من المعاجم والكتب حذراً من اللبسِ واستعمالِ المهجور، وأن يبطل الاحتجاج به، ويُنْقَضَ كُلُّ ما بُني عليه من ضروب البلاغة والمحسّنات في النّظم والنثر، ويستلزم فوق ما تقدّم أن يتعدّد الوضع في كلِّ مصر وإقليم.» ويضرب الأستاذ الجندي أمثلة عمليّة لذلك ثم يقول: «فلم يبقَ غيرُ التمسكِ بالفصح الصحيح لعدم ترتّب شيء من المفاصد المذكورة عليه. ويقال مثل هذا في الدّخيل ويُزاد عليه إشاراً الأعجميّ على العربيّ لغير علة ظاهرة ولا حكمة مدركة.

* ومنها أنا إذا أضفنا هذه الألفاظ الجديدة إلى ما في المعاجم اختلط الحابل بالنّابل، وعسر تمييز الفصح من غيره، وما عربّته أو وضعتة العرب مما عربّه أو وضعه غيرها، وهذا يستلزم ألا يكون الكلام فصيحاً أو بليغاً لفقد شرط الفصاحة والبلاغة فيه، وهو الوضوع العربيّ! ولو أردنا أن نشير عند كلِّ لفظ إلى واضعه لخرج الأمر عن حدِّ الإحاطة به.

* ومنها أن الشّعْر القديم متنُّ اللّغة، وأساسها ومُحكّمها وقسطاسها، ولو تسامحنا باستعمال الدّخيل وأخيه لأدّى ذلك بعد قليلٍ إلى هجر اللّغة القديمة، والاستغناء عنها باللّغة الجديدة، لأن النفوس نزّاعة إلى أطراح ما فيه كُلفة، والاعتصامِ بالقريب السّهّل، وهذا يُفضي إلى محو اللّغة القديمة، والقضاء على الآداب العربيّة بجملتها لأنها مبنية على هذا الأساس.

ويقول: «إن الباحث لا يجب عليه أن يجد بل يجب عليه أن يبحث، فإذا لم يجد حاجته أو ما يُقارِبها لجأ إلى الدّخيل أو العامّي ونزل فيهما على حُكم الصّرورة. ولا يتسنّى للّغة أن تستعيد مجدها إلا إذا كثُر الباحثون. ولو أتيح لهذه

الأمة أن يكثر فيها المتعلمون الشاعرون بمكانة اللغة في المجتمع البشري،
وينهجوا في إحيائها على قاعدة توزيع الأعمال؛ فينقّب الطبيب مثلاً عن أسماء
العِلل والأمراض، والتاجر عمّا يحتاج إليه في تجارته، والصانع عمّا يختص
بحرفته، والعالم والمؤلف والشاعر والكاتب عمّا يفتقر إليه كلّ منهم، لنهضت
في وقتٍ قصير إلى مَصافِّ اللّغة الحيّة. ^(١)

وقد تنبّه على هذا الأمر بعض العلماء من القدماء ونبّهوا عليه، وكان منهم
ابن السراج (ت ٣١٦هـ) الذي قال: «الأولى لواضع كلّ لغة أن يكتفي بالاسم
الواحد للمعنى الواحد» ^(٢) كما انتبه العلماء قديماً إلى مَنْ كان يُحرّف، ويُغيّر أو
يقبل بغير الصحيح، وأتهموهم بلين الجِلْد، ورفضوا الأخذ عنهم أو الاحتجاج
بهم. فأين منهُج ابن السراج في وضع المفردات؟ وأين منهج الأستاذ الجندي في
المحافظة على اللّغة وتجنّبها العاميّ والدخيل ممّن ينادي اليوم بفتح باب
السّماع؟ لقد وصل أمر التسامح اليوم إلى درجة الإباحة فدعا بعض الكتاب إلى
اعتماد السّماع اليوم وإطلاقه من قيّد الزمان والمكان احتراماً لحقّ المُحدّثين من
طوائف المجتمع!! إنه حريص على «الديمقراطية» في اللّغة وفي العِلْم،
وحريص على تلبية طلبات الجماهير.. وهل يصحّ في الأفهام شيء إذا أخذنا آراء
جماهيره من طوائف المجتمع في العلوم كافّة؟ أم أن العلوم اختصاصات وأما
اللّغة فمن باب المباحات؟!

هل فكّر هذا المنادي «الديمقراطي» كيف سيكون حال اللّغة بعد مئة سنة
إذا استجبنا لندائه؟! هل سيفهم أحفاده وأحفادنا لغة التّراث التي نفهمها

(١) مجلة مجمع اللغة العربية المجلد / ٥ سنة ١٩٢٥ م.

(٢) ابن السراج. رسالة الاشتقاق ص ٣٢.

نحن اليوم؟

إن العامية لغةٌ مختلطة، فيها العربيّ المحرّف، وفيها الدّخيل من لغات متعدّدة، وفيها تحريف للإعراب، وتشويه للأبنية، وإهدار لسلامة التركيب، فماذا بقي فيها من العربيّة؟! ألم يكن الناقد الأدبيّ، أو الناقد اللغويّ، أو العالم بالشّعر ومعرفة الكلام، قادراً على معرفة بيت الشّعر وعصره من مجرد سماعه؟ ألم تكن أحكام أكثرهم على نسبة بيت من الشعر إلى قائله أو نفيه عنه مُستندةً إلى كلمةٍ وردت في البيت أو إلى أسلوبٍ نظمه؟!

أرأيت لو أن علماء السلف قاموا بما يقوم به بعض اللّغويين اليوم، أو لو أنهم استجابوا إلى بعض ما ندعى إليه اليوم، أكانوا قادرين على صون اللّغة؟ بل أكانت عندنا اليوم تلك الروائع الأدبيّة والعبقریات اللغويّة التي وصلت إلينا بفضل ما صانوها به، وما أحاطوها وبذلوا لها من رعاية وصيانةٍ وحفظ؟

لا تصحيح ولا تجديد إلا تحت سقف الأصول.

٤- إن مخالفة اللغة الفصيحة ليست بترك الإعراب وحده، وهو أهون المخالفات، وليست بقبول العامي فقط، ولكنها تكون بما هو أقبح من ذلك، وهو مخالفة الصيغ أو الأبنية، وابتداع أبنية جديدة لا تُعرف أصولها ولا دلالاتها، وتكون أيضاً بما هو أخطر من هذا وذاك، وهو مخالفة النسيج وأسلوب التعبير، وصياغة الجملة أو التركيب!

إن للعربية قوالب لغويّة، وأساليب تعبيرية، كثيرةً ومتنوعة، وهي تتسع للتعبير عن المواقف المختلفة والأوضاع المتباينة، من أدقّ خَلجات النفس إلى أعقد أحداث الحياة ومظاهر الكون، وهي ما نقول إنه النظم الذي يُمثّل الفصحى ويعبر بها وعنّها وعن حقيقتها وما تتصف به من صفاتٍ في حروفها

ومفرداتها وجميع ما يتصل بصفاتهما... وهو نظم أو أسلوب قابل للتطور تحت سقف أصول اللغة وقواعدها، ولا يتطلب الإبداع في إنشائه أو تغييره شذوذاً أو خروجاً عن تلك الأصول والقواعد. رأينا ذلك وعرفناه في تراثنا الأدبي، النثري والشعري، وعرفنا تطوره خلال العصور الأدبية المختلفة، ورأينا في كل عصرٍ من اللوحات اللغوية ما وصل إلى قمة البلاغة اللغوية، وهو في كل عصرٍ مخالفٌ للعصر الذي سبقه، ومختلفٌ عن العصر الذي لحقه!

ولعل أبرز ما يدل على أن اللغة بأسلوبها ونظمها وتأليف كلماتها، لا بكلماتها مفردة، أن القرآن لم يتحدّد العرب بمفرداته، ولا بإعرابها، بل بالقالب الذي سيقت فيه الألفاظ أو المفردات، على نحو ما رأينا في آيات التحدي التي سبقت.

وكذلك رأينا النقاد من الأدباء واللغويين يقفون مُستنكرين الخروج عن أصول التعبير، وعن القواعد الأسلوبية في كلام من خرج عن ذلك كالفرزدق، الذي قالوا إن من حفظ شعره فقد حفظ ثلث اللغة، وعاثوا عليه قوله:

إلى مَلِكٍ ما أمُّه من مُحارِبٍ أبوه ولا كانت كُليبٌ تُصاهِرُهُ
وقوله:

وما مثله في النَّاسِ إلا مُملَكاً أبو أمِّه حيُّ أبوه يُقارِبُهُ
إنهم يرون - وحق ما يرون - أن للغة أسلوباً ونظماً، أو منهجاً في التأليف هو الذي يشكّل نسيجها العام، ويرسم مرآتها المشرقة، ويُجَلِّي صفحتها، فإذا اختل هذا النسيج تشوّه وجه اللغة، وغاب صفاؤها، وانطفأ أو خبا إشراق مرآتها.

ولعل مما يؤيد هذه النظرة إلى اللغة، أن القدماء كان بينهم لغويون كثيرون، في كل عصرٍ من عصورهم، فلم يُطلقوا على أحدٍ منهم اسم الأديب إلا إذا كان له (تأليفٌ) صار به أديباً، أو ظهر فيه أدبه!

وكان بعد ذلك عندهم عددٌ من أشهر المترجمين، ترجموا إلى العربية من لغاتٍ مختلفة، وفي عصورٍ مختلفة، فلم يُطلقوا على أحدٍ منهم لقبَ أديب، أو وصفوه بالأدب، إلا مَنْ كان لا يكتفي بالنقل أو الترجمة، بل يؤلّف ويصوغ ويُنشئ على نحو ما فعل ابن المقفّع فكان أديباً من أدباء العربيّة، لا بترجمته ولكن بأسلوبه وبصياغته المتميّزة، أي بامتلاكه ناصيةً الأسلوب والصياغة وطريقة التعبير العربية.

إنّ هجر الأساليب الفصيحة وما هو في فلکها وعلى منوالها، وقبول أساليب معدولةٍ عن وجهتها أو محرّفةٍ، ومنحها شهادةً فصاحةٍ وجوازٍ مرورٍ إلى الفصح أخطرٌ من إدخال كلمة أو قبولٍ مفردةٍ جديدة؛ لأنّ المفردة تَضيع في آلافٍ من الألفاظ العربيّة، ولأنّ المفردة ليست أصلاً في بناء اللغة أو نظامها أو نسيجها. وإنّ أخطر من ذلك ما يقوم به اليوم بعض الدّارسين والباحثين في اللّغة من قبول تعبيرٍ أو أسلوبٍ منحرفٍ معدولٍ به عن الأصول العربيّة الصحيحة المتّبعة مع وجود بديلٍ يُغني عنه، ويؤدّي معناه، مما سنرى مثلاً منه بعد قليل.

إنّ النّقد الذي يُلاحق الأسلوب أجدى على اللّغة من النقد الذي يلاحق الإعراب، وأقومٌ من النقد الذي يُلاحق المفردات.

وهذا الذي نفتقده اليوم في كثير من مجالات التصحيح اللغويّ، كنا ندرسه في المدارس الابتدائية والإعدادية في مقرّر اسمه «الإنشاء»، ثم مع التّطوير والتجديد، صار اسمه «التعبير».. ثم عند التطبيق استغلّت ساعاته للإعراب أو لأيّ شيءٍ آخر إلاّ الإنشاء!

وهذا الذي نسّميه الإنشاء، وهو أن تنشئ على وفق الأسلوب العربيّ المبين في الكتابة، هو الذي دعا الحكومة العربية الأولى في دمشق عام ١٩١٨ إلى إيجاد

وظيفة «منشئ» في كل وزارة أو إدارة حكومية، حرصاً على أن تصدر الكتب الرسمية بأسلوب عربي سليم، وقد شغل هذه الوظيفة الأستاذ خليل مردم بك، والأستاذ سليم الجندي، والأستاذ شفيق جبري، والأستاذ عز الدين التنوخي، وغيرهم. وكان المنشئ الممتاز يرقى إلى «مميز» لجودة إنشائه وحسن تمييزه بين الأساليب السليمة وطبقاتها.

مثال من الفناوي.

٥- في العربية ثلاثة تعبيرات عن معنى واحد هي:

١- الأمين العام للجامعة.

٢- أمين الجامعة العام.

٣- أمين عام للجامعة.

وهي كلها صحيحة فصيحة خفيفة، مقبولة تركيباً ونحواً، معبرة عن المعنى المراد، ومع ذلك اشتغل عدد من العاملين في الحقل اللغوي، ومن أفاضل الباحثين ليُجيزوا وجهاً رابعاً هو قولهم (أمين عام الجامعة). وقد بذلوا كلهم في سبيل ذلك وقتاً طويلاً، وأخذت مذاكراتهم ومناقشاتهم جلساتٍ من جانهم، وغاصوا في بطون الكتب محاولين إيجاد وجهٍ ولو نادراً لتخريج هذا التعبير، واستقصوا الموضوعات النحوية التي تتصل بالفصل بين المتضامين، وبجواز إضافة النعت إلى منعوتة.. وتأولوا ما تأولوا في سبيل الوصول إلى فتوى نحوية تُجيز هذا التعبير المشوّه، وكأنَّ المشكلة في التركيب مشكلةً نحويةً تتوقف على صحّة إعراب كلمة (عام).

والعجيب أن الذين أجازوه لم يسألوا أنفسهم عن مدى الحاجة إليه ما دام في اللغة ما يُعني عنه... ولم يجدوا باعثاً على ضرورة إجازته سوى أنه مُستعمل،

شائع، منتشر!! وما تعبوا في إيجاد وجه إعرابي للكلمة (عام) ذهب سُدىً لأن العامة المُستعمِلة له لا تَنطِقُه إلا ساكناً، ولم يَسْتَسْخِ أَحَدٌ نَطْقَه معرباً! .. وكان حرياً بهم قبل أن ينظروا في الوجه الإعرابي المهجور أصلاً أن يبحثوا أولاً في الحاجة إليه! وثانياً في صحة معناه!

هل معنى (أمين عام الجامعة) بمعنى (الأمين العام للجامعة) أو بمعنى (أمين الجامعة العام)؟

هل معنى (حارس أعلى المبنى) بمعنى (الحارس الأعلى للمبنى)؟

هل معنى (مجلس قبلي المدينة) بمعنى (المجلس القبلي للمدينة)؟

أليس التركيب الذي أجازوه وهو (أمين عام الجامعة) كما ينطق به مستعملوه بسكون كلمة (عام) يدل على أن الموصوف بذلك هو أمين عموم الجامعة كلها، وليس أميناً لبعض كلياتها؟

لماذا يكلّف علماءنا الأفاضل أنفسهم ليُجيزوا ما لا حاجة إليه أصلاً ما دام له في العربية بديل بل أبدال عربيّة فصيحة؟!

هل يكفي أن تستعمل العامة وجهاً من وجوه الكلام حتى يصبح واجباً على فرسان العربية أن يرضوهم، وأن يدخلوا لغتهم المشوّهة وأساليبهم العرجاء حمى الفصحى، وأن يمنحوها الشرعية، ولو أساءت إليها وشوّهتها؟ هل أصبح عمل حُماة الفصحى الاستجابة لطلب الجمهور؟ وهل نأخذ كلّ ما شاع على ألسنتهم أو أقلامهم وانتشر لنَجهد في تجويزه شرعاً وقانوناً، ولو لم تدع حاجة إليه؟

إن التعبير الجديد الذي أفتوا بقبوله غير صحيح من حيث المعنى، ضعيف من حيث الصياغة، لا يُجْتَبُ له بيت شعرٍ نادرٍ أو جملة عوراء التَّقَطَّت في بحر

طام من روائع الجُمَل، وكأنَّ الذين يقولون ذلك يعرفون إعراب ما ينطقون به ويُظهِرونه!...، إنه تركيب يُسيء إلى النسيج المألوف في العربيَّة، وما أظنَّ أحداً ينطق به على وجهه الصَّحيح الذي تعب مجيزوه في البحث عن تخريجه في ضوئه.

إنَّ عصرنا عصر اقتصاد واختصاص، فكُلُّما قللنا من قبول ما لا حاجة بنا ولا بلُغتنا إليه فقد أحسنَّا. إنَّ تفصيح المفردات - إنَّ لم تكن فصيحة أصلاً - وكان في العربيَّة بديل عنها لا حاجة بنا إليه. وإنَّ قبول تعبيرات جديدة مشوَّهة أو منحرفة، إذا كان في اللغة ما يُغني عنها، عمَلٌ غير مقبول. وإنَّ الديمقراطية، ونظام الأَكثريَّة والأقليَّة الذي يصارع تحت شعاره السياسيون، لا يصلح في ميدان العِلْم، ولا يجوز الأخذ به ولا الاحتجاج به في اللُّغة العربيَّة من بين اللغات على الخصوص، ولو سار علماءنا القدماء على سُنَّة بعض علماءنا المُحدِّثين ومنهجهم لما كانت عربيَّتنا الفصيحة اليوم على ما هي عليه من صِلَة حميمة بلغة أدبنا وتراثنا.

العالم رسالة وموقف:

إنَّ العلماء مصايحُ الهدى في مجتمعاتهم، وإنَّ عِلْمهم يفرض عليهم أن يظُلُّوا ثابتين في مواضعهم من قيادة المجتمع، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين.. وإذا تَبَعوا فلا يَتَّبِعون إلاَّ الحقَّ وإلاَّ حقائق علمهم.

هل يسمح علماءنا الأفاضل أن يقفوا معي على أمرٍ أراه ذا بال، ولست أكتُم أن أهميَّته هي التي دعنتني إلى أن أكتب كلَّ ما كتبت وما سأكتب، إذ لو كان الأمر مقصوراً على إجازة تركيبٍ أو توجيه إعراب لكان أمراً أهونَ من أن نقف عنده ونُطيلَ في الحديث عنه. ولكنَّ الذي أراه أن كثرة الإجازات للمعدول عن وجهه أو للمُنحرف عن الجادة، وتَعوُّد العرب سماعه وكثرة

استعماله سيفقداهم الإحساس بالفرق بينه وبين الصواب الذي لم يعودوا يعرفونه أو يستعملونه، إن غلبة اللغة المحدثة تُفقد الناس لذة اللغة الفصيحة، لقد وصل الأمر الآن إلى أن معظم من يسمعون القرآن من العرب، ومن الطلاب، لا يفهمونه! وأن معظم طلاب الجامعات اليوم، وقد جربتُ هذا بنفسى عدة سنوات، لا يُدركون كثيراً من المعاني التي وردت في نصوصٍ للطبري في تاريخه، ولياقوت في معجم البلدان، لأنهم واجهتهم كلمات لم يألفوها على سهولتها، وُصدموا بجُمَل لم يفهموا المراد منها!! أفنساعد نحن اليوم على إيجاد جيلٍ يأتي بعد خمسين سنة، وقد كثرت إجازاتنا لكل جديد، فلا يفهم معظمه ما في تراث أُمَّته؟! ولا أقول كتاب ربّه؟ ألسنا نُجرّد الناس بعملنا تجويز المشوّه، وتعويدهم سماعه واستعماله، من الإحساس أو القدرة على التفريق بين السويّ الجميل والوليد المشوّه!؟

- أليس في تاريخ الرواية والرواة أنهم كانوا لا يروون إلا ما يُعجبهم ويُوافق سلائقهم؛ فما خالفها نفوه وأهملوا روايته! ألم يتركوا من شعر عدي بن زيد؟ ومن شعر أبي ذؤاد الإيادي؟ ومن شعر الأعشى، وهو شاعر فحل، ولكنه كان يخلط شعره أحياناً بألفاظٍ فارسيّة... ألم يكن الرواة يفعلون ذلك بدافع ما في نفوسهم من إحساسٍ صادق وذوقٍ لغويّ، وبصيرة نافذة فيما يسمعون ويروون؟

إنّ هذا الذي قام في نفوسهم من صدقٍ وذوقٍ وبصيرة هو الذي عرفناه عند العرب عامّة، وعبرنا عنه بالفطرة تارةً، وبالسليقة تارةً أخرى، وهو الذي عرفوا به أسلوب القرآن، وأدركوا إعجازه، فسمعوا ودهشوا وصدعوا وتجاوزوا التحديّ - وكأنّ لم يكن، وتواصلوا فيما بينهم بتجاوزه والخروج أو

النأي عن سماع القرآن حتى لا يقعوا تحت تأثيره ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]!! ..

ثم أليس في تاريخ النّقد أن قدامة وهو الذي جاء بعد عدد من النّقاد وقف ليقول: «إنهم كتبوا في أقسام الشعر، وزنه وعروضه، وقوافيه ومقاطععه، وغريبه وإعرابه، ومعانيه ومقاصده، ولكنه لم يرَ أحداً كتب عن تخلص جيده من رديئه، وهو قسم أولى بالشعر من سائر الأقسام». ومثل ذلك ما نراه عند الذين عنوا بالنّقد اللغويّ الحديث؛ ذهبوا إلى الألفاظ بحروفها وانسجامها وموسيقاها ودلالاتها وإعرابها وعروبتها وفصاحتها، وقصروا فيما هو أولى باللّغة منها، وهو نسيجها حين تُصبح نصّاً حيّاً تحيا فيه الحياة وتشرق فيه اللّغة!

إنّهم تناولوا اللفظ والمعنى والغرض، وحين تناولوا الأسلوب حلّوه إلى ما سبق من عناصر فكرّروا الحديث عنها مفردةً، والأسلوب هو هي مجتمعةً! إنه الأسلوب الذي يتسلسل الكلام فيه كالماء النّمير، الذي رقّ وعذب، وأحكّم فاستحكّم فجاء صافياً واضحةً كلماته، متلاحقةً فقراته، اتلفت مقاطعه وأوصلت مباديه إلى خاتمه.

إنّ صاحب الذّوق اللّغويّ لا يقف على الأسلوب العربيّ الصحيح الفصيح حتى يدرك ما في صياغته وفنه من روعة وجمال، وما في نسجه من قوّة وإحكام، وما في ديباجته أو صفحة وجهه من إشراق وحياة، وبئس الأسلوب الذي تنبو عن السّمع واحدةً من كلماته، أو تحجب معناها صبيّةً من مفرداته، وتختلّ فيه جملةٌ أو يختبئ بين جملةٍ تعبير مبتدل أو سوقيّ .. أو يظهر فيه تكلف أو تعسف أو استكراه..

لغتكَ مرآة عقلك، ولغة القوم صورة تفكيرهم، وغير خافٍ أن لكلّ قوم

أسلوباً في لغتهم يُعبّر عن مسارب تفكيرهم، ويصوّر عقولهم وما تختزن، ونفوسهم وما تنطوي عليه... وكذلك تتطور أساليب كلامهم على حسب ما يتطورون ويتغيرون عبر العصور؛ فلكل عصر أسلوبه وذوقه، ولكن الأمة تبقى محافظة على الأصول التي توحد أو تجمع بين أجيالها مهما اختلفت أساليبها وتتابع عصورها..

مع المترجمين والمُعربين وواضعي المصطلحات:

إن الذين اهتموا بالتعريب قديماً وحديثاً بذلوا معظم جهودهم في المفردات؛ فأحصت كتبهم ما دخل إلى العربية من مفردات أجنبية، وصنّفوا الدخيل منها بحسب أصوله أو انتمائه الأجنبي، وحددوا اللغات التي دخل منها، وحاولوا وضع ضوابط لجواز دخول الغريب...

ولا شك أن هذا الذي سمّوه بالتعريب - على اختلاف تطور مدلوله بين القدماء والمحدثين - هو أثر واحد من آثار التقاء اللغات وتجاورها واحتكاك بعضها ببعض.. وما زالت آثار أخرى كثيرة في حاجة إلى زيادة المتابعة والتحليل والدراسة، لأن من آثار التقاء اللغات أيضاً تأثر بعضها ببعض في أصوات حروفها، وفي صيغ أبنيتها، وفي أجناس كلماتها وأنواعها بين مُدكّرة ومُؤنّثة، ومُفردة ومُثناة ومجموعة.

ورأينا كيف حَمَل ضِعافُ المترجمين كلماتٍ عربية غير معانيها، وأشاعوها، وزادها الإعلام شيوعاً وانتشاراً، كاستعمال فعل (لَعِبَ) بمعنى أدى دوراً أو قام به، وهي ترجمة سيئة؛ لأن اللّعب في العربية قرين اللّهُو، ولأنه ضدّ الجِدِّ^(١).

(١) فعل (لعب) بكلّ تصرّفاته ضدّ (جَدّ). وقال الزبيدي في (تاج العروس): «يقال لكلّ من عمل عملاً لا يُجدي عليه نفعاً إنّها أنت لاعب.» وجاء اللعب في القرآن مقترناً باللّهُو. وكلّ =

ورأينا كيف أدخلوا الكاف الدالة على التشبيه في غير موضعها فقالوا: أنا كطبيبٍ أنصح بذلك، وسارع المفتون إلى إجازة ذلك بحجة أن الكاف للتشبيه، وهل يُشبه الشيء بنفسه؟! وكيف ذكروا الضمير قبل ما يدل عليه فقالوا: من جهته صرح فلان بكذا... إلى غير ذلك من تراكيبٍ وجملٍ تأباها العربية المبينة.. ولعل من أهم ما يقع فيه التأثر بين اللغات بعضها ببعض، أساليب التعبير وتركيب الجمل، وهو ما لم يأخذ حقه من الدراسة لا عند القدماء ولا عند المحدثين! وإذا قصر القدماء فيه فلأن مجتمعاتهم كانت ذات مناعة ثقافية لغوية تحفظ لأساليبهم عروبتهما وأصالتها، وتحمي ألسنتهم وأقلامهم من الركاكة والهلهله وعجمة التعبير! وأما المحدثون فقد تسربت إلى لغاتهم مئات التعابير والتراكيب مما لا يرقى إلى مستوى البيان العربي، ولا يعبر به اللسان المبين، وكان ذلك لتدني المستوى اللغوي، وضياح السليقة، وضعف الذائقة اللغوية، وكثرة اللغات الغازية الدخيلة، وقبول أساليب المترجمين الذين غلبت في كتاباتهم أساليب اللغات الأجنبية على الثقافة اللغوية العربية والأساليب السليمة أو الفصيحة في التعبير. ونحن لا نعني بذلك ما نسميه بتطور الأساليب واختلافها من عصرٍ إلى عصر، كقصر الجملة أو طولها، واستقلال الجمل بعضها عن بعض أو تداخلها، وما تتطلبه المواقف والأحوال من تغيير أساليب الأقوال، فذلك معروفٌ تطوره الملاحق لتطور الحياة وتطور الفكر منذ العصر الجاهلي إلى ما تلاه من عصور، كان فيها لكل عصر أسلوبه. إننا نعني ما نراه اليوم من أساليب التعبير في كثيرٍ من كتابات المعاصرين التي تخلخلت

= ما يُلعب به لعبة. ومكانها الملاعب والملاهي، وليس المجالس الجادة والمؤتمرات، فتلك يؤدى فيها المشاركون أدوارهم ولا يلعبون.

جملها ورگت، ولبست لباس اللغات الأجنبية فقلدتها كالبدء بضميرٍ لم يُذكر صاحبه، أو ذكرِ الفاعل بعد ذكر الفعل مبنياً للمجهول دون داعٍ بلاغيٍّ، أو غير ذلك مما يخالف الذوق العربي اللغوي. أو لبست لباس العامية وصاغت بأسلوبها، ثم يأتي دور (المفتين) ليكتشفوا للتعبير وجهاً من وجوه الإعراب!

إن هذا أخطرُ على اللغة من دخول مفردات، لأن المفردات كما رأينا أحجار تأخذ مكانها في البناء، ولكنها لا تُغيّر شكله. وأما ذلك فتحويلٌ لشكل البناء وأسلوب إقامته وتغيير هويته! ولأنّ المفردة الدخيلة تُضيق بين المفردات العربية، وكثيراً ما تبقى مُعلنةً عُجمتها بصفةٍ من صفات كثيرة يعرفها المختصون ويحكمون بأنها ليست من لغة العرب، وذلك على نحو ما فعله ابن خالويه في كتابه «ليس في لغة العرب»، وكذلك ما ينظر إليه العلماء من المفردات في ضوء ضوابط وضعوها للتمييز بين الأصل والدخيل.

وجدير بنا أن نُلحِق الحديث عن الترجمة القول بأن الذين يضعون المصطلحات نقلاً من اللغات الأجنبية لا يجوز أن يكونوا مجرد مترجمين ينظرون إلى أصل المصطلح، وإلى جذره اللاتيني وما يدل عليه، ثم إلى ما لحق أو تقدّم عليه من لواحق أو سوابق، فقد يوقع ذلك في خطأ لا يُنقذنا منه إلا تعريُّه، أعني فهمه وإدراك معناه، ثم وضع الكلمة العربية المناسبة للدلالة على مفهومه ومعناه. لأن الغرض من تعريبه أن يُصبح المصطلح عربياً واضح الدلالة، يفهم الطالب العربي والباحث معناه لأنه عبّرت عنه كلمة من لغة حيّة فاعلة في ذاكرته ودخلت ثقافته، وبذلك يستطيع أن يفهمها ويتمثل معناها، وأن تصبح جزءاً من ثقافته أو من معرفته العلميّة، وتكون خطوة أولى نحو توطين العلوم.

توطين العلوم

إنّ على المَجْمَعِيّين والجامعيّين والعلماء العاملين المخلصين للعربيّة ولأصحابها أن يعملوا على توطين العلوم. ولن يتمّ توطينها إلّا إذا أصبحت وطنيّة اللّغة، عربيّة اللّغة، وعند ذلك يملك الطلاب والمختصّون علومهم بلغتهم، وعند ذلك يُتّيجون العلم بلغتهم، وعند ذلك يدخلون في سلك الأمم التي تصنع الحضارات. ونعني بعربيّة اللّغة أن يبقى عملهم ضمن شروط وضوابط لا تسمح بانزياح لغويّ، ولا تسمح بتجاوز الأصول التي لا تبقّى اللّغة محافظةً على وحدتها وعلى استمرارها وعلى ارتباطها بماضيها إلّا إذا بقيت محافظةً عليها.

إن على العلماء اليوم أن يقوموا بمثل الدّور الذي قام به أسلافهم حين نقلوا إلى العربيّة علوم من عاصرهم، وعلوم من كان قبلهم من الأمم والشعوب، ولم يضحّوا بلغتهم، ولم يكونوا مجرد مترجمين، ولا مجرد ناقلين، بل اطلعوا وعرفوا وتعمّقوا وتمثّلوا مُستوعبين ثم أخرجوا ما نقلوه وتمثّلوه بثوب جديد شكلاً ومضموناً، فكان علماً فيه القديم وفيه الجديد، وفيه النّقد والتصحيح، وعبروا عن كلّ ذلك وفي كلّ العلوم وعلى اختلاف شعوبهم بلسانٍ عربيّ مُبين، حملت به لغتهم كلّ ما عرفته العلوم من تنوع، وكلّ ما أضافوه من إبداع. ولقد امتلأت كتبهم العلميّة في الجغرافية والفلك والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والفيزياء، وفي التشريح والطبّ بآلاف المصطلحات، ممّا وضعوه ووضّعوا ولم يكن كثير منها مترجماً ترجمة، ممّا جعلها متداولة ومرقاة لعقول الناشئين والقراء إلى إدراك مدلولاتها والوقوف على حاقّ مرادها، وهو ما يجب أن تكون عليه المصطلحات، لأن كلّ إنسان يُدرك

الأشياء، ويدرك ما حوله، ويدرك الكون من خلال لغته، وما يدركه بألفاظها لا يدركه بألفاظ غيرها، إن ألفاظ غيرها جامدة في ذهنه، لا تعرفها ذاكرته، وأما ألفاظ لغته فقد عاشت هي أو جذورها وأسرتها في ذاكرته، وبقيت حية في وعيه. وليس صحيحاً أن معرفة الجذور اللاتينية للمصطلح الأجنبي ووضع ما يقابله في العربية يجعله مفهوماً للقارئ العربي.

إن أكبر تحدٍّ يواجه علماء اللغة والمؤسسات اللغوية، كما يواجه العلماء في كل العلوم هو نقل العلوم التي تتطور بسرعة عظيمة في العالم من حولنا لنضعها بين أيدي أبنائنا بلغتهم التي عرفوها وألفوها، ليألفوا العلم الجديد بها، وبذلك يفهمونه ويتمثلونه، ويستوعبونه، وتظهر بعد ذلك عبقريتهم في الإفادة منه، والإضافة إليه، وتطويره. إن إدراك حقيقة الشيء ومعرفة طبيعته وكُنْهِه، لا يكون إلا باللغة الأم التي رضعها الأبناء المتعلمون واستعملوها، وكانت مفرداتها سبيلهم إلى إدراك الكون، وإدراك كل ما يُحيط بهم.

مقترحات

وأذكر فيما يأتي أهم ما أرى الأخذ به في العمل اللغوي الذي يقوم به العلماء فرادى أو مجتمعين، من تقديم الآراء والمقترحات، ومن إصدار القرارات، مما يساعد على التصحيح والتدقيق، وتوسعة اللغة بالوسائل المشروعة حتى تبقى لغة حية قادرة على مواكبة العصر والوفاء بمتطلبات العلوم، وتبقى على تطورها واتساعها متصلةً بجذورها، محافظة على أصولها. مذكراً بأن توحيد المناهج يُؤدِّي إلى تقارب أو توحيد النتائج:

١ - باب الزيادة مفتوح، وعدم إيراد المعجم كلمة ما، لا يعني خطأها أو

إنكارها، فالمعجمات لم تستوعب لغة العرب.

- ٢- أبرز وسائل الزيادة أن يستفيد اللغوي من وسيلتين:
الأولى: المجيء بفعلٍ مزيدٍ لم يأت في لغة القدماء إلا مجرداً.
والثانية: إضافة دلالةٍ جديدة إلى كلمة استعملت قديماً بدلالةٍ أخرى
مُغايرة، على أن تكون بين الدالتين القديمة والمحدثة مناسبة.
- ٣- يُمكن إحياء آلاف المفردات غير المستعملة؛ ذلك أن العرب لم يستعملوا كثيراً من تقاليب الجذور الثلاثية، بل إن بعضها لم يرد منها عندهم سوى تقليبٍ واحد، على حين أنهم استثمروا بعضها بجميع تقاليبه مثل (بجر، برج، ربح، رجب، جبر، جرب)، ويمكن إعطاء ما لم يُستعمل دلالةً قريبة من المعنى العام للجذر المستعمل، أو غير قريبة. فقد أعاد ابن فارس بعض الأصول في مقاييسه إلى سبعة أصول أي سبع دلالات! وإننا كلما أحيينا جذراً أو تقليباً فقد أحيينا معه جميع مشتقاته.
- ٤- لا مانع لمعرفة دلالة كلمة من الكلمات، من الاستئناس باستعمال الأدباء والكتّاب لها بعد عصر الاحتجاج، على أن يكون المُستشهد بهم من المختصين كالجاحظ والتوحيدي وابن المقفع وأمثالهم. ولا عبرة باستعمال غير المختصين ولو تكررت الكلمة عندهم آلاف المرات.
- ٥- شيوع الكلمة في العصور المتأخرة، والعصر الحاضر، ليس حجة، ولا يعني ضرورة الأخذ بها أو إقرارها.
- ٦- استعمال العامة للكلمة لا يعني عدم صحّتها عربيةً.
- ٧- قد يستعمل العامة كلمة قديمة لها دلالتها ومعناها المعنى جديد يُطلقونها للدلالة عليه، فإذا كانت بين المعنيين أو الدالتين مناسبةً قبلت وقُبِل استعمال العامة لمرادهم، وإلا فلا.

٨- يمكن إعادة الفصحح الذّي حرّفته العامّة بنُطقها إلى أصله ونُطقه الصحيح.

٩- نظراً إلى أن كثرة المترادفات لم تُعدّ مزيّة مرغوبة، وإلى أن كثرة الجديد المستعمل تؤدّي إلى هجر القديم، فإنه لا حاجة إلى قبول الجديد إذا كان له بديل عربيّ مستعمل بالمعنى نفسه.

١٠- في العربيّة كلمات كثيرة تشترك في الدلالة على معنى عامّ واحد، ولكنّ بينها فروقاً دقيقة في المعنى الذي تختصّ كلّ منها بنوع متميّز فيه. ويستعمل أكثر الناس اليوم هذه الكلمات على أنها مترادفات، وليست هي كذلك، وبذلك يطمسون المعاني الدقيقة والفروق المميّزة لكلّ منها، وهي خاصّة من أبرز خصائص العربيّة، وأدلّها على دقة العربيّة وقدرتها على التعبير. ونرى أن الواجب يقضي على اللغويّ المحافظة على تلك الفروق، وعدم اتّباع العامّة في طمسها. وذلك سواء أكانت الكلمتان من مادّة لغوية واحدة مثل: باع وأباع. أو كانتا من أصولٍ مختلفة مثل: الهوس والهديان والبلاهة والهبل والحُمق ونحوها. وسيكون في ذلك عونٌ لو اضعي المصطلحات وللمترجمين في اختيار الكلمة المناسبة للمعنى الذي يريدون التعبير عنه بدقة.

١١- إن صحّة التراكيب، وصياغة الجُمَل، وارتقاء التعبير في سلّم البيان والفصاحة، لا يقلّ قيمةً، بل هو أخطر وأبعد أثراً من وجوب تصحيح المفردات! لذلك تجب العناية بصحة العبارات وصفائها، ورُقّي أسلوبها، وعدم قبول الضعيف أو الرّكيك أو مُهلهل النّسج، ولو كان له وجه من وجوه الإعراب. وإنّ شيوعه على ألسن العامّة لا يوجب علينا أن نقبله ونشرّعه ونقنّنه.

١٢- المصطلح العربيّ الذي يوضع في مقابل مصطلح أجنبيّ يجب أن

يكون (معرباً) يدلّ على المعنى ويراعيه، وليس (مترجماً) يراعي الأصل الأجنبيّ أو اللاتيني للفظ الأجنبي، وإلا فإن القارئ العربيّ يحفظ المصطلح بلفظه ويستعمله بحسب تعريفه، وهو غير مُتمثّل له ولا مُدرِك كُنْهَهُ. وإذا تُرجم المصطلح فلا بدّ أن تكون الترجمة بكلمة تدلّ على معناه وتراعيه أكثر من مراعاتها لأصله ولفظه.

وأما ترجمة المصطلح كترجمة أسماء الأعلام؛ أي نُطِقَهُ كما هو في لغته، فلا يعطي مدلولاً واضحاً للقارئ العربي. وأخطر من ذلك أن نشقّق من الاسم الأجنبي أفعالاً وأسماءً؛ فنأخذ (البيولوجيا) ونترك (علم الحياة)، ثم نشقّق فِعْلَ (بَيْلَج) كما اشتقنا (بَسْتَر) من (باستور) بدل (عَقَم أو طَهَّر)، وكما بدأت قنوات (عربيّة) بكلّ أسف تستعمل (فَوْتِر) من الفاتورة، و(أكشن) من *action* وهكذا...!! وإن ذلك كلّه غير معقول ولا مقبول. ورحم الله ابن السّراج، فقد كان وَصَح «رسالة الاشتقاق»^(١) وعقد فيها باباً عنوانه «باب ما يجب على الناظر في الاشتقاق أن يتوقّاه، ويحترس منه». وقال فيه: «فمّا ينبغي أن يحذره غاية الحذر، أن يشقّق في لغة العرب لشيء قد أخذ من لغة العجم، فيكون بمنزلة من ادّعى أن الطير ولّد الحوت!!»^(٢). وقد أثنى على هذه الرسالة العالم اللغويّ أبو الفتح بن جنيّ.

إننا إذا لم نجد في العربية مقابلاً للمصطلح الأجنبيّ فلنبقّه على حاله، ولنستعمله بلفظه الأجنبيّ، وأمّا الاشتقاق منه فإذا كثر وتوالد عندنا فستكون لدينا عائلات لغويّة تتكاثر مفرداتها بالتوالد والاشتقاق والتّهجين حتى تصبح بالآلاف، وتعمّ الفوضى في معاجمنا، ويختلط العربيّ بالأعجميّ، والحابل

(١) رسالة الاشتقاق لأبي بكر محمد بن السّري السّراج. تحقيق: محمد علي الدرويش ومصطفى

الحدري. طبع دمشق ١٩٧٣.

(٢) رسالة الاشتقاق. ص: ٣١.

بالنابل.. وقد سمعنا من بعض مَنْ يرتكبون ذلك أنهم بعمَلهم هذا يُعرَّبون الفكر العربي، ويُحيون اللغة العربية!! مع أن الحياة نفسها لا تقبل ذلك، وقد عرفوه وعرفوا نتائجه حين ضربت لهم الحياة نفسها مثلاً منه حين أولد التهجين بغلاً مقطوعَ النَّسَب لاختلاف فصيلة الأب عن فصيلة الأم.

١٣- ينبغي عدم المسارعة إلى إصدار حُكْمٍ لغويٍّ أو فتوىٍ نحويةٍ لا حاجة إليها، فكيف إذا كانت تفتح باب الفوضى والحلّ في قاعدة نحوية جارية مُطبَّقة على ألسنة القراء والكتّاب، كتلك الفتوى العجيبة اليوم بإجازة حذف علامة الرفع في نحو (تكتبون، ويلعبون) بحجة بعض الشواهد التي وصلت إلينا! ونحن نعلم أنّ الذين وضعوا القواعد يعرفون من الشواهد أكثر مما وصل إلينا، وأنهم هم الذين رووها وحفظوها، ولم يُنكروا صِحَّتها، ولكنهم حرصاً على إحكام البناء وطرد القاعدة، رأوا أنه لا بدّ من إخراجها من حُكم القاعدة لقلَّتها، وهذا ما يفعله كلُّ مَنْ يضع حُكماً قانونياً أو علمياً، لأنه لا يستطيع استيعاب المتخالفات من الحالات القليلة الخارجة عن الحكم العام، وإلا لما صحَّ حُكْمٌ ولا اطّردت قاعدة. ثم ما الفائدة التي نجنيها من هذه الفتوى غير إفساد القاعدة التي عرفتها الأجيال المثقفة في المدارس والجامعات، وقرأتها في القرآن وكتب التراث!؟

لقد أدخلوا اليوم إلى حَرَم النحو لغةً من لهجة عرفها القدماء كما عرفوا غيرها من اللهجات، ولكنهم تركوها كلّها لقلَّتها إذا قيسَتْ إلى غيرها.. حرصاً على الضَّبْط والإحكام، أفنأتى اليوم إلى نَبْس اللهجات وإدخالها حَرَم النَّحو حتى لا تبقى فيه قاعدة منضبطة ولا حُكْمٌ مُطرد؟!؟

إننا إذا قعدنا كلَّ استثناء وكلَّ شاذٍّ وألحقناه بقواعد لغتنا، كان عندنا في

كل قاعدة حكمان متناقضان ! ولم يكن النحويون القدماء غافلين عما استشهد به المفتون اليوم من الشواهد، ولكنهم صنعوا ما يصنعه كلُّ مُشرِّع أو واضع لقانون؛ أخذوا الكثير المنتشر ووضعوا القاعدة على وفقه، وحفظوا ما خرج عن القاعدة من قليل أو نادرٍ أو شاذٍّ، واعترفوا به مَثَلًا لِإحدى اللَهجات، ولكنهم منعوا القياس عليه، ولولا ما فعلوه من ضبطٍ وتهذيبٍ وتشذيبٍ، واقتصارٍ على الكثير لما كان في العربية ولها هذا الصرْحُ المُحكّم من البناء النحويّ، ولَدخل كلُّ قاعدة ما يُخالفها !!

ورحم الله عثمان بن عفّان ما كان أحكمه وأبعد نظره حين ألهمه ربّه أن يجمع الأمة على مُصحفٍ واحدٍ، وأن يجرِّق ما عداه، ليحفظ للناس وحدثهم القرآنيّة، ويجمعهم على مصحفٍ واحدٍ، دون إنكار ما كان من غيره... إن كثيراً ممّا كان أحكاماً معروفة في أوائل نشأة العلوم أصبح - بعد استقرار الأحكام والقواعد والقوانين - تاريخاً من تاريخ تلك العلوم !

إن النحو العربي لم يستوعب واضعوه لهجات العرب كلّها فيه، ولا يُمكن لهم ذلك لاختلاف تلك اللهجات.. فوضعوا للعربيّة قواعدها على الأكثر والأشهر والأشيع، ولم يجرِّقوا أو يطمسوا ما قلّ أو شدّ، ولكنهم عدّوه (لغة) أو (لهجة) تُحفظ تاريخاً ولا يُقاس عليها حتى لا تكثر المتخالفات وتكثُر المتناقضات وتهدم القواعد والأحكام.

أفنايتي اليوم لنخرُج عما اجتمعت عليه الأمة من قواعد الإعراب لندخل في القواعد المُحكّمة ما يخالفها؟! ولنخالف الحكمة في صناعة وفي صياغة كلِّ الأحكام والقواعد والقوانين!؟

إن هذه الفتوى التي تُجيز حذف النون من الأفعال الخمسة في حال الرفع

غيرُ موفِّقةً، وهي أوَّلُ خطوةٍ صريحةٍ في نقضِ بناءِ النَّحوِ وضوابطِ اللُّغةِ.. وقد تَتَّبَعُهَا خُطُواتٌ يُدْعَى فِيهَا (حِماةُ اللُّغةِ) إِبْداعَهُمْ فِيهَا، فيَضْعُونَ لِكُلِّ اسْتِثْناءٍ مِنَ القِواعِدِ قاعِدةً تُلحِقُهُ بأَصْلِهِ، وبضدِّ حُكْمِهِ، لِيكونوا كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا أنْكَاثًا، وَلِيَنبُشُوا قُبُورَ ما أَهْمَلَهُ النِّحاةُ لِيُحيِوهُ، وَليسَ في حِياتِهِ إلاَّ المِوتَ لِما أَصَلَّهُ النِّحاةُ، وإِلاَّ الفِوضى فِيما أَحكاموا وَضَعَهُ.

إِنَّ كَلَّ ما جاءَ بِهِ المُفتونَ مردودَ عَلَيْهِ، وَلكنَّ حَسبنا أَنْ نَقولَ إنَّ فتِواكُم لا فائِدةَ مِنْها سِوى خَلقِ الفِوضى فِي القِواعِدِ وَخَلْخَلَةِ الأَحكامِ، وَخَلَطِ المِرفِوعِ بِالمِنصُوبِ وَالمِجْزومِ..، وَإِنَّ الجاهِلينَ بِالأَحكامِ لا يَتَنتَظرونَ فتِواكُم، وَإِنَّ الشُّعراءَ لَهُمَ ضِروراتِهِم. وَنَقولُ لَهُمَ قَبْلَ ذلِكَ كَلَّهُ وَبَعْدَ ذلِكَ كَلَّهُ، إِنَّ حَذْفَ النونِ فِي الأَفْعالِ الخَمسةِ فِي حالِ الرِّفْعِ لَهجَةٌ مِنَ لَهجاتِ العَرَبِ، وَهيَ غَيْرُ اللُّهجةِ الشائِعةِ المِشهورَةِ، روى ابنُ حَجَرٍ فِي كِتابِهِ «فَتْحُ الباريِ فِي شِرحِ صَحيحِ البِخاريِ» فِي «بابِ التَّوْحِيدِ» ما جاءَ مِنَ «أَنَّ هَنا أَقوامًا حَدِيثًا عَهْدُهُمُ بِالشُّرْكِ يأتونَا» ثُمَّ قالَ: «كُذا! فِيهِ بَنونٌ واحِدةٌ، وَهيَ لُغةٌ مَن يَحْذِفُ النُّونَ مَعَ الرِّفْعِ، وَجوِّزَ الكَرمانِيُّ أَنَّ يَكُونُ بِتَشديدِ النونِ مِراعاةً لِلُّغةِ المِشهورَةِ، وَلكنَّ التَّشديدَ فِي مِثلِ هَذا قَليلٌ»^(١).

فإِذا كانَ ذلِكَ لُغةً أو لَهجةً لِقَبيلَةٍ بَعينِها، وَلم تَكُن هِيَ اللُّغةُ المِشهورَةُ الفاشِيةَ الَّتِي ثَبَتَتْ فِي كِتابِ اللهِ وَحَدِيثِ نَبِيِّهِ، وَفِي تِراثِ العَرَبِ النَثِريِّ وَالشَّعْريِّ، فَهَلْ كانَ عَلى النِّحاةِ أَنْ يُراعِوها، وَأَنْ يَسْتوعِبوها فِي قِواعِدِهِم؟ وَهَلْ يُمكِنُ أَنْ تَسْتوعِبَ القِواعِدُ وَالقِوانينُ كَلَّ اللُّهجاتِ وَكَلَّ الحِالاتِ عَلى تباينِها وَاختِلافِها؟ ما مِنَ قاعِدةٍ إلاَّ وَفِيها ما يَخْرُجُ عَنها أو يَشُدُّ عَن أَحكامِها، أَفَنَضَعُ لِكُلِّ شِئٍ قاعِدةً ثُمَّ نَضَعُ حُكْمًا آخَرَ يُجيزُ عَكْسَ ما نَصَّتَ عَلَيْهِ القاعِدةُ؟

(١) فَتْحُ الباريِ ١٧/٢٥٧.

إنّ تتبّع القواعد ونقض أحكامها بتجويز القياس على ما خرج وشدّ عنها، هو أول الوهن وأول الهدم، وهو شبيهة بعمل الذين تتبّعوا أصحاب كتب التصحيح اللّغوي، وراحوا يخالون للردّ عليهم ونقض ما قالوه، وقبول ما أنكروه.. وعجباً لكثيرٍ ممن يعملون في ميادين اللغة والنحو يُبدعون، ولكن لا يكون إبداعهم في جديد يأتون به، أو جديد يُسهّلون به معرفة القديم أو إتقانه، وإنما يكون إبداعهم في الردّ على قديم سبقهم أو التعليق عليه، أو التعقيب أو التذييل أو محاولة الردّ والتسفيه!! وليس ذلك إلا أول الوهن وبداية السبيل إلى الفوضى في منظومة اللّغة وقواعدها.

خاتمة:

وبعد، فهذه آراء وصلت إليها بعد تفكّر وأناة، وسجّلتها بعد اقتناع. ما قصدت بها الردّ على أحد، أو الانتقاص من عمل، ولا أخذتُ بها ودعوتُ إليها عصبيةً لأحدٍ أو على أحد، ولكنها عصبية للغة العربية، وإيمان بأنها لصالحها. أضعها بين أيدي السادة العاملين في حقول الإصلاح اللّغوي، أفراداً ومؤسّسات، فما وجدوه فيها من صواب ارتضّوه وأيدوه، ومالوا إلى العمل به، وما وجدوه خطأ ردّوه، أو ناقصاً أضافوا إليه، أو مُنحرفاً عدلوه.

ولم يكن لي فيه من غرض سوى أن تبقى العربية كما عرفها أهلها وعاشوها، وكما تركها لنا علماءها وأدباؤها وشعراؤها، آية بيان، ومرآة فكر، ومستودع علوم، ولسان حضارة، ولتبقى كما هي في كتاب ربنا دليل إعجاز، ولتبقى سائرين على درب الذين حفظوها فحفظتهم، وأوصلوها إلينا، فأوصلتهم إلينا معها، وأسقطت من تحدّث بها مُستهيناً بأصولها، وأهملت كلّ من قال أو كتب أو نسج على غير منوالها؛ فلم يصل إلينا بها إلا من أحسن

القول وأتقن نسجه، وكذلك نحن اليوم؛ نترك الناس ليتكلم كلُّ صاحب لسان، وليكتب كلُّ حامل قلم، ولا نشرّع لهم ولا نقنن، بل نترك للزمان أن يغربل ويصطفي ولسانه يقول:

يموت رديءُ الشَّعرِ مِنْ قَبْلِ أَهْلِهِ وَجَيِّدُهُ يَبْقَى وَإِنْ مَاتَ قَائِلُهُ
ألم يرتفع جيّد اللّغة وفصيحتها على الزمان حتى وصل إلينا اليوم؛ نُنشده ونستشهد به، بعد قرون، ونلذُّ قوله، وننسى أو نُهمَل كثيراً ممّا قيل بعده بقرون؟ بل نُهمَل الأقرب إلينا ومَن عاش أصحابه في عصورٍ قريبة أو في زمانٍ عشناه أو نعيشه؟!

إني ما كتبت إلا للزملاء المعنّيين باللّغة، والعارفين بها وبحقيقتها وبقيمتها، والمدرّكين لآثارها في شخصيّة الفرد وفكره، وفي حياة المجتمع ووحدته، وفي حياة الأمة ومستقبلها. وأمّا الذين لم يقدرُوا اللّغة حقَّ قدرها، والذين يرون أن كلَّ ما عبّرت به أو أفهمت به أو فهمته فهو لغةٌ تكفيك؛ لأنّ اللّغة - عندهم - مجردٌ وسيلةٌ للتفاهم، فهو لاء لا أكتب لهم. كما لا أكتب للذين يفتحون باب اللّغة لكلِّ دخيل، همُّهم رَفْعُ الحرج عن المتكلمين، وكأنّ المتكلمين ينتظرون فتاواهم!! وإنما أكتب للذين يؤمنون أن الخالق سبحانه وتعالى ميّز الإنسان من بين كلِّ مَن خلق وما خلق من أصحاب الأصوات بما سمّاه (بياناً)، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤]، وترك غيره من أحياء مخلوقاته يجري التفاهم بينها بأصواتها.

أليس جديراً بنا أن نقف عند تذكير الله لنا بمِنّته علينا بالبيان بعد مِنّته بالخلق، وأن نقف عند تكرار الوصف بـ (العربيّ) إحدى عشرة مرة، وهو عدّد ذكرها في القرآن، وهي فيها جميعها وصفٌ للسان! لم تردّ (العربيّ) مرةً واحدة

في وصف فردٍ أو شعبٍ أو قومٍ !! إنها كذلك في كتاب الله الذي أمرنا بتذكّره
وتلاوته وتدبّره، فهل أمرنا بالتدبّر إلا لنذكر ما وراء القول من حقائق؟
نسأل الله أن يسدّد خطانا، وأن يهدينا سواء السبيل، والحمد لله رب
العالمين. ■

الاستثمار في اللغة العربية

ثروة قومية في عالم المعرفة

أ.د. محمود أحمد السيد*

نحاول في هذا البحث الموجز أن نشير إلى أهمية اللغة وقيمتها الاقتصادية من جهة، وأن نقف على مجالات الاستثمار في اللغة العربية من جهة أخرى، على أن هذا الاستثمار رافد أساسي وهام في عملية التنمية المستدامة.

أولاً - اللغة أهمية ومكانة:

تؤدي اللغة وظائف متعددة في حياة الفرد والمجتمع، فهي وسيلة الفرد للتعبير عن مشاعره وعواطفه وأفكاره، وبها ينفذ مطالبه ويقضي حاجاته في المجتمع الذي يحيا فيه، وبها ينقل تجربته إلى الآخرين، وفي الوقت نفسه يطلع على تجارب الآخرين الحاضرة والماضية وعلى تجارب الأمم الأخرى وخبراتها، وهي وسيلة الفرد أيضاً للتفكير لأنها أداة التفكير وثمرته، إذ إننا نفكر باللغة، فهي ليست أداة للتعامل والتعاون الاجتماعيين فحسب، وإنما هي أداة التفكير والحس والشعور أيضاً.

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور محمود السيد هذه المحاضرة بتاريخ

٢٧/٥/٢٠١٥م..

واللغة هي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، فهي تعمل على تمتين العلاقة بين أفراد المجموعة البشرية لأنها مؤسسة اجتماعية إنسانية، ولا يتم اجتماع بشري بغير لغة.

وإن أهمية اللغة لا تكمن في أنها ليست فقط وسيلة للتخاطب والتواصل بين الجماعات والأفراد، وبين المرء وذاته، بل هي رمز للهوية التي تميز شعباً من شعب، وتطبع حضارته ودرجة حضوره في مسرح الوجود والحياة، وصولاً إلى الاستدلال على ما في أعماق النفس وتصورات الذهن. وثمة تلازم بين الفكر واللغة فمن لا عقل له ولا فكر فلا لغة سليمة له ولا سبيل إلى اعتباره جزءاً ملتحمًا بالكل الذي هو المجتمع، ومن لا يحسن النطق أو لا يتمتع بمنطق سليم ولسان معافى فهو مختل التواصل مع المجتمع، ومعتل الفكر^(١).

وفي عصرنا الحالي عصر العلم والتقانة والمعلوماتية أضحت اللغة هي الوجود ذاته، وأصبح هذا الوجود مرتبطاً بثقل الوجود اللغوي على الشبكة «الإنترنت»، وقديماً قال سقراط لجليسه: تكلم حتى أراك. أما اليوم فالشعار هو تحاور عن بعد حتى يراك الآخرون وتراهم، ومن ثم ترى ذاتك أنت وهي بعيدة عنك أو لصيقة القرب منك في عصر بات سؤال الهوية: من أنا؟ ومن نحن؟ مطروحاً بشدة وعلى أوسع نطاق في عالمنا^(٢).

وإذا كانت اللغة عظيمة الأهمية في المجتمع مادام سلوك الآخرين هو من أكثر الشروط أهمية في تكوين الجماعات، فإنها إلى جانب ذلك كله تعد الحامل

(١) الدكتور ياسين الأيوبي - اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في الجمهورية اللبنانية - الواقع والتحديات واستشراف المستقبل - منشورات مجمع اللغة الأردني في الموسم الثقافي الثالث والعشرين لمجمع اللغة العربية الأردني - عمان ٢٠٠٥ ص ٢٥١.

(٢) الدكتور نبيل علي ونادية حجازي - الفجوة الرقمية - عالم المعرفة - الكويت ٢٠٠٥ ص ٤٢.

للموروث الثقافي للمجتمع^(٣)، وعاملاً من عوامل التنمية الاقتصادية في المحيطين الاجتماعي المحلي والمحيط الدولي كليهما. والتنمية الاقتصادية لا يمكن أن تحدث مستقلة عن التغييرات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهذا يترك آثاره في اللغة ليس بوصفها رصيماً ثقافياً فحسب، بل بوصفها واقعاً اجتماعياً ذا منافع اقتصادية وسياسية أيضاً في المجتمع الحديث مجتمع المعرفة. وينظر إلى عملية التنمية في المجتمع الحديث، مجتمع المعرفة، على أنها لا تجري إلا بالتنمية البشرية المستدامة التي لا تتحقق إلا بالاستثمار الصحيح للإنسان، وخاصة معرفته العلمية ولغته العلمية والتقنية والتي تنعكس خصباً ونماءً في دروب التنمية وفي جميع المجالات.

وإن لغتنا العربية ليست نحواً وصرفاً وألفاظاً يضمها القاموس، وإنما لها وظيفة أخرى أكبر وأهم وأشمل هي الوظيفة الحضارية والسياسية، إنها ثروة قومية حقيقية ذات عوائد اقتصادية كبيرة في مجتمع المعرفة.

ثانياً - القيمة الاقتصادية للغة

تقوم اللغة بدورين اثنين من الناحية الاقتصادية، أولهما عندما ينظر إليها على أنها أداة في الاقتصاد وفي عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول والأمم، إذ يعدّ استعمال اللغة بمردود جيد وكفاية عالية أساساً لتحقيق النمو الاقتصادي وضرورياً في عملية التنمية. وثانيهما عندما ينظر إليها على أنها صناعة وسلعة في القطاع الاقتصادي، إذ تزايد دور الصناعات الثقافية وقاعدتها اللغة الوطنية في الاقتصاد العالمي أخيراً تزايداً كبيراً جداً^(٤).

(٣) فلوريان كولاس - اللغة والاقتصاد - ترجمة أحمد عوض - عالم المعرفة - الكويت ص ٤٢.

(٤) الدكتور محمد مراياتي - اللغة والاقتصاد في مجتمع المعرفة - هيئة الموسوعة العربية -

موسوعة العلوم والتقانة - دمشق ٢٠١٤ ص ١.

ومع تحول الاقتصاد العالمي أكثر فأكثر نحو الاعتماد على المعرفة تعاظمت قيمة الأصول غير المادية أو الأصول المعرفية وكبر دورها، واللغة وعاؤها، وما كان النمو الاقتصادي لبلد ما ليحدث إلا لارتباطه ارتباطاً مباشراً بمستوى المعرفة وخاصة العلمية والتقانية لهذا البلد، وبمعدل نمو هذا المستوى.

ومن هنا توجه الاهتمام إلى الاقتصاد غير المادي وقوامه اللغة لتحديد أهم معالم الاقتصاد الحديث، بعد أن تأكد أن التنمية البشرية شرط أساسي للتنمية الاقتصادية، وأهم عناصر الاستثمار في التنمية البشرية هو الإنسان وخاصة معرفة التي تقوم على اللغة العلمية والتقانية^(٥).

وثمة دراسة أجراها البنك الدولي ضمت في مجمل عينتها أكثر من ستين دولة وأكثر من ستين ألف جهة مختلفة، خلصت إلى أن حاجة الدول النامية إلى تحقيق النمو الاقتصادي تكمن في رفع مستوى المعرفة لأفراد المجتمع لا في مساعدات إنسانية، وهذا ما لا يتم الحصول عليه إلا بواسطة اللغة الأم.

وإذا كانت اللغة ينظر إليها على أنها سلعة ذات قيمة تبادلية تتزايد مبيعاتها في ظل الطلب المتنامي عليها، فإن لها ميزة تختلف بها عن باقي السلع، وهي أن مخزونها لا ينفد أبداً.

ولقد أكدت البحوث اللسانية والفلسفية وجود علاقة نفسية متينة بين المتكلم والكلام، وبين اللغة والفكر من تداخل واتحاد، وأثبت علم اللسان أن ثمة علاقة بين العلامة اللغوية ومدلولها ومرجعها، وأن العمل في محيط اجتماعي ومادي متلائم مع العامل من الوجهة اللغوية يكون دون شك أكبر مردوداً،

(٥) الدكتور محمد عبد العظيم - اللغة القومية عامل خفي في النمو الاقتصادي - مجلة التعريب - العدد الثالث والأربعون - دمشق - كانون الأول ٢٠١٢ ص ١٨٠.

فإذا تعامل العامل مع آلة أو أداة يعرف أسماء مكوناتها بلغته الأم ومع مرافقين له في العمل ينطقون لغته نفسها يجعله ذلك كله في وضع نفسي سمته عمق الاتصال، وتجاوز كل الحواجز العميقة الفاصلة بين المادة والتعامل ليصل بعدها إلى كنه العنصر المادي، وإذا هو يجد ذاته في حال من التلاؤم مع من يتعامل معه فيكون نشاطه أشد، وفعله أجدى، وإنتاجه أكثر^(٦).

ويرى «سيمل» في مؤلفه «فلسفة النقود *Philosophy of money*» أن «أفكاري يجب أن تتخذ شكل اللغة المفهومة لعموم الآخرين حتى أستطيع أن أحقق غاياتي العملية بهذه الطريقة غير المباشرة، وأن نشاطاتي وممتلكاتي يجب أن تتخذ شكل القيمة النقدية من أجل خدمة أغراض الأبعد مدى»^(٧)

وفي إشارته إلى الوظيفة الاجتماعية للنقود يركز على التشابه بين اللغة والنقود بوصفها عاملين من عوامل تطور النظم الاجتماعية، ويشكل الاقتصاد النقدي واللغة المشتركة نقلة نوعية في التطور الاجتماعي من حيث إنهما ينشئان أشكالاً جديدة للعلاقات بين الأفراد، كما يفتحان إمكانات جديدة للمشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

واللغة المشتركة في المجتمع هي بمنزلة الرصيد وتتجلى في أردية مختلفة: فالمواطنون المرتبطون معاً بمؤسسات اجتماعية أخرى مثل النقود والسوق يتكلمون الآن اللغة نفسها، أو على الأقل يسهل عليهم استعمالها، وما اللغة إلا نتاج للعمل الجمعي وثروة اجتماعية متراكمة، وتداول الألفاظ يشبه تداول السلع في السوق. وثمة كلمات معينة كالكلمات الوظيفية تقوم بوظائف السلع

(٦) المرجع السابق ص ١٨٩.

(٧) فلوريان كلوماس - اللغة والاقتصاد - ترجمة أحمد عوض - عالم المعرفة الكويت ص ١٤.

التميزة التي يمكن أن نستبدل بها كل السلع الأخرى، والأحجار الكريمة مثال من أمثلة السلع المتميزة. وثمة تشابه بين الكلمة الجوفاء والورقة النقدية المنعدمة القيمة، وتشابه بين الكلام الجوهرى والأحجار الكريمة ذات القيمة العالية، وإذا كان ثمة مستويات وأنواع للعمالات ذهبية كانت أو فضية أو نحاسية فإن ثمة مستويات للكلام الصادر من أفواه البشر. والكلمات مثلها مثل العملات المعدنية والورقية لا تستمد قيمتها ومعناها إلا من الاستعمال الذي يضعه لها هؤلاء الذين يستخدمونها وسيلة لتعاملاتهم، وكلا النقد واللغة تعوزه القيمة في الاستعمال ويكتسبه في التبادل، وهو ما يطلق عليه الاقتصاديون القيمة الشرائية، ويطلق عليه اللغويون المعنى، وإنّ تغير معنى الكلمات في لغة ما يساوي تغير قيمة النقود في الدولة.

وتجدر الإشارة إلى أن للأمة رصيماً أو ثروة نقدية، ولها أيضاً رصيماً أو ثروة لغوية، وكل من العملة واللغة تصك، ويعتنى بتنظيم صكها، ولا تترك دون تحكم ومتابعة من قبل الدولة، وتأتي قيمة النقد وكذلك قيمة اللغة من تداولها، فإذا أهملت الدولة التداول بعملتها أو بلغتها (التعليم بغير اللغة الوطنية) فإن لهذا آثاراً اقتصادية هائلة.

وثمة قيمة وظيفية للنقد أو قيمة استعمالية، وتمثلها النقود الورقية، وكذلك هناك قيمة وظيفية للغة تمثلها لغة الحياة اليومية ولغة تبادل المعلومات اليومية من أجل وظائف الحياة العادية. وهناك من جهة أخرى قيمة سلعية للنقد تمثلها النقود الذهبية والفضية، والتي لها قيمة في ذاتها، إضافة إلى قيمتها الرمزية بصفتها نقداً، وكذلك اللغة، فهناك معلومات علمية وتقانية لها قيمتها في ذاتها لما لها من قيمة إنتاجية، وهي سلعة في ذاتها لا بد من دفع الذهب للحصول عليها.

وتعتمد كفاءة عمل المؤسسات في كل قطاع اقتصادي على حسن تبادل المواد والسلع والآلات، ويسهّل النقد وآلياته هذا التبادل، وتعتمد أيضاً على تبادل المعلومات والخبرات، وتسهّل اللغة العلمية والتقانية هذا التبادل.

وإن تعدد المصطلح العلمي والتقاني وعدم تداوله هو تضخم في اللغة مادام لا يستعمل، إذ لا قيمة له مادام لا يستعمل، وهذا يحدث أيضاً في التضخم النقدي حيث يزداد النقد، ولكن تنقص قوّته الشرائية.

وتؤدي وحدة العملة في دولة ما أو في أمة ما إلى مكاسب اقتصادية كبيرة ومعروفة، وهذا ما يدعو إلى توحيد العملة، وكذلك اللغة فإن تعدد اللغات المتداولة وخاصة في المجالات العلمية والتقانية في دولة ما يؤدي إلى خسارات اقتصادية كبيرة.

أما تراكم رأس المال في اقتصاد ما فيؤدي إلى زيادة نمو هذا الاقتصاد، وكذلك تراكم الرصيد اللغوي الحيّ للدولة، إذ إن رأس مال الأمة ثروة وهو نتاج عمل الجماعة، وكذلك الرصيد اللغوي، وتداول المصطلحات العلمية والتقانية يوازي تداول السلع، وصرف العملات ونشر استعمال عملة ما خارج دولتها يوازي الترجمة بين اللغات. ومن هنا كانت الدول الحية تسعى إلى تصدير لغتها الوطنية، وعائدات ذلك هي كعائدات استعمال نقد دولة ما من قبل الدول الأخرى، إذ إن الدول التي تتداول بعملة غير عملتها الوطنية، وبلغة علمية وتقانية غير اللغة الوطنية تخضع لتبعية اقتصادية تؤدي إلى جمود العملة الوطنية واللغة الوطنية وعدم تطورها.

وتجدر الإشارة إلى أن إيجاد النقد دون التداول به وظيفياً في الحياة كإيجاد التعليم ونشر العلوم والتقانة بغير لغة القوى العاملة، ومن ثم عدم تداول

العلوم والتقانة من قبل هذه القوى، ذلك لأن تطوير التعليم لا يؤدي بالضرورة إلى النمو والتنمية خلافاً للانطباع السائد، فالمطلوب هو نحو الأمية الوظيفية للغة، فالأمية الوظيفية للغة؛ أي عدم تداول العلوم والتقانة ضمن كل قطاع وبين القوى العاملة فيه، لا يجلب إلا الخسائر للأعمال، وهي خسائر تعد ببلايين الدولارات سنوياً، ذلك لأن التعليم هو شرط لازم للنمو، وهو غير كاف ما لم يوظف ويستثمر في مواقف الحياة، ولا فائدة من نقد لا يجري تداوله واستعماله، فالاستثمار في التعليم الذي لا يرافقه استثمار في تداوله من قبل القوى العاملة هو استثمار ذو مردود ضعيف في عملية التنمية.

واللغة كالنقد من مسؤوليات الحكومة، ولا بد لكل دولة من سياسة نقدية ناجحة، وبالمثل لا بد لها من سياسة لغوية وطنية معلنة ومن خطط خماسية وسنوية^(٨).

وثمة قطاعات إنتاجية وخدمية شديدة الاعتماد على اللغة، ولا بد من العمل فيها واستثمارها اقتصادياً في اللغة الأم، وتزداد هذه القطاعات أهمية مع توجه الاقتصاد نحو اقتصاد المعرفة. ومن أمثلة هذه القطاعات: الإعلام والدعاية والنشر والطب والخدمات الاستشارية وتقانة المعلومات والشبكية «الإنترنت».... الخ.

وإذا كان للغة دورها في التنمية الاقتصادية فإن المجالات الاقتصادية للغة تتجلى في:

١ - المجال الاتصالي للغة كما تعبر عنه القدرة السكانية (الديموغرافية)

(٨) الدكتور محمد مراياتي- تأثير اللغة في النمو الاقتصادي والاجتماعي في الدول العربية- مجلة المعلوماتية- العدد التاسع تشرين الثاني ٢٠٠٦.

- للجماعة التي تستعملها بوصفها (أ) لغة أولى و (ب) لغة ثانية أجنبية.
- ٢- مستوى تطور الإمكان الوظيفي للغة باعتبارها أداة إنتاج مجتمعية ومستوى الفرص المتعلقة باستخدامها.
- ٣- الطلب عليها بوصفها سلعة في السوق الدولية للغات الأجنبية، وحجم الصناعة التي تمده، والحصص المخصصة من النواتج القومية الإجمالية التي تنفق على الصعيد العالمي لاكتسابها.
- ٤- رصيد الحساب الجاري للغة بالنسبة لجماعتها اللغوية.
- ٥- المقدار الكلي للاستثمار الموضوع في اللغة حيث يمكن للتدوين المعجمي وكثافة شبكة المعاجم الثنائية اللغة التي تربط اللغة باللغات الأخرى، والترجمة من اللغة وإليها، ومستوى إمكان المعالجة الالكترونية، أن يستخدم ذلك كله مؤشرات جزئية.
- وإذا أخذنا اللغة الإنجليزية مثلاً في مجال تنفيذ السياسة الاقتصادية فإننا نجد أن معظم السياسيين المعنيين بالشؤون الثقافية والتعليمية اليوم على الصعيد العالمي يعدون هذه اللغة أهم لغة في هذا المجال. ففي ألمانيا يدرس ٨٠٪ من طلاب المدارس الثانوية اللغة الإنجليزية على أنها اللغة الأجنبية الأولى، و ١٨٪ يدرسون الفرنسية، و ٢٪ يدرسون اللاتينية أو أي لغة أخرى.
- وفي فرنسا ٨٥٪ من طلاب المدارس الثانوية يدرسون الإنجليزية بوصفها لغتهم الأجنبية الأولى. وفي الدنمارك تعد اللغة الإنجليزية اللغة الأجنبية الأولى لكل الطلاب، و ٧٥٪ من طلاب المدارس الثانوية في تركيا يدرسون الإنجليزية.
- وفي سورية عندما كنتُ وزيراً للتربية عام ٢٠٠١ أصدرت قراراً يقضي بأن تكون اللغة الأجنبية الأولى التي يتعلمها جميع الطلاب هي اللغة الإنجليزية،

وكانت قبل ذلك التاريخ اختيارية بينها وبين الفرنسية.

ولقد أُجريت استبانة على طلاب المدارس الثانوية السويسرية للوقوف على الدوافع التي دفعتهم لتعلم اللغة الإنجليزية عام ١٩٨٤، بعد أن أصبحت هذه اللغة أكثر رواجاً في هذه البلاد المتعددة اللغات، فكانت نسبة الدوافع على النحو التالي^(٩):

الدرجة	الدوافع	النسبة المئوية
١	الإنجليزية يمكن استعمالها على نطاق العالم كله	٩٧.٤٪
٢	الإنجليزية هي لغة الأعمال	٦٥.٤٪
٣	الإنجليزية هي لغة السياحة	٦٠.٢٪
٤	معرفة الإنجليزية تزيد فرص العمل	٥٥.١٪
٥	الإنجليزية هي لغة العلم	٥١.٣٪
٦	الإنجليزية هي لغة الترفيه	٢٥.٦٪
٧	الرغبة في تحصيل معرفة عن أمريكا	١٧.٩٪
٨	الرغبة في قراءة الأدب الأنجلو-أمريكي	١٢.٩٪
٩	الرغبة في تحصيل معرفة عن إنجلترا	١٠.٣٪

وفي ضوء ذلك كله كان لا بدّ أن نتعرف ضروب الاستثمار التي يمكن أن توظف في اللغة العربية، على أنها رافد أساسي وهام في التنمية الاقتصادية.

ثالثاً - الاستثمار في اللغة العربية

لما كانت اللغة العربية هي اللغة الوطنية في الدول العربية بمقتضى دساتيرها

(٩) *Bulletin celia- 1984N44, adopted from the MC callen 1989: 25.*

كان الاستثمار في اللغة الوطنية يعني الاستثمار في توطين الصناعة والتجارة والتقنية والمعارف المختلفة، ولا يمكن أن يتحقق أي نجاح إلا بإتقان اللغة الوطنية وتوظيفها وتفعيلها في جميع المجالات.

وغني عن البيان أن الاستثمار في اللغة الوطنية يعني الاستثمار في الإنسان والأجيال القادمة، وضمان وحدتها وتمسكها بقيمها وثوابتها ومكتسباتها ومرجعياتها وتاريخها، ومنحها الفرصة للمنافسة في جميع الميادين، مع حفاظها على هويتها. كما أن الاستثمار في اللغة يعني الاستثمار في الجودة والإتقان والإبداع والابتكار في كل ما يتعلق باللغة العربية من وظائف وأعمال تعتمد على المهارات والقدرات والتفكير، وإذا كانت العملة الوطنية من مقومات السيادة الوطنية، ولا يمكن أن تحل محلها عملة أجنبية، فإن اللغة الوطنية هي من أهم أدوات تعزيز المواطنة^(١٠).

وإذا وقفنا على توجيه رأس المال نحو الاستثمار في معالجة اللغة العربية فإننا نتوقع عائداً كبيراً للمستثمر نفسه وللغة أيضاً، وذلك للأسباب التالية^(١١):

١ - قابلية هذه الاستثمارات للنمو نظراً لاتساع سوق اللغة العربية في المنطقة العربية، وتزايد الطلب على برامج المعالجة اللغوية.

٢ - تفاعل الثقافة العربية والإسلامية مع ثقافات العالم المختلفة عبر الشبكة (الإنترنت)، وتنامي رغبة المستخدم العربي في إثبات ذاته من خلال لغته العالمية، وإقبال غير العرب على برامج تعلمها.

(١٠) د. علي بن موسى - الكلمة الافتتاحية للمؤتمر الرابع للمجلس الدولي للغة العربية - دبي - أيار ٢٠١٤.

(١١) سعيد أحمد بيومي - اللغة العربية والنشاط الاقتصادي - ديوان العرب - حزيران (يونيو) ٢٠٠٦.

٣- مرونة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب التقنيات المختلفة لتعدد خصائصها وتفرداها، مما يجعلها حقلاً خصباً للدراسات النظرية اللغوية بصفة عامة، مما يضمن رواجاً لها في حركة البيع والشراء عند الطلب وتنامياً في وسائل العرض.

أما مجالات الاستثمار في اللغة العربية فيمكن أن نشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر متمثلاً في:

- ١- تصنيف المعاجم للاستعمال العام.
- ٢- تصنيف معاجم المصطلحات في مجالات محددة.
- ٣- برامج معالجة النصوص.
- ٤- الترجمة الآلية.
- ٥- الذكاء الصناعي، وبخاصة إنشاء نظم المعلومات وبنوك المعلومات.
- ٦- تحسين الاتصال بين الإنسان والآلة أي تطويع لغات الحاسوب للغة العربية.

وإن جعل لغة قابلة للمعالجة إلكترونياً يتطلب استثمارات كبيرة ليس من المتوقع أن يقوم بها القطاع الخاص إلا عندما تُعَدُّ بتحقيق عائد. أما في حال انعدام العائد فإن البلاد الغنية وحدها هي التي يمكنها الإنفاق عليها، وهذا الاستثمار لن يكون معقولاً من الناحية الاقتصادية إلا إذا كانت اللغة التي نحن بصددتها متطورة تطوراً كافياً، وتستجيب بدرجة عالية لمتطلبات الخطاب التقني والعلمي. ومن نعم الله على أمتنا أن كانت لغتها العربية متطورة ومستجيبة لروح العصر ومتطلباته العلمية والتقنية. وشتان بين اللغتين العربية والعبرية، وها هي ذي اللغة العبرية أصبحت أداة إنتاج تستجيب لكل

متطلبات الاتصال الحديث، فالعبرية بالنسبة للمستثمرين المحتلين ولستعملها ذات قيمة رأسمالية لغوية عالية!

ونحاول فيما يلي الوقوف على بعض ضروب الاستثمار اللغوي التي أشير إلى عناوينها سابقاً:

١- المعاجم:

يتطلب إعداد المعاجم استثمارات أكثر ضخامة من معظم الكتب، ولكنها تعدّ بدخل أكبر وأطول بقاء، وتساعد المعاجم على التوحيد اللغوي، ذلك لأنّ معاجم اللغة الواحدة تجسد مفردات اللغة وتحوّلها إلى ملك مادي محتمل لكل عضو في الجماعة اللغوية. ويعد قاموس أوكسفورد معجماً تاريخياً فريداً للغة الإنجليزية، ولن يكون عملاً خاسراً للناشر على المدى البعيد على الرغم من التكلفة الضخمة التي أنفقت عليه، وهو إغناء كبير للغة الإنجليزية وزيادة مستمرة لقيمتها وتطويرها بوصفها أداة إنتاج.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ المعاجم هي الحجر الأساس للتهذيب اللغوي، وبهذا المعنى هي عبارة عن استثمار. وثمة أنواع مختلفة للمعاجم، فهناك معاجم النطق والإملاء والمعنى والقافية والأسلوب والتكرار والتعبيرات والمصطلحات والأسماء والمشارك اللفظي والترادف والمفردات الأساسية، والمعجم التاريخي.. الخ.

والمعجم التاريخي العظيم للأخوين جريم *Grim* وبطبعاته المختلفة لمعجم *Duden* الذي يجري تحديثه كل سبع سنوات يكون لدى الألمانية ما تتباهى به في مجال المعاجم أكثر مما لدى معظم اللغات. ومع ذلك تظهر دعوى بأن هذا يظل غير كاف بالمقارنة بالمعجمية الفرنسية والإنجليزية، وهذا مما دعا إلى الخشية على تنافسية اللغة الألمانية من حيث تهديدها بالإخفاق في التكيف

لمتطلبات المستقبل الاتصالية، إذ إن المشكلة الرئيسة تتمثل في انفصام عرى اللغة المشتركة واللغات المتعددة للأغراض المتعددة. وهذا ما دفع إلى ضرورة وضع معجم شامل لكل فروع المعرفة للغة الألمانية انطلاقاً من أن اللغة المشتركة يجب أن تكون الأساس المشترك لمجموعة متنوعة من اللغات للأغراض العلمية وللأغراض الخاصة الأخرى، وهو أمر جوهري للعيش في ظل أوضاع حضارة عالية التصنيع.

وهذا المشروع يحتاج إلى استثمار ضخم، إلا أن تكاليف هذا المشروع ليست بذات قيمة في سبيل الحفاظ على قيمة اللغة الألمانية. وحساب التكلفة الحقيقية لتصنيف معجم لإحدى اللغات المشتركة الموحدة الكبرى هو عملية شديدة الصعوبة، ويحتاج إلى موارد ضخمة، إلا أن هذه المشروعات عادة تدر في النهاية عائدات ضخمة ومستمرة، وهذه سمة من سمات المجتمع الحديث الذي يعتمد كثيراً على المؤلفات المرجعية.

وتكلفة تصنيف المعاجم الثنائية اللغة ينظر إليها باعتبارها استثمارات متصلة باللغة ليس لأن المنتج النهائي يمكن بيعه بوصفه سلعة في السوق فحسب، أي سلعة من الممكن أن تكون مربحة، وإنما لأن إنتاج هذه المعاجم هو أيضاً استثمار في اللغة ذاتها، إذ إن كل معجم يربط لغته بأخرى هو بمنزلة مصدر محتمل لإغنائها.

إن مجموع كل المعاجم الثنائية اللغة بالنسبة إلى لغة معينة يشير إلى الجهود الذهنية والمالية التي بذلت وتبذل من أجل ربط لغة معينة بلغة أخرى، والمعاجم الثنائية اللغة هي أدوات مساعدة للمترجمين، ومجموع كل معاجم الترجمة إلى الداخل للغة (ب) بالنسبة للمتحدثين الأصليين للغة (أ) هو دليل

على اهتمام بعض متحدثي هذه اللغة على الأقل بالترجمة من اللغة (ب).

٢- الترجمة:

لما كانت اللغات ثروات اجتماعية فإن الترجمة يجب أن تفهم باعتبارها استثماراً طويلاً الأمد من أجل الحفاظ على قيمتها أو زيادتها، ولما كانت كل ترجمة إلى لغة تضيف قيمة إليها فإنه يمكن النظر إلى مجمل كل الترجمات إلى لغة ما باعتباره مؤشراً آخر إلى قيمتها. وإن حركة الترجمة إلى لغة ما تكشف عن مقدار العمل النوعي الذي يمكن لمجتمع أن يخصصه لهذا النوع من المهن.

ففي خلال ثلاث سنوات في عقد الثمانينيات من القرن الماضي استطاعت اليابان أن تترجم / ٢٢.٠٠٠ / كتاب ما عدا ترجمة المقالات والبحوث في الدوريات العلمية والدوريات الأخرى، وهذا يدل على أن اليابانيين عازمون وقادرون على تخصيص نفقات كبيرة من أجل أن يجعلوا الأفكار العلمية والأعمال الأدبية المنشورة أول مرة في اللغات الأخرى متاحة في لغتهم. وبهذه الطريقة يطوِّعون لغتهم لأكثر المتطلبات الوظيفية حداثة.

إن ضمان قابلية الترجمة المتبادلة من دون قيود للغة ما عن طريق التوحيد والابتكار المستمر للمصطلحات يحقق أكبر فائدة للاقتصاد القومي الذي يعتمد عليها، واللغة التي لا تهين نفسها بسهولة للترجمة من اللغات الأعلى تطوراً لن تحظى إلا بتقدير ضئيل، مثلها مثل العملات غير القابلة للصرف.

٣- تعلم اللغات الأجنبية:

تكشف الطبيعة السلعية للغات عن نفسها كشفاً أوضح في مجال تعلم اللغة الأجنبية وتدريسها الذي يمكن وصفه باعتباره سوقاً. وهنا يمكن التمييز

بين سوق محلية وسوق إقليمية وسوق وطنية وسوق عالمية. وهناك تقلبات في سوق اللغة مثلما هو الشأن في الأسواق الأخرى مثل أسواق السلع ذات العلامات المسجلة والأوراق المالية والعملات.

والعوامل المحددة للقيمة السوقية للغة ما في فترة معينة من الزمن هي عوامل من أنواع مختلفة فهي عوامل سياسية وثقافية، بل هي قبل كل شيء عوامل اقتصادية.

واكتساب اللغة على أنها أجنبية (لغير أبنائها) يتطلب نفقات في العادة على المستويين الفردي والاجتماعي كليهما، وهو الأساس الاقتصادي لصناعة كاملة من ناشرين، ودور طباعة، ومدارس لغات ومعاهد، و(استديوهات) تسجيل مواد سمعية بصرية، ومنتجين لبرامج تعليم اللغة بالحاسوب... الخ. ولكم تحتاج هذه الصناعة إلى مهنيين تتيح لهم مجالاً للرزق.

وكلما تعلم الناس لغة ما أصبحت اللغة مفيدة لهم، وكلما كانت مفيدة رغبوا في تعلمها. واللغة الإنجليزية بوصفها اللغة الأجنبية الأكثر شيوعاً على الصعيد العالمي، واللغة المهيمنة على المطبوعات العلمية، واللغة الرئيسة للمنظمات الدولية ووسائل الإعلام والسياحة... إلخ، قيمتها الاستعمالية الكبيرة تزداد باطراد في أثناء عرضها في سوق اللغات الأجنبية. والبلاد المتحدثة بالإنجليزية في مجموعها هي اليوم أكبر سوق مستوردة في العالم، ونسبة البريد العالمي الذي يكتب بالإنجليزية تقدر بـ ٧٠٪، كما أن ٨٠٪ من كل المعلومات المخزنة في بنوك المعلومات مخزنة بالإنجليزية. ومن هنا كان الوعي الاقتصادي وحده هو الذي يجعل البلاد المصدرة في العالم غير المتحدثة بالإنجليزية تفضل الإنجليزية على كل اللغات الأجنبية الأخرى. والطلب الناشئ على تعلم اللغة الإنجليزية تغذيه عمليات صناعية على المستوى العالمي

بدورة رأسمال سنوية تقدر بنحو ستة مليارات جنيه إسترليني^(١٢).

وتحل الإنجليزية محل الفرنسية على أنها لغة مفضلة للدبلومة ماسية بعد الحرب العالمية الثانية، وتقدم الإنجليزية في مناهج اللغة الأجنبية في كل مكان تقريباً. ففي المدارس الألمانية - مثلاً - كما في مدارس كثير من البلاد الأخرى حلّت الإنجليزية محل الفرنسية بوصفها اللغة الأجنبية الأولى كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

ولما كانت اللغة الإنجليزية يكتسبها - بوصفها لغة أجنبية - أفراد ومؤسسات أكثر من أي لغة أخرى فقد احتلت وضعاً خاصاً في السوق العالمية للغات، ورصيداً في الحساب الجاري أفضل كثيراً من رصيد أي من منافساتها.

ولا بد من التمييز بين اللغة الأولى واللغة الثانية، فمعايير تقييم لغة المرء الأولى من المرجح أن تختلف عن المعايير التي تطبق على أي عدد من اللغات الأجنبية، وهذا التمييز له نظير مالي، وهو أن نتذكر الفرق بين استعمال النقود في السوق المحلية وبين استعمالها بوصفها عملة أجنبية.

والأرصدة غير المتساوية للحسابات الجارية للغات تعني بالنسبة للمتحدث الفرد أن اللغة الأولى تأهيل قابل للاستثمار اقتصادياً بالنسبة لبعض اللغات، ولكنه غير قابل لهذا بالنسبة للغات أخرى. فخرى الجامعات البريطانية مثلاً يمكنهم أن يكسبوا رزقهم في كثير من الأماكن حول الأرض من دون أي تدريب مهني آخر، عن طريق تسويق مهاراتهم في اللغة الأم. أما هذه الفرص بالنسبة لنظرائهم الدانماركيين واليونانيين فهي فرص أكثر بقدراً كبيراً. وعلى العكس فبالنسبة لهؤلاء المتطلعين لشغل وظائف في الشؤون الإدارية أو السياسة الدولية أو في التعاون

(١٢) فلوريان كولماس - اللغة والاقتصاد - مرجع سابق ص ١٠٠.

الدولي أو الأعمال الأخرى المشابهة فإن الإنجليزية أصبحت منذ فترة أسلم استثمار، وسوف تستمر كذلك في المستقبل المنظور.

ولقد أثبتت الدراسات الحديثة أن اللغات يمكن أن تعدّ مشروعات استثمار رأسمالي بالمعنى الحرفي لا بالمعنى المجازي، وحددت في ضوء ذلك مجالات الاستثمار اللغوي وشروطه ومقوماته وفوائده. وكانت أهم مجالات الاستثمار المؤكدة الفائدة والممكنة، ما يمكن الاصطلاح عليه بالحوامل المادية أو الافتراضية للغة، أي تصنيف المعاجم العامة ومعاجم المصطلحات والمعاجم المتخصصة وبرامج معالجة النصوص، والترجمة الآلية والذكاء الاصطناعي بتوفير ذخائر اللغة وبنوك المعلومات ونظمها والعمل على مواءمة اللغات للأجهزة الإلكترونية الحديثة.

إن العجز عن تصدير اللغة القومية يجبر حتماً إلى استيراد لغة الأخر، إذا توفرت للغة جملة من الشروط المحددة والعوامل المساعدة وكانت تتميز بالقابلية الذاتية للتسويق، فيمكن أن تكون مجال استثمار مؤكد وسلعة للتداول مضمونة الربح والكسب، وهذا مما يدعم قيمتها باعتبارها من أسس الهوية القومية.

ولكي تقوم العربية بوظيفتها بنجاح لا بد من تطوير اللسانيات الحاسوبية العربية ومنجزاتها لتيسير نشر المعرفة التقنية في مجال اجتماعي متسع، ولضمان النجاح في هذه الخطوة لا بد من دعم التواصل والتعاون مع مستعملي اللغات الأجنبية التي ترسم بالخط العربي مثل الفارسية، وكذلك فتح باب التواصل مع المجتمعات التي تستعمل العربية من غير العرب لانتهاها إلى الدين الإسلامي ضماناً لسعة السوق ودعماً لعملية الترويج والمبادلة. ولتسهيل تعلم اللغة العربية في المجالين العلمي والتقني كان لا بد من إحداث مواقع تعليم إلكترونية على

الشابكة لأن من شأن ذلك أن ييسر نشر اللغة ويضمن حسن تلقيها.

إن بلوغ العربية منزلة مثل منزلة الإنجليزية في الشيع والانتشار ليس بالشيء العزيز إذا أحسن أهلها توظيف العلاقات التجارية مع الدول الإسلامية المتقدمة مثل ماليزيا والباكستان واندونيسيا وإيران لما يجمعها بالعربية من روابط دينية تجعلها في حاجة إلى تعلم العربية.

إن فرض اللغة في مجال التعامل والخدمات وتعريب المحيط من شأنه أن يدفع بالجهد ويحقق نمو اللغة، ومن ثم نمو المعرفة فالاقتصاد، ويكون ذلك باستخدامها في مجال النفط وصناعاته والاستثمار فيه، وهذا مما يدفع المستثمرين الأجانب إلى تعلمها باعتبارها من أدوات العمل الضرورية.

ويمكن فرض اللغة شرطاً على العمالة الوافدة للدول العربية المستقبلية مثلما تحاول الدول الأوروبية فعله مع المهاجرين إليها، وكذلك فرض تعريب الوثائق ومطبوعات السفر والخدمات البنكية والبريدية والمراسلات الإلكترونية على القادمين إلى البلاد العربية، والخدمات في المواقع السياحية والفنادق، ودعم السياحة الثقافية بإبراز الآثار العربية خاصة المحللة منها بالحرف العربي وكذلك المخطوطات العربية القديمة. ويمكن استثمار جمالية الخط العربي وتوظيفها في الرسم والعمارة والمنسوجات والنقش والمنحوتات... الخ^(١٣).

وفي مجال التبادل التجاري بإمكان الدول العربية فرض التعريب على المستوردات الأجنبية المراد تسويقها عندها من حيث العلامات والأسماء والإشهار كتابة ونطقاً وهو ما تفعله الآن العديد من المصانع الآسيوية من تلقاء نفسها ضمناً

(١٣) الدكتور محمد الكافود - العمالة الوافدة للدول العربية - المجلس الدولي للغة العربية - دبي -

للمزاحمة على السوق العربية في مجال لعب الأطفال والهواتف المحمولة والمصابيح ولوحات الزينة وغيرها من عناصر التجهيز المنزلي والاستخدام اليومي. ويمكن للعامل السياسي والاجتماعي أيضاً أن يكون مجالاً للنمو اللغوي إذا فرض وجوده، وإن تعريب المنتجات الوطنية الموجهة للاستهلاك المحلي لا بد من الحفاظ عليه لأن في الإخلال به قتلاً للهوية ولأن الأمم تفهم لغتها في كل الأحوال قبل اللغة الأجنبية.

وتجدر الإشارة إلى أن سوق العربية واسعة جداً مادامت هي الخامسة عالمياً من حيث عدد المتكلمين بها، وما دامت مرجعية حضارية دينية لأكثر من مليار مسلم غير عربي.

ويرى الكاتب أحمد بهاء الدين في مقال له عنوانه «المثقفون والسلطة في العالم العربي» أن اللغة العربية هي ثروة قومية حقيقية مثلها في ذلك مثل البترول والصناعة والزراعة وقناة السويس وغيرها من الثروات الطبيعية، ويمكن استثمارها حضارياً وسياسياً والانتفاع بها على أنها مورد اقتصادي كبير، ويمكن استثمارها تماماً مثلما نستثمر الإنتاج الصناعي والزراعي وكل ما نملكه من الموارد الاقتصادية الأخرى التي تعتمد عليها الثروة القومية.

ويؤيد الكاتب الدعوة إلى فكرته قائلاً: «كان من حظي أنني زرت كثيراً من البلدان الإفريقية، وعرفت فيها من الزعماء والكبار والحكام إلى باعة الفاكهة في الأسواق الفقيرة، ووصلت إلى (تمبوكتو) في مالي، وقد عرفت معرفة شخصية الأشواق الهائلة لدى هذه الشعوب إلى اللغة العربية وإلى العروبة، وإلى معرفة لغة دينهم، كنت أسير في الأسواق فإذا عرف العامة أنني عربي قادم من مدينة الجامع الأزهر، أحاطوا بي لا حفاوةً فقط، بل تبركاً، يمسخون ثيابي، ثم

يمسحون وجوههم، فاللغة العربية لأنها لغة دينهم هي عندهم مقدسة، ومن يتكلمها كأنه من الأولياء الصالحين الذين يتبركون بهم. كنت أحياناً أهرب من الأسواق حين أشعر أن الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني (ضريح متنقل) لا ينقصهم إلا أن يربطوا في عنقي وأطرافي أحجيتهم وأدعيتهم).

وتجدر الإشارة إلى أن ما ورد على لسان الكاتب المصري أحمد بهاء الدين يدل دلالة واضحة على مكانة اللغة العربية في كثير من البلدان الإفريقية، وكانت هذه البلدان تعرف هذه اللغة وتكلمها من قبل، إلا أنها فقدتها بضغط استعماري مستمر وقوي.

إن مدينة (تمبوكتو) التي ذكرها الكاتب كانت عاصمة من عواصم الثقافة العربية الإسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولكنها فقدت هذا الدور الثقافي بفعل الاستعمار الثقافي الذي عمل على إبعاد اللغة العربية بفعل الاستعمار اللغوي وفرض لغته على سكان البلاد.

ويمكن ذكر بعض مجالات الاستثمار في ميادين اللغة العربية على النحو التالي:

- ١ - الاستثمار في مجال الموسوعات والبنوك الرقمية العربية.
- ٢ - الاستثمار في ترجمة أمهات الكتب العلمية وتزويد الجامعات العربية بها، وفي الترجمة الآلية ولا سيما في المجالات العلمية والتقنية (المعاجم التحويلية، المصطلحات الخاصة بالشركات، الترجمة عبر الشبكة، مراقبة الأخبار، الإعلام... الخ).
- ٣ - الاستثمار في وضع معاجم إلكترونية خاصة بالنحو والصرف والبلاغة والإملاء والعروض.. الخ.
- ٤ - الاستثمار في وضع برامج تفاعلية حاسوبية لتعليم اللغة العربية لأبنائها

ولغير أبنائها، وإجراء دورات تعليمية مكثفة للعاملين على الأرض العربية على ألا يسمح لهم بالعمل، وألا تجدد إقامتهم إلا إذا خضعوا لهذه الدورات وأثبتوا نجاحهم فيها.

٥- الاستثمار في وضع برامج دينية مبسطة لتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتوجه خاصة إلى دول العالم الإسلامي، إضافة إلى برامج تؤكد وسطية الدين الإسلامي وإنسانيته في منأى عن كل تزمت أو تعصب أو تكفير.

٦- الاستثمار في وضع برامج موجهة للأسرة العربية.

٧- الاستثمار في وضع برامج موجهة للطفل العربي على غرار برنامج افتح يا سمس.

٨- التعامل مع المعلومات بوصفها ثروة أو سلعة اقتصادية مهمة.

٩- الاستثمار في تحويل النصوص إلى كلام والكلام إلى نصوص.

١٠- الاستثمار في زيادة المحتوى الرقمي العربي على الشبكة (الإنترنت) بعد أن تبين غياب استراتيجية عربية لصناعة المحتوى من جهة والتبعية المعلوماتية من جهة أخرى، كما تبين ندرة برامج البحث والتطوير الموجهة لصناعة المحتوى، وعزوف القطاع الخاص عن الإسهام في هذه الصناعة.

١١- الاستثمار في مشروعات إصلاح الكتابة وتيسير قواعد الإملاء والنحو.

١٢- الاستثمار في تنقية الوثائق العامة والمناهج التربوية من التمييز الجنسي.

١٣- الاستثمار في مجال صوغ المصطلحات.

١٤- الاستثمار في وضع برامج تعنى بإظهار الجوانب المشرقة في تراثنا العربي الإسلامي، وتبيان إنسانية الرسالة الإسلامية، ودعوتها إلى العقلنة والتبیین

والعدالة والرحمة والسلام في منأى عن أي تعصب أو تزمت أو تكفير.
 ١٥ - الاستثمار في وضع آليات لمراجعة نقدية للأفكار المنتشرة بالاستفادة من التقنيات المعاصرة والتي توظف من قبل أعداء الأمة لتشويه صورة العرب والمسلمين.

رابعاً - الخلاصة

والخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها في هذا الشأن تتمثل في أن عملية التنمية لا تجري إلا بالتنمية البشرية المستدامة، وهذه لا تتحقق إلا بالاستثمار الصحيح في الإنسان وخاصة معرفته، وأن اللغة هي وعاء المعرفة ولا سيما معرفته العلمية والتقانية، وأن دور اللغة العلمية والتقانية في تحسين مردود القوى العاملة أي باللغة الأم يتعاظم بدرجة كبيرة مع التوجه نحو الاقتصاد المبني على المعرفة. وتعد الترجمة العلمية من وسائل إغناء اللغة العلمية والتقانية للقوى العاملة، أي من وسائل النهوض الاقتصادي والاجتماعي. والنمو الاقتصادي هو مفتاح حل أهم القضايا الاقتصادية العربية المعاصرة وهي: توليد فرص العمل، وتنويع النشاطات الاقتصادية، وزيادة دخل الفرد، ومن ثم زيادة الناتج الإجمالي المحلي العربي.

ويعد استعمال اللغة العربية بمردود جيد وكفاية عالية أساساً لتحقيق النمو وضرورة ماسة في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وذلك لعدة أسباب منها^(١٤):

١ - توفر اللغة تبادل المعرفة ونقلها وتبادل الخبرة بين أفراد المجتمع

(١٤) الدكتور محمد مرياتي - تأثير اللغة في النمو الاقتصادي والاجتماعي في الدول العربية - مجلة المعلوماتية - العدد ٩ شباط ٢٠٠٦.

ومؤسساته، وهي وسيلة التواصل بين مكونات منظومة العلم والتقانة، فهي كالمال.

٢- يحقق إتقان القوى العاملة للغة العلمية والتقانية نقل التقانة للمجتمع من منابعها العالمية.

٣- إن العمل المشترك المنتج والفعال في المكتب والمصنع والحقل يحتاج إلى لغة علمية وتقانية حية، وإن العمل المشترك يؤدي إلى زيادة دخل الجميع، وهذا لا يتحقق إلا باستعمال اللغة الوطنية (اللغة الأم).

٤- إن تعلم العلوم والتقانة والتدريب عليهما، وتحويل هذه المعرفة إلى خبرات وأفعال ومنتجات وخدمات يحتاج إلى انتشار هذه المعلومات والخبرات بين أفراد المجتمع.

٥- إن استخدام التقانة استخداماً فعالاً من قبل القوى العاملة ومن أفراد المجتمع يحتاج إلى انتشار هذه المعلومات والتقانات باللغة الأم بغية الوصول إلى ما يسمى مجتمع المعرفة، ولا يمكن أن يكون بلغة أجنبية في المجتمع.

ولا بدّ لنا من الإشارة أخيراً إلى أن الجهود والاستثمارات الكبيرة التي تضعها الدول العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة لن تكون مجدية ما لم يرافقها وجود المعرفة والمعلومات العلمية والتقانية باللغة العربية لكي تكون في متناول المواطن العربي.

وأن النهوض باللغة العربية يرتبط - شئنا أم أبينا - بتقدم حالة الاقتصاد، وهذا يتطلب^(١٥):

(١٥) سعيد أحمد بيومي - اللغة العربية والنشاط الاقتصادي - ديوان العرب - حزيران (يونيو)

- ١ - أن يغار رجال الأعمال العرب على لغتهم إذ من الخزي والعار أن تقوم بعض الدول الآسيوية الصغيرة بتصدير الدمى وفوانيس رمضان التي تنطق باللغة العربية، في الوقت الذي يكتفي فيه العرب بالطرب لها.
 - ٢ - أن تعي الحكومات العربية أن الاهتمام باللغة العربية هو من أولويات مسؤولياتها، أو على الأقل أن تعطيها من الرعاية والاهتمام ما تعطيه للأمور الترفيهية.
 - ٣ - أن يعي الشعب العربي نفسه أن مستقبل الأجيال العربية رهن برعاية اللغة والنهوض بها، وأن عبء النهوض لا يلقى على كاهل جهة واحدة، وإنما هو مسؤولية جماعية.
 - ٤ - أن يعي جميع أبناء الأمة أن الإخلاص للغة مظهر حضاري لا يمكن أن توصف به أمة لا تحترم لغتها، ولا يبذل أفرادها كل ما في وسعهم من أجل النهوض بها، وهو نهوض ينعكس على حاضرهم ومستقبل أبنائهم.
- لقد آن لهذه الأمة أن تعي أن لغتها هي عنوان شخصيتها، وأنها وطنها الروحي، ومستودع تراثها، والمحافظة على ذاتيتها الثقافية، وأنها رمز هويتها الحضارية، وكيانها القومي، ولسان قرآنها الكريم، وأن عليها أن تأخذ دروساً من الأمم الأخرى من حيث عنايتها بلغاتها والترويج لها والعمل على سيورتها وانتشارها، فهذا هي ذي إحصاءات في تسعينيات القرن الماضي تدل أيما دلالة على عناية الدول الأجنبية بالترويج للغاتها، فوزارة الخارجية الألمانية تخصص ٥٠٪ من الميزانية الثقافية لوزارة الخارجية أي ٥٠٠ مليون مارك ألماني سنوياً لإعانات التصدير اللغوي للغتها إلى الخارج، وها هي ذي فرنسا تخصص ٢٥ - ٣٠ بليون فرنك فرنسي لنشر اللغة الفرنسية في الخارج، ويعمل الساسة

الفرنسيون على التركيز على الأهمية المعنوية للفرنسية على أنها اللغة العالمية في الوضوح *Clarté*، والجمال *Beauté*، والكمال *Perfection*، وها هي ذي بريطانيا يخصص المجلس البريطاني فيها ميزانية لنشر اللغة الإنجليزية قدرها / ٢٠٠ / مليون جنيه إسترليني سنوياً، وثمة خمس هيئات في أمريكا تروج للإنجليزية، وهذه الهيئات هي:

- وكالة التنمية الدولية.

- وكالة الإعلان الأمريكية.

- فرق السلام.

- إدارة الدولة.

- إدارة الدفاع.

وعملت إسبانيا على زيادة عدد معاهدها الثقافية في العالم لنشر لغتها الإسبانية إلى سبعين معهداً، وخصصت لهذه الغاية ٧٥ مليون دولار سنوياً لتنفيذ مشروع سرفانتس^(١٦).

ومن الأساليب المتبعة لتعزيز التصدير اللغوي:

- زيادة العرض للغة بإمكان تعلمها في أماكن جديدة وتنوع مجالات

المنتجات اللغوية الجديدة.

- حفز الطلب.

- تخفيض السعر.

والواقع أن إمكانات الاستثمار في اللغة العربية متعددة، ولا ينقصنا إلا صدق الانتباه إلى الأمة ولغتها العربية، ووضع الأمور في مواضعها، على أن

(١٦) فلوريان كولماس - اللغة والاقتصاد - مرجع سابق.

ينظر إلى هذا الاستثمار على أنه من الأولويات، لأن من عوائده الحفاظ على هوية الأمة وثقافتها وسيادتها والاستمرار في ألقها الحضاري على النحو الذي أسهم فيه العلماء العرب من قبل، على أن نأخذ بالحسبان أن شروط النجاح في العمل هو ضمان جودة النتاج وسعة السوق وساحة الترويج، وتتمثل الجودة في هذا المجال في أن تكون اللغة موضوع التبادل أو الترويج على درجة من التطور يتيح لها مواكبة الخطاب العلمي والتقني وتمثل روح العصر عصر العلم والتقانة، وأن يؤخذ بالحسبان أيضاً أن الاستثمار في اللغة مسؤولية الحكومة بالتعاون مع القطاع الخاص والمجتمع المدني، وهو مشروع استثماري لا غنى عنه إطلاقاً للوصول إلى مجتمع المعرفة والاقتصاد المعرفي.

ولا ضير في أن نأخذ درساً من عدو أمتنا فقد جعل الإسرائيليون لغتهم العبرية تستجيب لمتطلبات عصر العلم والتقانة، فمن بين ١١٤٧ عنواناً نشرته المطابع الإسرائيلية كان ٨٤٪ منها قد كتب بالعبرية أصلاً و١٦٪ منها فقط كان مترجماً.

لقد آن الأوان لأن نعي أن الاستثمار في الفكر، ووعاؤه اللغة، يجيء في مقدمة الأولويات، وأن الاستثمار في مناجم العقول لا يعدله أي استثمار آخر، ورحم الله الشاعر بدوي الجبل إذ يقول:

والدهرُ ملك العبقريّة وحدها	لا ملك جبارٍ ولا سفّاح
والكون في أسراره وكنوزه	للفكر لا لوغى ولا سلاح
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها	إلا بفكرٍ كالشعاع ضراح



المصادر والمراجع

- تأثير اللغة في النمو الاقتصادي والاجتماعي في الدول العربية - الدكتور محمد مراياتي - مجلة المعلوماتية - العدد ٩ تشرين الثاني - دمشق ٢٠٠٦.
- العمالة الوافدة إلى الدول العربية - الدكتور محمد الكافود - المجلس الدولي للغة العربية - دبي - أيار ٢٠١٤.
- الفجوة الرقمية - الدكتور نبيل علي وفادية حجازي - عالم المعرفة الكويت ٢٠٠٥.
- اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسسات التعليمية في الجمهورية اللبنانية - الدكتور ياسين الأيوبي - الواقع والتحديات واستشراف المستقبل - منشورات مجمع اللغة الأردني - عمان ٢٠٠٥.
- اللغة العربية والنشاط الاقتصادي - الدكتور سعيد أحمد بيومي - ديوان العرب - حزيران (يونيو) ٢٠٠٦.
- اللغة القومية عامل خفي في النمو الاقتصادي - الدكتور محمد عبد العظيم - مجلة التعريب - العدد الثالث والأربعون - دمشق - كانون الأول ٢٠١٢.
- اللغة والاقتصاد - فلوريان كولماس - ترجمة أحمد عوض - عالم المعرفة - الكويت.
- اللغة والاقتصاد في مجتمع المعرفة - الدكتور محمد مراياتي - هيئة الموسوعة العربية - موسوعة العلوم والتقانة - دمشق ٢٠١٤.
- مؤتمر المجلس الدولي للغة العربية - الدكتور علي بن موسى - دبي - أيار ٢٠١٤.

أبناءُ جمعيةٍ وثقافيةٍ

قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب ٢٠١١ (*)

(٣٤)

تَوَجَّبَ وَتَوَجَّبَ

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال المعاصر فعل (تَوَجَّبَ) ومشتقاته من نحو: يتَوَجَّبُ وتَوَجَّبَ، كما في قولهم: «يتوجب إعادة النظر في القرار» بمعنى يلزم ويتحتم. ويخطئه بعضهم لأنه ليس لهذا البناء دلالة في المعاجم.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «تَوَجَّبَ» بمعنى تحتم ولزم، وكذا مشتقاته، وإضافة ذلك إلى المعجم، والأولى أن يقال: وَجَبَ وَيَجِبُ.

٣- التعليل:

أ- في المعاجم:

لسان العرب: «الوجبة: الأكلة في اليوم والليلة.. وقد وجب لنفسه توجيباً

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

إذا عَوَّدها ذلك [أي الأكل مرة واحدة في اليوم والليلة].. وجب الشيء وجوباً؛ أي لزم.. واستوجهه: أي استحقَّه».

التاج: «وَجَبَ الشيءُ: ثبت وُلزم.. أَوْجَبَ هو إذا كان يأكل مرة.. ووجَّب نفسه وعياله: عَوَّدهم أكلة واحدة».

الوسيط: «وَجَبَ الشيءُ وجوباً ووجِباً ووجبة ووجبة: لزم وثبت.. وَجَبَ فلان وجبة: أكل أكلة واحدة في اليوم والليلة. أَوْجَبَ الشيءُ: جَعَلَهُ لازماً.. وَأَوْجَبَ فلانٌ وتوجَّب: أكل أكلة واحدة في اليوم والليلة».

إذن ليس في اللسان ولا التاج بناء (تَفَعَّل - تَوَجَّب) .. وفيها وجَّب وأوجب إذا كان يأكل مرة واحدة في اليوم والليلة.

وانفرد الوسيط بإيراد (تَوَجَّب) بناءً ودلالةً بمعنى أكل وجبة واحدة إضافة إلى (أَوْجَب) للدلالة نفسها.

ب- في الصرف والدلالة:

من معاني (تَفَعَّل) في العربية التلبس بما اشتق منه نحو (تَقَمَّصَ: لبس قميصاً، وتَقَبَّى: لبس قباءً). وعليه فيصح أن يكون (تَوَجَّب) بمعنى لابسَه الوجوب، وهو اللزوم والثبوت.

ومن معاني (تَفَعَّل) الصيرورة نحو: تَأَهَّل: إذا صار ذا أهل، وتَحَنَّف: صار حنيفاً، وتزبَّب: صار زبيياً. وعليه يمكن أن يقال: توجب الأمر أي صار واجباً أي لازماً.

ومن معاني (تَفَعَّل) موافقة (فَعَّل) نحو تعجَّب بمعنى عجب، وتبيَّن بمعنى بان، وتلبَّث بمعنى لبث. وحملاً عليه يمكن أن يكون قولنا: «تَوَجَّبَ عليه الحضور» بمعنى وَجَبَ عليه الحضور أي ثبت وُلزم.

وبدلاً من أن نخصَّ (أكل أكلة واحدة) ببناءين هما: أَوْجَبَ وَتَوَجَّبَ كما في

الوسيط، يحسن أن نخصص (أَوْجَبَ) للدلالة: أكل وجبة واحدة، و(تَوَجَّبَ) لدلالة اللزوم والتحتم.

ج- في الاستئناس:

- تكرر هذا الفعل مئات المرات في كتب المحدثين من مثل: (يَتَوَجَّبَ علينا، يَتَوَجَّبَ عليه، يَتَوَجَّبَ عليها، يَتَوَجَّبَ عليهم) وممن استعمله محمد بن علي الشوكاني في كتابه (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) ١١ / ١٦٠.

- وأورده معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر وفريقه بمعنى تحتم ولزم. العضو د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «تَوَجَّبَ» بمعنى تحتم ولزم، وكذا مشتقاته، وإضافة ذلك إلى المعجم، والأولى أن يقال: وَجَبَ وَيَجِبُ.

* * *

(٣٥)

(يجب ألا نساfer) و (لا يجب أن نساfer) ليستا بمعنى واحد

١- المسألة:

يستعمل بعض الكتاب والصحفيين عبارة (لا يجب) للدلالة على نفي التزام الحدث والكف عن فعله كقولهم: (لا يجب أن نساfer)، يعنون بها نفي السفر إطلاقاً.

٢- الاقتراح:

استعمال: (يجب ألا نساfer) بمعنى وجوب عدم السفر، واستعمال: (لا يجب

أن نسافر) بمعنى أن السفر غير واجب بل جائز، ولكلّ من العبارتين معنى.
٣- التعليل:

إن عبارة مثل: (لا يجب أن نسافر)، تنفي وجوب السفر ولكنها لا تنفي الجواز، أي تجيز السفر، إذ تعني العبارة أنه يجوز أن نسافر، ولكن السفر ليس لازماً حتماً، فهنا نفي وجوب الحدث والتزامه، ولكننا لم ننف جوازه، فإذا أردنا نفي الحدث لزم إدخال أداة النفي على فعل الحدث وهو هنا (السفر)، فنقول: (يجب ألا نسافر) لأن هذه العبارة تعني التزام نفي السفر، أما في عبارة (لا يجب أن نسافر) فتعني نفي التزام الوجوب وليس نفي الحدث وهو السفر، ذلك أن أداة النفي تعمل فيما تدخل عليه، ففي عبارة (لا يجب أن نسافر) يتوجه النفي إلى الوجوب، وليس هو المطلوب، وفي عبارة (يجب ألا نسافر) يتوجه النفي إلى الحدث وهو السفر.

أما قولنا: (لا يجوز أن نسافر) فهو صحيح لأن النفي هنا يتوجه إلى نفي الجواز فإذا نفي الجواز نفي معه الوجوب أيضاً، لأن ما لم يكن جائزاً لا يصح أن يكون واجباً. ولو قيل: (يجوز ألا نسافر) فالدلالة هنا تعني إمكان وقوع الحدث وعدمه.

العضو د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

استعمال: (يجب ألا نسافر) بمعنى وجوب عدم السفر، واستعمال: (لا يجب أن نسافر) بمعنى أن السفر غير واجب بل جائز، ولكلّ من العبارتين معنى.

* * *

(٣٦)

أُمَّتَةٌ وَمُؤْتَمَّتٌ

١ - المسألة:

يشيع في الكتابة العلمية والإدارية كلمة (الأُمَّتَةُ) بمعنى أداء العمل كاملاً بوساطة الآلة، ولا سيما الحواسيب وبرمجياتها. وهي كلمة أجنبية معرّبة لم توردتها المعاجم اللغوية القديمة وجلّ المعاجم اللغوية الحديثة.

٢ - الاقتراح:

صحة تعريب كلمة (أُمَّتَةٌ) بمعنى إنجاز عمل بوساطة الآلة عامة والحاسوب خاصة بدون تدخل الإنسان، وجواز استعمالها.

٣ - التعليل:

لم تتعرض المعاجم الحديثة لهذه الكلمة، مع أنها دخلت اللغات العلمية في أوروبا منذ ثلاثينيات القرن العشرين. وكلمة (الأُمَّتَةُ) تعريب لفظي لكلمة (automatisation) الفرنسية، وكلمة (automatization) الإنكليزية كما عُرِّبت كلمة (automatisme) و (automation) إلى الإنكليزية (الأُمَّتِيَّةُ)، وتعني «مجالات العلم والتقنية التي تهتم بدراسة النظريات والتطبيقات المتعلقة ببنية منظومات التحكم التي تعمل من دون تدخل مباشر من الإنسان» كما جاء في الموسوعة العربية؛ أي (علم الأُمَّتَةُ) وهي من مصطلحات نظم التحكم والمعلوماتية. وقد جاء تعريب الكلمة انطلافاً من تعريب أصل المصطلح الإنكليزي وهو (automate)، وهو تعريب لفظي جاء على منهج العرب في التعريب، إذ خلت الكلمة المعرّبة من أصوات أجنبية وصيغت على إيقاع بناء عربي هو (فَعْلَلَةٌ) الذي هو مصدر الفعل الرباعي المجرد.

وإذا صحَّ تعريب كلمة (الأُمَّتَة) بمعنى المصدرية صحَّ أخذ فعل رباعي منها هو (أُمَّتَ)، أي أنجز العمل بوساطة الآلة أو الحاسوب من دون تدخل الإنسان، وكذا يصحَّ اشتقاق اسم الفاعل من الفعل وهو (مُؤَمِّتٌ)، واسم المفعول (مُؤَمِّمٌ).

ومما يُستأنس به أن هذه الكلمة استعملت عشرات المرات في كتب علمية ومرجعية أبرزها:

- الموسوعة العربية ٢/ ٢٧٧ و ٢٨٤.
- معجم مصطلحات المعلوماتية (الصادر عن الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية) ص ٣٢.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صححة تعريب كلمة (أُمَّتَة) بمعنى إنجاز عمل بوساطة الآلة عامة والحاسوب خاصة بدون تدخل الإنسان، وجواز استعمالها وإضافتها إلى المعجم العربي.

* * *

**الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية
في الربع الثالث من العام ٢٠١٥**

أ. أنور درويش (*)

- ١- الأعمال الشعرية: نزار بريك هنيدي، وزارة الثقافة، ٢٠١٥، سلسلة الأعمال الكاملة (٣١).
- ٢- الأدب والأدبية: حسن إبراهيم الأحمد، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة دراسات أدبية (٢٢).
- ٣- أسبوعيات سورية في حرب القرن الإرهابية: رغداء مارديني، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
- ٤- أنسام شام (طهر الأزمنة): إسماعيل مروة، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
- ٥- تاريخ مملكة إبلا وآثارها: عيد مرعي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
- ٦- التجارة الإلكترونية بين المفهوم والتطبيق: حسان محمد سلمان، وزارة الثقافة، ٢٠١٥.
- ٧- التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني: محمد إبراهيم الحوراني، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

- ٨- الخبر ومقاصده عند الجاحظ: ميادة أسبر، وزارة الثقافة، ٢٠١٥، سلسلة دراسات في الأدب العربي (٣٢).
- ٩- دراسات وأبحاث الحياة الموسيقية: سهيل الملاذي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة دراسات موسيقية (١٢).
- ١٠- دروب في المشهد التشكيلي السوري: علي الراعي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة فنون (١١).
- ١١- رباعيات (علمتي الحياة): أنور العطار، تحقيق: هاني العطار، الرياض، ٢٠١٥.
- ١٢- زيادة الأسماء وزيادة بعض الأفعال: أيمن الشواء، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة تمكين اللغة العربية (١٠).
- ١٣- شذرات في الموسيقى (مقالات متنوعة): محمد حنانا، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة دراسات موسيقية (١٣).
- ١٤- شعر الجلاء (مختارات): غسان كلاس، تدقيق: جهاد بكفلوني، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٤.
- ١٥- الشمس وكواكبها: طالب عمران، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
- ١٦- عن الموسيقى والموسيقين (مقالات مختارة): غزوان زركلي، وزارة الثقافة، دمشق، سلسلة دراسات موسيقية (١١).
- ١٧- غورا (رواية): رابندرانات طاغور، ترجمة: ماري شهرستان، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة الخطة الوطنية للترجمة (١٣).
- ١٨- في الأبعاد الحقيقية للأزمة: خلف المفتاح، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.
- ١٩- كمال فوزي الشرايبي (شاعراً، مترجماً، باحثاً): غسان الكلاس، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٤.
- ٢٠- ما بعد النظرية: تيري إيغلتن، ترجمة: باسل المسالمة، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.

- ٢١- المنهج الرباني في فكر وسلوك الإمام محمد سعيد رمضان البوطي: هنائي الأورفه لي، تقديم: خضر شحرور، دار الفارابي، دمشق، ٢٠١٤.
- ٢٢- المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف: الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق: بكري علاء الدين، دار نينوى، دمشق، ٢٠١٤.
- ٢٣- الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع: عهد كمال شلغين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥، سلسلة دراسات فكرية (١١).
- ٢٤- الوقائع السورية (مرتبة حسب السنوات ١٩١٨-١٩٦٨): جورج جبور، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٥.

* * *

ب - النشرة الأجنبية

رعى المعدني (*)

Books:

- AL-Kamel AL-Kabir/ Youssof M.Red.
- One Hundred Years of Solitude/ Gabriel Garcia Marquez.
- Mémo Larousse.
- The Light of the Holy Quran.
- Lord of Arabia: Ibn Saud/ H.C.Armstrong.
- L'éducation pour le développement rural/ UNESCO.
- Peace and Prosperity Policy and Peace Regime/ In-Duk Kang.

Periodicals:

- AJAMES, N.31-1, 2015
- AWRAQ, N.9, 2014.
- IBLA: Revue de L'Institut des Belle-Lettres Arabes, 77e Année, N. 213,214, 2014 (1-2).



تنضيد وإخراج: عمار البخاري

